

الدكتور علي عفيفي علي غازي

الصراع الأجنبي

على العراق والجزيرة العربية

في القرن التاسع عشر



أوضحت الدراسة أن التطلع البريطاني للسيطرة على العراق، والطرق البحرية العربية كان سابقاً على تواجد محمد علي في شبه الجزيرة العربية، ولكن نجاح محمد علي في القضاء على الدولة السعودية الأولى كقوة عربية كانت تخشاها بريطانيا، أتاح لها الفرصة لتدخل تطلعها هذا حيز التنفيذ، فكانت حملتها على رأس الخيمة ١٨١٩ م التي انتهت بتكبير مشيخات الخليج بمعاهدة ١٨٢٠ م التي جعلت من بريطانيا صاحبة النفوذ الأول في تلك المناطق، والوصية على مقدراتها، حتى إذا ما عاود محمد علي نشاطه مرة أخرى ضد الدولة السعودية الثانية، ووصل إلى الخليج ونجح في عقد اتفاق مع شيخ البحرين، وأوجد وكيل له في الكويت، وأرسل سعد بن مطلق المطيري وكيلاً عنه لمشيخات الساحل العماني، عملت على التصدي لأطماعه التوسعية تلك بإقدامها على احتلال جزيرة خرج ١٨٣٨ م، ثم في العام التالي احتلال عدن ١٨٣٩ م للتصدي لتوسعه في اليمن وجنوب البحر الأحمر، وأرسلت بعثة تشيزني لدراسة مدى صلاحية أنهار العراق للملاحة البخارية، وأوجدت لها بواخر مسلحة في المياه العراقية، لتكون أداة للدفاع عنه إذا ما أقدم محمد علي على تنفيذ مشروعه لضم العراق.

الصراع الأجنبي

على العراق والجزيرة العربية

في القرن التاسع عشر

تاريخ

HISTORY

الدكتور: علي عفيفي علي غازي

الصراع الأجنبي على العراق والجزيرة العربية

في القرن التاسع عشر



www.daralrafidain.com

OPUS 
PUBLISHERS

**الصراع الأجنبي
على العراق والجزيرة العربية**
**FOREIGN CONFLICT
IN IRAQ AND THE ARABIAN PENINSULA**
By: Dr. Ali Ghazi

المؤلف
د. علي غازي
الطبعة الأولى، لبنان/كندا، 2015
First Edition, Lebanon/Canada, 2015

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائل نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق
All rights reserved. is not entitled to any person or institution or entity reissue of this book or part thereof or transmitted in any form or mode of modes of transmission of information, whether electronic or mechanical, including photocopying, recording or storage and retrieval, without written permission from the rights holders



56 Laurel Cres. London, Ontario, Canada
Tel: +2666783972
N6H 4W7
opuspublishers@hotmail.com



لبنان - بيروت / الحمرا
تلفون: +961 1 541980 / +961 1 350549
daralrafidain@yahoo.com
www.daralrafidain.com

هام: إن جميع الأراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعتبر بالضرورة من رأي الناشر.

ISBN: 978-0-9940966-1-6

إهداء

إلى والدي ومعلمي وقائدي
لو أنفقت كل ما بيدي
ما وفيتك حقك سيدي
إلى أستاذي
الأستاذ الدكتور جمال محمود حجر
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
عميد كلية الآداب جامعة الإسكندرية السابق
أهدي

المقدمة

نالت سياسة محمد علي التوسعية قسطاً كبيراً من اهتمامات الباحثين، بينما لم يتناول أحدهم تأثير تلك السياسة على الأقطار العربية، رغم أن الصراع بين محمد علي والسلطان العثماني قد امتد أثره إلى بلدان المشرق العربي عامة، والخليج العربي والعراق خاصة.

فقد مثل توسع محمد علي في شبه الجزيرة العربية والشام مرحلة مهمة ذات مغزى في تاريخ العراق والخليج الحديث؛ ففي السنة التي بدأت فيها عمليات محمد علي الحربية في الشام تصادف أن قضى علي رضا باشا والي العراق (١٨٣١-١٨٤١) على المماليك، في أعقاب انتصاره على داوود باشا (١٨١٧-١٨٣١) آخر المماليك في العراق، ونجح في إعادة الحكم العثماني المباشر، وفي الوقت نفسه كان السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩) يسعى لإعادة حكمه المباشر لولايات الدولة العثمانية، وكان التوسع المصري يهدد بانسلاخ العراق عن الدولة العثمانية، ووجد السلطان محمود الثاني نفسه في مفترق طرق؛ إما أن يحكم في دولة عثمانية موحدة، أو أن يكون على رأس إمبراطورية منقسمة على نفسها تنشق عنها مصر، أهم ولايات الدولة تحت حكم محمد علي باشا (١٨٠٥-١٨٤٨).

شهدت تلك الفترة تغيرات إقليمية جوهرية في المنطقة العربية، وتغيرات عالمية، كنتيجة من نتائج الصراع المصري - العثماني، كان لها تأثيرها في تاريخ العراق والخليج الحديث في جوانبه السياسية والإستراتيجية والدبلوماسية والاجتماعية والاقتصادية.

وهذه الدراسة محاولة لكشف النقاب عن تأثير الصراع المصري العثماني على

النشاط الأجنبي في العراق والخليج العربي، فقد نبه الدول الأوروبية، وخاصة بريطانيا، إلى أهمية موقع المنطقة الاستراتيجية كطريق للمواصلات العالمية بين الشرق والغرب، الأمر الذي جعل بريطانيا ترسل بواخرها المسلحة تحت ستار نقل البريد بغرض أن تكون على أهبة الاستعداد للتصدي لمحمد علي إذا ما راودته نفسه بالتفكير في التقدم نحو أنهار العراق أو مياه الخليج، الأمر الذي قد يجعله يسيطر على طريقي مواصلاتها إلى الشرق.

ولم تكد تنتهي الحرب بين محمد علي والسلطان بتسوية ١٨٤٠ / ١٨٤١؛ إلا وكان في العراق أربع بواخر مسلحة، فضلا عن قوة بحرية في البحرين التي تنبأ لها القائد المصري خورشيد باشا بأنها سوف تصبح قاعدة بحرية بريطانية كمالطة في البحر المتوسط، لو تركت بيد الإنجليز^(١). وما إن نشبت الحرب العالمية الأولى حتى كانت القوات البريطانية قد احتلت البصرة في ٢٣ نوفمبر ١٩١٤.

فقد ظل العراق طريق للمواصلات بين أوروبا والشرق الأقصى مُهملا حتى بدأت طلائع قوات محمد علي تصل إلى الخليج بقيادة الميرميران^(٢) خورشيد باشا، وتتقدم إلى الشام بقيادة نجله وقائد جيوشه إبراهيم باشا، فتنهت الدول الأوروبية، وخاصة بريطانيا، إلى أهمية العراق كطريق بديل لمواصلاتها للهند، فكان الصراع المصري العثماني بذلك أول من أكد على أهمية العراق والخليج كطريق للمواصلات يربط بين الشرق والغرب.

كان من نتائج الصراع المصري العثماني أن رفعت فرنسا وبريطانيا وروسيا تمثيلها الدبلوماسي في بغداد إلى درجة القنصلية الدائمة، وتعين قناصل في كل من ديار بكر والبصرة، بهدف استكشاف نوايا محمد علي ومحاولة التعرّف على الخطوة التالية التي سيقدم عليها.

وكان من نتائج الصراع المصري العثماني كذلك توجيه أنظار المبشرين الأوروبيين إلى الأقليات الدينية في العراق، فوصلت أفواج المبشرين الأوروبيين إليهم بالكتب الداعية إلى التبشير، فشهد العراق نشاطاً تبشيرية بروتستانتية وكاثوليكية

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٧ أصلية، ٥٠ حمراء، من خورشيد باشا إلى الباشمعاون الخديوي، بتاريخ ٢١ محرم ١٢٥٥ هـ / ٦ أبريل ١٨٣٩ م.

(٢) رتبة عسكرية شعارها ثلاث نجوم داخل هلال مصنوعة من الذهب المرصع بالأماس.

واسع النطاق، الأمر الذي حدا بالدولة العثمانية إلى أن تتنبه إلى خطورة هؤلاء المبشرين، وحقيقة أهدافهم الاستعمارية، فعملت على إصلاح نظامها الداخلي المتمثل في التنظيمات العثمانية التي يُعد من أشهرها خط شريف كلخانة الذي منح غير المسلمين حقوقاً وحريات جديدة وأوضاعاً متميزة.

كذلك أدى الصراع المصري العثماني إلى تنشيط التجارة عبر العراق بسبب توقفها بعض الوقت عبر طريق البحر الأحمر، فأصبحت البصرة أهم ميناء تجاري على الخليج، خاصة بعدما أصبحت نقطة الانطلاق بين الخليج وأنهار العراق، ونقطة التقاء البريد بين أوروبا والشرق الأقصى والهند بعد انتقال الخطوط البريدية إليها في أعقاب بعثة تشيزني لدراسة مدى صلاحية أنهار العراق للملاحة النهرية، فقد نبه الصراع المصري العثماني بريطانيا إلى الاهتمام بخطوط النقل النهرية عبر العراق، الأمر الذي دفع الحكومة البريطانية إلى إرسال تشيزني لدراسة مدى صلاحية أنهار العراق للملاحة التجارية.

هكذا أدى توسع محمد علي السريع في الشام والأناضول إلى إمكانية انسلاخ العراق عن الدولة العثمانية، ومن ثم وقوع الطريق عبر الخليج بيد حكومة قوية كحكومة القاهرة، ولهذا رأت بريطانيا أن استمرار وضع العراق تابعاً للدولة العثمانية، رجل أوروبا المريض، أفضل من خضوعه لإدارة محمد علي القوية.

وقد تناولت الدراسة، من خلال منهج البحث التحليلي المقارن، جذور التدخل الأجنبي في الخليج العربي والعراق، وأثر الحملة الفرنسية على الاهتمام الدولي بالمنطقة، وبالتالي ازدياد النشاط الأجنبي، ولما كان التدخل البريطاني في العراق قد شهد مراحل مقاومة وصراع مع الولاة، الأمر الذي أدى إلى وجود فترات تاريخية تفوق فيها النفوذ الفرنسي، الذي كان أسبق من النفوذ البريطاني في الوصول إلى العراق، كفترة ولاية داود باشا التي قاوم فيها التدخل البريطاني في الشؤون الداخلية للولاية، فاصطدم بالوكيل البريطاني في بغداد، فقد رأينا تناول مظاهر ذلك الصدام حتى انتهى الأمر بطرد الوكيل البريطاني من العراق، وكانت النتيجة تأييد بريطانيا وحكومة الهند البريطانية لحملة على رضا باشا والي حلب، التي أرسلها السلطان محمود الثاني؛ بهدف القضاء على المماليك والعودة بالعراق للحكم العثماني المباشر، الأمر الذي انتهى بتفوق النفوذ البريطاني في العراق.

ثم تطرق البحث لأثر الصراع المصري العثماني على النشاط الأجنبي، والملاحة البخارية في الخليج، والنهرية في العراق، ومن ثم كان إرسال تشيزني في بعثة لدراسة مدى إمكانية استغلال أنهار العراق في الملاحة، وموقف محمد علي من تلك البعثة التي اشتهرت باسم بعثة الفرات، ولماذا وقف منها معارضاً في البداية؟، ثم لماذا تحول إلى التأييد والسماح لها بالمرور من الأراضي الشامية التي كانت تحت سيطرته في ذلك الوقت؟، وموقف الأهالي والعشائر العراقية منها، ونجاحها في النهاية في العمل على تفوق الملاحة البخارية البريطانية في أنهار العراق، وفي السماح لأربع بواخر مسلحة بأن تمرر غُباب المياه العراقية.

كذلك لعب الصراع المصري العثماني دوراً في تنشيط الاهتمام السياسي والدبلوماسي في العراق، وفي تنشيط بعثات التبشير التنصيرية البريطانية والفرنسية والإيطالية والأمريكية، ولعب دوراً في بعثات التنقيب عن الآثار، وفي الدراسات الطبوغرافية والجغرافية، فقد نبه الصراع بين محمد علي والسلطان العثماني الدول الأوروبية إلى أهمية العراق، وأهمية موقعه الجغرافي، كطريق بديل للمواصلات إلى الهند، فتنامى التدخل الأجنبي فيه حتى انتهى الأمر باحتلاله.

وفي النهاية أتمنى أن يكون هذا البحث بداية الطريق للاهتمام بدراسة آثار الصراع المصري العثماني على بقية دول المشرق العربي، ولا يسعني إلا أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير وعظيم الامتنان والعرفان بالجميل لأستاذي الفاضل العالم الجليل والمؤرخ القدير الأستاذ الدكتور: جمال محمود حजर أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، عميد الكلية السابق، لتوجيهاته ونصائحه التي كان لها الفضل والأثر الكبير في دراستي للموضوع، وعلى ما بذله من جهد في مراجعة الدراسة، فقد كان لتوجيهات سيادته بالغ الأثر في أن تخرج الدراسة على هذا النحو.

كما أثنى ثناءً عطرًا على موظفي دار الوثائق القومية بالقاهرة على جهودهم المشكورة في تزويدي بالوثائق التي تخدم الدراسة.
والله ولي التوفيق.

الدوحة في الأول من يناير ٢٠١٥

بداية التدخل الأجنبي

لقد ظل العراق بعيداً عن أي اهتمام أوروبي حتى نهاية القرن السادس عشر حينما بدأت التيارات الأوروبية المتصاربة المتنافسة تصل إليه رويداً رويداً في النصف الثاني منه، حيث دخل البريطانيون ميدان التنافس الدولي على الخليج، وما يتصل به من أنهار العراق، حينما حاولوا منافسة النشاط البرتغالي الذي كان قد سبقهم بالوصول إلى هناك بقرن من الزمان، وبعد أن دخلت البرتغال تحت حكم أسبانيا سنة ١٥٨٠م، ثم وقع الاشتباك البحري الذي تغلب فيه الأسطول الإنجليزي على الأرمادا الأسبانية^(١) سنة ١٥٨٨م، أصبحت الطرق الملاحية مفتوحة أمام السفن البريطانية تمخر عُباب مياه الهند والخليج.

واعتمد الإنجليز على شركة الهند الشرقية البريطانية^(٢) The East India

(١) أعظم أسطول أنشئ في القرن السادس عشر، أرسله ملك أسبانيا فيليب الثاني في سنة ١٥٨٨م بقيادة المركز ستا كروزو ضد إنجلترا، فتحرك من ميناء لشبونة في ٢٠ مايو في مائة واثنين وثلاثين سفينة تحمل ٢١٦٢١ جندياً، و٨٠٦٦ ملاحاً، فوصل إلى جزيرة وايت في الساحل البريطاني في ٢٥ يوليو، غير أن الرياح عاكسته فتجمع في ميناء كاليه الفرنسي، وعندئذ قرر الإنجليز توجيه ضربة له، فتجمعت كل سفن الأسطول البريطاني وسفن التجارة من الموانئ تحت قيادة الأميرال هوارد، وكان عدد مقاتليه حوالي ١٧ ألف، وبدأ هجومه على الأسطول الأسباني في ليلة ٢٨ يوليو، وانتهى بتحطيم الأرمادا الأسبانية وتبعثر سفنها، فكانت هزيمة قاسية لم تقم لأسبانيا بعدها قائمة، وأصبحت إنجلترا هي سيدة البحار. هنري فوستر: نشأة العراق الحديث، الجزء الأول، ترجمة: سليم طه التكريتي (بغداد: الفجر للنشر والتوزيع، ١٩٨٩)، ص ٥٦.

(٢) مجموعة من شركات عدة لممارسة المتاجرة مع الهند والشرق الأقصى، تأسست في أواخر القرن السادس عشر لمزاومة الشركات الهولندية، وكان عدد المساهمين بها ١٢٥، ورأسها ١٧٢ ألف

company التي وقعت الملكة إليزابيث الأولى وثيقة إنشائها في ٣١ ديسمبر ١٦٠٠م^(١)، الأمر الذي جعل الخليج العربي مفتوحاً أمام السفن الإنجليزية التي تنقل المتاجر إلى البصرة وتُبحر في أنهار العراق، فأنشأ البريطانيون أول مقيمة بريطانية في العراق في مدينة البصرة سنة ١٦٣٩م، وكان المقيم وكيلاً لشركة الهند الشرقية البريطانية، وأخذ التفوق البريطاني في الخليج والبصرة وأنهار العراق يتضح تدريجياً من الناحيتين البحرية والتجارية في أعقاب معاهدة ١٦٧٥م التي وضعت أسس الامتيازات الإنجليزية التي استمرت سارية المفعول حتى تهاوت الدولة العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

ولعبت هذه المعاهدة، التي أطلق عليها اسم «Final Treaty of Capitulations Between the Ottoman Empire and England»، أدواراً هامة في توطيد المصالح البريطانية في العراق عامة، وفي نهري دجلة والفرات خاصة، حيث تحددت قيمة الضريبة الجمركية بـ ٣٪ على البضائع الإنجليزية الواردة أو الصادرة فإذا ما دُفعت مرة واحدة في أحد موانئ الدولة العثمانية فإنها لا تجبى مرة أخرى^(٢)، وقد استفادت بريطانيا من الامتيازات التي حصلت عليها بمقتضى تلك المعاهدة في زيادة مكاسبها وتوطيد مصالحها في العراق.

وكان طبيعياً أن يتجه التفكير البريطاني أولاً إلى إحلال البواخر محل الشراع في طريق رأس الرجاء الصالح الذي يسيطر عليه الأسطول البريطاني، إلا أن التجارب أثبتت أن طريق رأس الرجاء الصالح لا يصلح أن يكون خطاً للبواخر بين الشرق والغرب، ويرجع ذلك إلى طول الرحلة، وحدوث تلف في الأنابيب والمراجل من

جنه استرليني، وعن طريق هذه الشركة استطاعت بريطانيا أن تسيطر على الهند وبرما والملايو والخليج العربي. أحمد خليل عطوي: دولة الإمارات العربية المتحدة، نشأتها وتطورها (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٨)، ص ٢٨؛ علي عبدالله فارس: شركة الهند الشرقية البريطانية ودورها في تاريخ الخليج العربي ١٦٠٠-١٨٥٨، (الشارقة: المسار للدراسات والاستشارات والنشر، ١٩٩٧)، ص ٣٧-٣٩؛ هنري فوستر: مرجع سابق، ص ٥٦؛

Hoskins. H.L: British routes to India, (London: Longmans Green, 1928), pp. 5, 6.

(1) Hoskins. H.L: op.-cit., pp. 4, 5.

(2) Hurewitz. J.C: Diplomacy in the Near and Middle East, A documentary record: 1535-1914, Vol.1, (New York: 1987) pp. 25-29.

وقت لأخر، وعدم توافر محطات متقاربة لإصلاحها ولتشحيم الماكينات، الأمر الذي جعل البواخر خلال رحلتها هذه تستخدم آلاتها البخارية خلال ثلثي المسافة فقط، بينما اضطرت إلى استخدام الشراع في المسافة الباقية، فتعرضت لأزمات قاسية مثل نفاد الوقود، وكانت المياه التي تستخدم في ملأ خزانات المراحل تؤخذ مباشرة من المحيط، وهي مياه مالحة جدًا أدت إلى تلف المراحل والأنابيب، هذا بالإضافة إلى أن نفقات الرحلة كانت باهظة للغاية^(١)، الأمر الذي أدى إلى التفكير في استخدام أحد الطريقين القصيرين البحر الأحمر أو العراق.

وأخذت المقالات الصحفية والكتب تؤيد هذا الطريق على ذلك في الوقت الذي كانت حكومة بومباي من مؤيدي الطريق عبر مصر^(٢)، وكان حاكم بومباي متتورات إلفنستون Monstuart Elphinston من أولئك الذين اقتنعوا بأن الوقت قد أوفى لاستخدام البواخر في طريق مصر، واقترح في حالة تعذر استخدام طريق مصر فإنه يمكن استخدام طريق الخليج عبر العراق إلى الساحل السوري^(٣).

غير أن تلك المشروعات لم تحقق هدفها النهائي، لأنها كانت مشروعات حكومية مرتبطة ارتباطاً قوياً بالمفاوضات بين مندوبي شركة الهند الشرقية وحكومة لندن، وهي مفاوضات تضيع الوقت، ولا تصل إلى نتائج حاسمة.

ورغم ذلك فقد كان للبريطانيين منذ عام ١٧٢٨ م قوارب في نهر دجلة تقوم بنقل المتاجر من بغداد إلى البصرة، وفي عام ١٧٣١ م حصل المستر فرنش J. French

(١) فقد أثبتت رحلة الباخرة Enter prize التي أعدها جونستون للعمل بين إنجلترا والهند عن طريق رأس الرجاء الصالح أن نفقات الرحلة باهظة التكاليف ومحفوفة بالمخاطر، في الوقت الذي قامت فيه باخرة أخرى وهي Hugh Lindsay برحلة ناجحة بين بومباي والسويس فازداد تحمس المسئولين لطريق البحر الأحمر ولد خط ملاحي بخاري عالمي بين بومباي والسويس، خاصة وأن مصر أصبحت تتمتع منذ العقد الثاني من القرن التاسع عشر بحكومة مركزية مستقرة قوية هي حكومة محمد علي، الأمر الذي يعني القدرة على نقل البضائع والمسافرين من السويس إلى الإسكندرية في أمن تام. Hoskins. H.L.: op.-cit., pp. 88, 89.

(2) Hoskins. H.L.: op.-cit., pp. 90 - 102.

(3) Ibid: pp 103, 104.

والملاحظ أن طريق مصر كان هو الأساس في مشروع متتورات إلفنستون بينما كان طريق العراق بديلاً في الظروف الحرجة.

- أحد الوكلاء البريطانيين - من متسلم البصرة على إقرار بأن الضريبة الجمركية على البضائع الإنجليزية لا تزيد عن ٣,٥٪، وعندما حاول متسلم البصرة زيادتها عام ١٧٥٦م احتج عليه الإنجليز بقوة، وحصل المستر شو Show - أحد الوكلاء الإنجليز - على إقرار آخر بعدم جباية ضريبة تزيد على الضرائب المتفق عليها آنفاً^(١). أما الفرنسيون فقد كانت تجارتهم بالبصرة محدودة في المنسوجات، الأمر الذي أدى إلى أن يُصدر الملك لويس الرابع عشر (١٦٤٣-١٧١٥م) مرسوماً يقضي بتعيين الراهب الفرنسي في البصرة قنصلاً لها سنة ١٦٧٩م، وفي سنة ١٧٤٠م عُين في بغداد لأول مرة الراهب الفرنسي مسيو بيليه M. Baillet قنصلاً لفرنسا^(٢)، وفي سنة ١٧٤٨م كان هناك قنصل فرنسي في البصرة ولكنه لم يتلق أية مخصصات من راتبه لمدة عامين كاملين، فجمع كل ما تملكه المقيمة وما يملكه شخصياً على ظهر سفينة برتغالية تجارية ورحل، ولم يُبعث بأحد مكانه لمدة عشر سنوات كانت شئون القنصلية الفرنسية أثناءها يديرها الأسقف الكرمللي لبغداد «إيمانويل باليه Emmanuel ballyet».

وفي سنة ١٧٥٤م قامت محاولة لإحياء وكالة شركة الهند الشرقية الفرنسية في البصرة حيث أرسل «بيتر دي بيرديو Petro de perdiau» ليكون قنصلاً للفرنسيين في البصرة، وفي العام التالي سمحت لهم السلطات العثمانية بإعادة رفع العلم الفرنسي، وكان من الطبيعي أن يثير هذا الإجراء السلطات البريطانية في الهند، خاصة وأن العلاقات توترت بينها وبين فرنسا، وظهرت بوادر حرب السنوات السبع بين الدولتين، وتزايد هذا القلق عندما نجح القنصل الفرنسي في الحصول على فرمان من الوالي عام ١٧٥٨م أقر فيه تفضيل وتقديم الممثلين الفرنسيين على ممثلي الجاليات الأوروبية في البصرة، ولكن لم يكتب لهذا فرمان التنفيذ بسبب احتجاج المقيم البريطاني.

وفي يونيو ١٧٥٨م وصل الدكتور بيرول Dr piroult ليتولى المهام القنصلية

(١) عبد العزيز سليمان نوار: المصالح البريطانية في أنهار العراق ١٦٠٠ - ١٩١٤، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨) ص ٢٨.

(٢) جليل كمال الدين: "موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي (١٧٩٨-١٨٠١)"، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٣٦، (أكتوبر ١٩٨٣)، ص ٢٩٧.

في بغداد، وسرعان ما شغل نفسه في مسألة التجارة في البصرة للتوسع في أنحاء الخليج إلى أن توفي بالطاعون سنة ١٧٧٣ م، وخلفه «جا فرانسوا جافير روسو Jear François xarier rousseau»^(١).

وبرزت أهمية العراق كطريق بديل لطريق البحر الأحمر- مصر إلى الشرق الأقصى والهند، خلال حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣)، فقد استفاد الإنجليز منه كثيرًا، الأمر الذي منحهم ميزة كانت من أسباب انتصارهم على الفرنسيين، إذ استخدموه للوصول إلى الهند خلال هذه الحرب، وساعدهم على ذلك استمرار علاقاتهم التجارية مع البصرة حتى نشوب الحرب، كذلك توطد العلاقة بين شركة الهند الشرقية البريطانية، وولاية العراق، وخاصة في عهد سليمان باشا الكبير (١٧٨٠-١٨٠٢)، الأمر الذي أدى إلى تفوق النفوذ البريطاني في العراق والخليج العربي.

وحظيت البصرة باهتمامات البريطانيين منذ سنة ١٧٦٣ م حيث أصبحت مركزًا للتجارة البريطانية ومقرًا لشركة الهند الشرقية البريطانية^(٢)، التي استطاعت أن تزيد نفوذها في الخليج والبصرة منتهزة فرصة عدم إدراك المماليك في بغداد لخطورة التغلغل الإنجليزي الاقتصادي في العراق آنذاك، كما أن الدولة العثمانية ذاتها لم تنتبه بقدر كاف إلى خطورة الأطماع الأوروبية في الشرق منذ أن أفل نجم البرتغاليين في المحيط الهندي في نهاية القرن السادس عشر، فأنشأ الإنجليز لهم مقيمة في البصرة في العام التالي، فكانت هذه الخطوة من جانب حكومة بومباي لاستخدام الخليج كطريق للمواصلات باعتبار أن البصرة في نهاية الخط الملاحي في الخليج. وتحمل دلالة على أن الاهتمام البريطاني بالخليج لم يعد تحاريًا بحثًا بقدر ما أصبح سياسيًا^(٣).

إلا أن الملاحة التجارية في البصرة قد توقفت عام ١٧٧٣ م بسبب انتشار

(١) سلطان بن محمد القاسمي: العلاقات العمانية الفرنسية ١٧١٥ - ١٩٠٥، (الشارقة: دار الغرير للطباعة والنشر، ١٩٩٣) ص ٢١، ٢٢.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، الجزء ٢٣، (الشارقة: مركز الشارقة للإبداع الفكري، ١٩٩٨)، ص ٧٢٢٧.

(3) John Marlowe: *The Persian Gulf in the Twentieth Century*. (London: the Cresset Press, 1962), p. 1-27.

الطاعون، ومحاصرة كريم خان الزند - شاه فارس - لها، وأدى ذلك إلى أن يصدر المستر مور الوكيل البريطاني هناك أمرًا بإغلاق الوكالة في ٢٠ فبراير ١٧٧٤ م^(١)، لتعاد مرة أخرى عام ١٧٧٩ م بعد جلاء الفرس عن البصرة، ولكن هذه المرة تحت إشراف حكومة بومباي^(٢).

وفي سنة ١٧٨٤ م تم تعيين صموئيل مانستي مقيمًا بريطانيًا في البصرة، واقتصر التمثيل البريطاني في العراق حتى أواخر القرن الثامن عشر على البصرة، حيث ظلت بغداد في المركز الثاني في الأهمية عند البريطانيين حتى مجيء حملة نابليون على مصر فتم تعيين صموئيل مانستي مقيم دائم هناك ١٧٩٨ م^(٣)، فشهد العراق تنافسًا فرنسيًا بريطانيًا بلغ ذروته في حملة نابليون على مصر، ولكن بعد انتهاء الحروب النابليونية لم يستمر التنافس المحلي بين بريطانيا وفرنسا في العراق مثلما حدث في الشام ومصر.

(١) مصطفى عقيل الخطيب: «التطورات الإيرانية في البصرة في عهد كريم خان الزند ١٧٧٤ -

١٧٧٩»، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد ١٦ (١٩٩٣)، ص ٣٧٤، ٣٧٥.

(٢) يسري محمد عبد الهادي الخنفي: أثر الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام في الجزيرة العربية، رسالة دكتوراة غير منشورة، (الرياض: كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى، ٢٠٠١)، ص ٢٠٥-٢١٠.

(٣) هنري فوستر، مرجع سابق، ص ٥٧؛ عمر عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي ١٥١٦ - ١٩٢٢، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٤)، ص ٣٩٦.

الحملة الفرنسية على مصر والاهتمام الدولي بالخليج

بانتهاء حرب السنوات السبع بهزيمة فرنسا تقلص نفوذها في الهند، وقل الاهتمام الفرنسي بالعراق، إلا أن نشوب حرب الاستقلال الأمريكية (١٧٧٦-١٧٨٣م) أعاد الاهتمام بهذا الطريق مرة ثانية، ورغم احتفاظ فرنسا بقنصليتها في البصرة إلا أن نشاطها ظل محدودًا حتى أواخر القرن الثامن عشر؛ لأنها كانت تفكر في استخدام طريق البحر الأحمر أكثر من اهتمامها بطريق العراق، وهو ما يفسر عدم تحقيقها مركزًا متميزًا في العراق رغم أنها كانت أسبق في الاتصال به.

وحتى الربع الأخير من القرن الثامن عشر لم يكن العراق ميدانًا للتنافس الأوروبي، كذلك لم يكن العراق قد أصبح عاملاً من عوامل التوازن الدولي مثل مصر، حتى نشوب الثورة الفرنسية، التي أظهرت حكومتها اهتمامًا خاصًا بالشرق ومصر للسيطرة على طرق المواصلات العالمية، ولم يدخل العراق مجال التنافس الدولي إلا بطريق غير مباشر على يد مخططي السياسة التوسعية الفرنسية في أعقاب الثورة الفرنسية، فقد كانت لمصر الصدارة دائمًا في أذهان هؤلاء المخططين الاستعماريين، وفي أذهان الساسة الإنجليز الذين كانوا يضعون الخطط المضادة التي تقاوم التوسع الفرنسي في الشرق.

ولم يفكر الفرنسيون إلا قليلًا جدًا في امتداد حملتهم إلى العراق، وأغلب الظن أن إهمال الفرنسيين للعراق يرجع إلى أن سيطرتهم على مصر كانت تكفي لتحقيق أهدافهم، وثمة حقيقة واضحة هي أن فرنسا بعدما رأت نمو النفوذ البريطاني في العراق، قد بعثت بالمسيو أوليفيه Olivier لدراسة أحوال العراق السياسية والاقتصادية والاجتماعية ليكتب وصفًا تفصيليًا عنه ليكون تحت يد المسؤولين الفرنسيين عند الحاجة إليه^(١).

(1) Olivier, G., Voyage dans L'empire Ottoman, 3 Tomes, (Paris: 1908).

ويبدو أن عناية الحكومة الفرنسية بالعراق لم تكن على مستوى عنايتها بكل من شريف مكة، وإمام مسقط اللذين أرسل لهما نابليون بعد دخوله القاهرة مكاتبات يُبرر فيها أسباب نزوله مصر، وأهدافه من وراء ذلك ورغبته في عقد علاقات ودية معهما، دون أن يبعث برسالة إلى سليمان باشا والي بغداد حينذاك، فنتيجة لنمو النفوذ البريطاني في العراق أخذت الحكومة الفرنسية تتطلع نحو سلطنة مسقط التي كانت سلطنة مزدهرة على يد أسرة البوسعيد.

ومنذ قيام الثورة الفرنسية بدأت فرنسا التي دخلت في حروب مع بريطانيا تهتم بالخليج والعراق، فأرسلت بيو شامب Beauchamp قنصلًا لها في مسقط، وقام هذا القنصل بجولة في أرجاء الدولة العثمانية في طريقه إلى مسقط، وعندما كان في حلب فوجئ بالغزو الفرنسي لمصر فأصدرت الدولة العثمانية أمرًا بالقبض عليه^(١)، حيث إنها فهمت العلاقة بين الاهتمام الفرنسي بالخليج وبين حملتها على مصر، التي فتحت حقبة من الصراع الاستعماري بين فرنسا وإنجلترا حول مصر، وانعكس أثره على بقية أنحاء العالم العربي^(٢) بعامة، والعراق بخاصة، حيث سعت حكومة لندن إلى توطيد علاقاتها مع العراق وسلطنة عمان، ولذلك أرسلت بعثة إلى مسقط برئاسة الكابتن جون مالكوم أسفرت عن توقيع معاهدة بين الطرفين في عام ١٨٠٠م، كرد فعل على محاولة نابليون بعد احتلاله مصر الاتصال بسلطان مسقط لمد نفوذه إلى الخليج والتحالف مع سلطان عمان؛ فأرسل له رسالة أعرب فيها عن صداقته ورغبته في حماية السفن العمانية التي تتاجر في ميناء السويس^(٣).

(١) عبد الغفار محمد حسين: بناء الدولة الحديثة في مصر، الجزء الأول، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠)، ص ٥٤.

(٢) تعبير العالم العربي أو الوطن العربي يُقصد به البلاد التي يسكنها العرب حتى ولو كانوا تحت حكم غير عربي، ويمتد من العراق شرقًا ليشمل الصحراء المغربية وموريتانيا غربًا، وإريتريا جنوبًا ولواء الاسكندرونة وعربستان شمالًا. عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العرب الحديث، الجزء الأول: العراق، (القاهرة: الجهاز المركزي للكتب الجامعية، ١٩٧٦)، ص ٦.

(٣) ونص رسالة نابليون لإمام مسقط كما يلي:

«إلى إمام مسقط من القيادة في القاهرة

٢٥ يناير ١٧٩٩م.

أكتب إليكم هذه الرسالة لأعرفكم بشيء لعلكم قد عرفتموه وهو وصول الجيش الفرنسي إلى مصر، لما كنتم صديقنا فلا بد من التأكد من الرغبة التي لدي لحماية جميع سفن أمتكم، إنني أرغب

ولكن هذه الرسالة لم تصل لسلطان مسقط، واعترضها الكابتن «ويلسون Wilson» المقيم البريطاني في المخا^(١)، ووقعت في يد شريف مكة الذي سارع بتسليمها للسلطات البريطانية التي سارعت بإرسال بعثة جون مالكوم للحيلولة دون أي تقارب عماني فرنسي، وكرد فعل على المعاهدة التي وقعها الطرفان أصرت الحكومة الفرنسية على أن يقطع حاكم جزيرة موريشيوس كل علاقاته مع الممتلكات البريطانية في الهند فقصت على محاولة سلطان مسقط عقد معاهدة مع هذا الحاكم عام ١٨٠٢ م^(٢).

وإذا كان الفرنسيون فكروا في توجيه ضربة حاسمة للإنجليز تقضي على مصالحهم في الشرق الأقصى والهند من خلال هزيمتهم في مصر، وقطع طريق البحر الأحمر الحيوي عليهم، فإنهم كانوا يريدون وضعًا مستقرًا من خلال صداقة مستقرة مع القوى السياسية الفاعلة المطللة على البحر الأحمر، ولذا نجد نابليون حالما دخل مصر شرع في فتح قنوات حوار وصداقة مع الأشراف في مكة، يتجلى ذلك واضحًا من خلال تلك المراسلات المتبادلة بينه وبين الشريف غالب بن مساعد يطمئنه في إحداها على وضع حركة الحجيج، وما تقدمه مصر للحجاز من منح وهبات وريع الأوقاف الخاصة بالحرمين، وأنه لن يطرأ عليها أي تغيير^(٣)، لكن

منكم إرسالها إلى السويس حيث سستمتع بالحياة من أجل تجارتها، إنني أرجو أن ترسلوا الرسالة المرفقة إلى تيبو صاحب في أول فرصة لإرسال رسائل إلى الهند «بونابرت». سلطان بن محمد القاسمي: العلاقات العمانية الفرنسية، ص ٧٧، أحمد خليل عطوي: مرجع سابق، ص ٣١.

(١) وكان نابليون قد أرسل كذلك مبعوثيه للتفاوض مع زعماء القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية حتى تسهل مهمته للسيطرة على البحر الأحمر والاتجاه نحو الهند، كما حاول الاتصال بأمر الدولة السعودية الأولى عبد العزيز بن محمد بن سعود بغية التفاهم لقطع طريق بريطانيا إلى الهند، وقامت شركة الهند البريطانية باتخاذ العديد من الإجراءات الوقائية كرد فعل لإبطال النفوذ الفرنسي في الشرق، فأرسلت قوة بحرية بريطانية في أبريل ١٧٩٩م قامت باحتلال جزيرة بريم الواقعة بمضيق باب المندب، وأرسلت قوة بحرية أخرى إلى ميناء القصير لتطويق الفرنسيين من ناحية الجنوب، الأمر الذي جعل الفرنسيون في موقف لا يستطيعون معه التهديد بغزو الهند حتى الانسحاب من مصر في ١٨٠١م. طارق عبد العاطي غنيم بيومي: سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الأول من القرن التاسع عشر ١٨١١-١٨٤٨، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩)، ص ١٥١، ١٥٢.

(٢) عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق، ص ٢٤٠.

(٣) محمد زكريا عناني: «مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد وبين نابليون بونابرت ورجال حملته على الشرق»، مجلة الدارة، العدد ٤، السنة ٢١ (١٤١٦)، ص ٧.

يبدو أن الشريف كان يُدرك أن وضعه مع الإنجليز أكثر ضمانًا على الأقل لمراكبه التجارية التي تعتمد على الهند في تجارتها، ولذلك رأيناه يسارع بتسليم السلطات البريطانية رسالة نابليون إلى سلطان مسقط.

والسؤال الذي يفرض نفسه بقوة لماذا لم يفكر الفرنسيون في طريق العراق لضرب المصالح البريطانية واقتصر تفكيرهم على مصر؟ ويرجع ذلك إلى اقتناع الفرنسيين بأهمية موقع مصر، وإمكانية شق قناة تربط بين البحرين الأحمر والمتوسط للتحكم في المواصلات الدولية، فقد كان الفرنسيون يعملون على أن تصبح مصر هي الطريق العالمي للمواصلات بين الشرق الأقصى وأوروبا، فلم تكن لهم حاجة كثيرة إلى الطريق الثاني عبر العراق، بل كانوا في حاجة إلى توثيق الروابط بينهم وبين القوى المحلية على هذا الطريق، ولقد كانت سلطنة مسقط وشرافة مكة المكرمة على ذلك الطريق بينما كان العراق بعيدًا عنه.

ومن ناحية أخرى كانت أوضاع العراق الداخلية لا تخدم المصالح الفرنسية لأنه كان مقسمًا إلى ولايتين هما بغداد والموصل بالإضافة إلى الإمارات الكردية في الشمال، أضف إلى ذلك أن العشائر العربية القوية في الجنوب كانت تعرض العراق لغزوات فارسية، وعدم إمكانية تحقيق اتصال سهل بين العراق والبحر المتوسط إلا عن طريق استخدام الساحل السوري.

كل ذلك أدى إلى عدم دخول العراق في إطار المشروعات والمخططات الفرنسية التوسعية، بل ربما كانت حملة نابليون على الشام ١٧٩٩م تستهدف مد السيطرة الفرنسية على العراق الذي انتظمت عبره خطوط البريد بين الهند البريطانية وجنوب شرق آسيا إلى أوروبا، لذلك لا نستبعد أن يكون نابليون قد فكر في غزو العراق عبر الشام مثلما فكر محمد علي في فتحه بعد أن حقق انتصارات باهرة على القوات العثمانية في حروب الشام.

ولعل الدليل على أن فرنسا ربما فكرت في غزو العراق هو أنها لم تهمل إهمالًا تامًا وقبل وصول الحملة الفرنسية إلى مصر أرسلت حكومة الإدارة بعثة سياسية إلى العراق، وعينت جان باتيست روسو وكيل شركة الهند الشرقية الفرنسية في البصرة معتمدًا لها، والذي يعتبر من أبرز الشخصيات الفرنسية التي عملت في العراق، على

أن أهم البعثات التي أرسلت إلى العراق للتعرف على أحواله السياسية والاقتصادية كانت بعثة أوليفيه وبروجنير التي تعرضت لكثير من المتاعب والعديد من المخاطر أدت إلى وفاة بروجنير، وعاد أوليفيه ليقدم وصفًا شاملاً ودقيقًا لجغرافية العراق وأوضاعه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية^(١).

ونتيجة عن وجود الحملة الفرنسية في مصر أن برزت أهمية العراق في مجال السياسة الدولية، إذ استعاد قيمته كطريق بين أوروبا والشرق الأقصى، إذ استخدم الإنجليز طريق العراق للوصول إلى الهند، وتعاظمت أهمية بغداد دبلوماسيًا خلال السنتين اللتين أعقبتا ذلك نظرًا لاشتداد مقاومة بريطانيا لخطر نابليون في الشرق، وأدرك البريطانيون أهمية وقيمة العراق فعملوا على رفع التمثيل الدبلوماسي والسياسي لمواجهة ظروف الحملة الفرنسية ففي السنة التي نزلت فيها الحملة الفرنسية مصر تعين في بغداد مقيم بريطاني كانت مهمته الرئيسة «إيصال الأخبار عن طريق البر بين إنجلترا والهند»^(٢)، وفي نفس الوقت مراقبة وكلاء فرنسا في البصرة وبغداد والخليج.

فقد وجد الإنجليز أنفسهم أمام خطر داهم، وأنه يجب تحذير المسئولين الإنجليز في الشرق الأقصى بنزول الحملة الفرنسية الأراضي المصرية، وكان طريق العراق حينذاك هو أسلم الطرق وأسرعها أمام الإنجليز، ولهذا قرروا إرسال المستر توماس دوفال Thomas duval بأقصى سرعة ممكنة إلى الهند سالكًا طريق الاسكندرونة - حلب - بغداد - البصرة - الهند، وعندما وصل دوفال إلى بغداد عامله سليمان باشا الكبير والي بغداد أحسن معاملة، وخلع عليه، وقدم له التسهيلات اللازمة للهبوط مبحرًا في دجلة حتى البصرة ومنها إلى الهند، وقطع المسافة بين إنجلترا والهند عبر العراق في سبعة أيام فقط، وهو وقت قصير بمقياس ذلك العصر، فكان أن حصل اللورد إلجين Elgin - سفير بريطانيا لدى السلطان العثماني - على حق نقل البريد

(١) إلهام محمد علي ذهني: فرنسا والخليج من منتصف القرن الثامن عشر حتى بدايات القرن

العشرين، (القاهرة: دار الزهراء للنشر، ١٩٩٣)، ص ٩٣، ٩٤. Olivier, G., Op. Cit.

(٢) زكي صالح: مجمل تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني، (القاهرة: معهد الدراسات العربية

العالية، ١٩٦٦) ص ٢٥.

بين البصرة وبغداد وحلب والقسطنطينية ومنها إلى البلقان مارًا ببوخارست ثم فيينا عبر ألمانيا وبحر الشمال إلى إنجلترا^(١).

وعندما زحف نابليون بجيشه صوب بلاد الشام التي هي النهاية الطبيعية لطريق الخليج - البحر المتوسط عبر العراق، وشرع في حصار عكا فكر بعض المسؤولين الإنجليز مثل هارفورد جونز Harford Jones - القنصل البريطاني في بغداد - في إرسال حملة من الهند عبر العراق لطرد الفرنسيين من المنطقة^(٢)، فقد بدأ طريق الخليج - العراق يكتسب أهمية من نوع جديد إذ أصبح خطًا من خطوط الدفاع الرئيسة البريطانية عن الهند.

ومن ثم أصبح الإنجليز في حاجة ماسة للقيام بإجراءات مضادة للنشاط الفرنسي في العراق، ومن هذه الإجراءات أنهم أرسلوا سنة ١٨٠٠م سفينة مسلحة لترابط تحت نوافذ المقيمة البريطانية^(٣)، وكذلك بعثوا بقوة من الجنود الهنود لتعسكر في المقيمة البريطانية في بغداد، لتصبح هي والسفينة المسلحة عند أوامر الوكيل السياسي البريطاني في بغداد، في ذلك الوقت الذي كانت تترد فيه الأقوال أن حملة بونابرت على مصر ليست قاصرة على وادي النيل، وإنما هي خطوة في سبيل الوصول إلى الهند البريطانية.

ورغم فشل الحملة الفرنسية^(٤)، وانسحابها من مصر نهائيًا عام ١٨٠١م؛ إلا

(1) Hoskins, H.L: op.-cit., pp. 54-59, 65-67.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار: مصر والعراق دراسة في تاريخ العلاقات بينهما حتى نشوب الحرب العالمية الأولى، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨)، ص ٢٠٣. وهو نفس التفكير الذي نادى به القنصل البريطاني في بغداد خلال أزمة توسع محمد علي في الشام وتهديده العراق.

(٣) مقر الوكيل السياسي البريطاني في بغداد، حيث كان السفير البريطاني يقيم في الأستانة عاصمة الدولة العثمانية، وله وكلاء في عواصم الولايات، وتحولت فيما بعد إلى السفارة بعد أن أصبح العراق دولة مستقلة عن الدولة العثمانية في مطلع الحرب العالمية الأولى.

(٤) رغم فشل الحملة الفرنسية إلا أنها أحدثت صدمة حضارية في الشرق الأدنى، الذي كان معزولاً لقرون عن التطور الذي اجتاحت كافة مجالات الحياة في أوروبا، فقد ظلت الدولة العثمانية في عزلة تامة عن الحضارة الغربية حتى دقت أبوابها بعنف مستعمره، وذلك لأن الحكومة العثمانية لم تكن حكومة وطنية قومية، بل كان الولاة الأتراك مكروهين من الأهالي في الولايات، لأنهم كانوا ينظرون إلى البدوي العراقي والفلاح المصري نظرة احتقار وازدراء، وفي الوقت نفسه تركوا العصبيات المحلية تستبد بأمر الولايات حتى إذا ما أفادت الدولة العثمانية إلى خطورة ذلك

أن السفينة المسلحة ظلت راسية أمام المقيمة البريطانية في بغداد، كما ظلت قوة الجنود الهنود مرابطة فيها، وبقيت التجارة البريطانية في العراق في نمو متزايد، ويتزايد معها النفوذ السياسي الإنجليزي الذي كان يتمثل في ارتفاع شأن الوكيل السياسي البريطاني في بغداد ^(١) Political Agent in Turkish Arabia، فما إن حلت سنة ١٨٠٢م حتى حصل اللورد ألجين، سفير بريطانيا في الآستانة، على أمر سلطاني يقضي بقبول هارفورد جونز قنصلاً بريطانياً في بغداد وما حولها ^(٢). وكرد فعل قامت بريطانيا بإرسال بعثة جون مالكولم ١٨٠٨، وهي بعثة عسكرية دبلوماسية، في جانبها العسكري هدفت لدراسة إمكانية استخدام موانئ الخليج لإعاقه زحف الفرنسيين عبر نهري دجلة والفرات في حال هجومهم على بلاد ما بين النهرين، وفي جانبها الدبلوماسية كان على مالكولم أن يُرسل إلى طهران ما يُشير إلى تبرمه، بصورة رسمية، من العلاقة التي وطدها الفرس مع فرنسا، تلك العلاقة التي لا فائدة ترجى من ورائها إلا تسهيل هجوم فرنسا على الهند ^(٣).

وازداد الاهتمام البريطاني بالعراق بعد عودة نابليون إلى فرنسا، إذ بدأ يفكر في غزو الهند عن طريق العراق هذه المرة، بعد فشل محاولة غزوه عن طريق مصر،

في القرن التاسع عشر دخلت في صراع مع هذه العصبية التي استماتت في الدفاع عن كيانها، لأنها رأت في أي تعاون عثماني أوروبي خطر على كيانها فكان من الصعب جداً إخراج تلك العصبية المحلية من قوقعتها. عبد العزيز سليمان نوار: المصالح البريطانية في أنهار العراق، ص ٤٧. ولعلنا نلمس تشابه بين ظروف الدولة العثمانية وظروف اليابان التي ظلت تعيش في شبه عزلة عن التطور الكبير الذي سارت فيه أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية حتى دقت سفن القائد الأمريكي بيرى Perry سواحلها، وأرغمتها على فتح موانئها للنشاط الأمريكي، وعندما حاول اليابانيون مقاومة الحضارة الغربية تبين لهم أن الأجدى هو التطور حتى لا تتخلف عن قطار الحضارة، فطور اليابانيون إنتاجهم، وانطلقوا بسرعة في مجالات التقدم الحضاري منافسين للحضارة الغربية، ويعود ذلك إلى أن الحكومة اليابانية كانت حكومة وطنية قومية تعمل على رقي شعبها بعكس الحكومة العثمانية التي كانت مكروهة من الشعوب الخاضعة لحكمها.

(١) عبد العزيز سليمان نوار: المصالح البريطانية في أنهار العراق، ص ٢٩، ٣٠.

(٢) عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق، ص ٢٤١.

(٣) كونستانس م. ألكسندر: بغداد في الأيام الخوالي، (أبو ظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠١)، ص ٨٤، ٨٥. وكان جون مالكولم قد قام برحلة سابقة بهدف وضع حجر أساس القاعدة التجارية البريطانية في الخليج. سلطان بن محمد القاسمي: جون مالكولم والقاعدة التجارية البريطانية في الخليج ١٨٠٠، (الشارقة: الخليج للصحافة والطباعة والنشر، ١٩٩٤)، ص ١١-١٣.

وكان لابد من اتصال فرنسا بولاية العراق لتأمين مرور الحملة عبر أراضيها، فعمل الوكلاء الفرنسيون على الاتصال بعلي باشا والي بغداد (١٨٠٢-١٨٠٧م) الذي استولى على السلطة في العراق بعد وفاة سليمان باشا الكبير والي بغداد (١٧٨٠-١٨٠٢م)، فلم ترض بريطانيا عن هذا التقرب، واعتبرته بمثابة تهديد لمصالحها السياسية والاقتصادية والإستراتيجية في الهند، وتهديد لاتصالها البريدي مع الهند عبر العراق^(١)، فأصبحت إنجلترا مهتمة بهذا التطور الخطير في ميدان التنافس الدولي بينها وبين فرنسا، بعدما كشفت المشروعات الفرنسية أن الطريق القديم عبر الشرق الأدنى على وشك استعادة أهميته في مجال خطوط المواصلات العالمية، فعمل الإنجليز على اتخاذ إجراءات ايجابية لمقاومة المشروعات الفرنسية للوصول إلى الهند عبر الشرق الأدنى.

وبدأ العراق يتأثر بوضوح بتطورات السياسة الدولية في استانبول، فبعد جلاء الفرنسيين عن مصر سعت الحكومة الفرنسية إلى استعادة شيء من مكانتها في مصر والعراق، وذلك بالتفاهم مع الباب العالي بعدما قوى نفوذها لديه، وأصبح البلاط العثماني ميداناً للنشاط الفرنسي بقصد كسب ثقة السلطان وإقناعه بجدوى التحالف مع فرنسا، أو بالتفاهم مع الولاة العثمانيين مباشرة، ففي العراق استطاع سليمان باشا الصغير أن يحصل على فرمان الولاية بفضل تزكية المسيو سباستياني سفير فرنسا في استانبول عام ١٨٠٨م^(٢)، وبدأ كأن فرنسا قد كسبت الجولة الأولى في العراق.

وردت بريطانيا على ذلك بأن أنشأت في بغداد وكالة سياسية بريطانية في العام نفسه وأسندتها إلى شاب طموح هو كلوديوس جيمس ريج Claudius James rich الذي كانت مهمته الأولى هي القضاء على النفوذ الفرنسي في بلاط الباشا، والقضاء على العناصر التي أبدت ميلاً للفرنسيين، كذلك العمل على عقد أواصر الصداقة مع شيوخ العشائر العربية، ومع الزعامات الوطنية تمهيداً لربطهم بعجلة المصالح البريطانية، فوقف لسليمان باشا الصغير بالمرصاد حتى أخرج مركزه أمام سلطات الأستانة، في الوقت نفسه كان النفوذ الفرنسي قد تلاشى في الأستانة بسبب معاهدة

(١) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داوود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، (القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨)، ص ١٩.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٢٨٣.

تلتست ١٨٠٧ م^(١)، التي منحت الإنجليز فرصة ذهبية لاستعادة نفوذهم في الخليج وفارس والعراق.

وفي ٥ يناير ١٨٠٩ م وقعت معاهدة سلم وتجارة بين بريطانيا العظمى والباب العالي *Treaty of Peace and Commerce and Secret Alliance: Great Britain and The Ottoman Empire*، جاء في مقدمتها "على الرغم من سوء التفاهم الحاصل بين الحكومة البريطانية والباب العالي نتيجة لحوادث وقته فإن الدولتين تحدوهما رغبة صادقة في توطيد ما كان بينهما من صداقة قديمة فأقدمتا على عقد هذه المعاهدة"^(٢).

ومنذ ذلك التاريخ أخذت تتجمع في سماء بغداد مؤامرات سياسية وعسكرية واقتصادية صادرة عن كل من لندن والآستانة بل وعن المقيمة البريطانية في بغداد، وكانت هذه المؤامرات كلها ضد سليمان باشا الصغير، الأمر الذي أدى إلى أن يعمل الباب العالي على إبعاده عن الحكم سنة ١٨١٠ م بمساعدة بعض المماليك والعشائر الكردية والعربية، وفضل الباب العالي أن يرفع إلى الباشوية أحد المماليك هو عبد الله باشا الذي كانت تؤيده الإمارة البابانية القوية في كردستان^(٣)، خاصة في ظل تدهور العلاقات بين السلطان ونابليون، ورأى ريج أن هذا هو مصير أي والي يعترض مشيئة الإنجليز^(٤)، وجعل ذلك من ريج صاحب الكلمة الثانية في بغداد بعد الوالي.

وفي نفس الوقت أرسل البريطانيون جون مالكوم في بعثة ثانية إلى الخليج عام ١٨٠٩ م، وكلهم أمل في أن يراعي مصالح بريطانيا في بغداد، وزوده اللورد «منيتو» لهذا الغرض «بشهادات اعتماد خاصة إلى كل من شاه فارس وباشا بغداد،

(١) معاهدة سرية وقعت بين قيصر روسيا ونابليون بونابرت على إثر الانتصارات التي أحرزها الأخير على روسيا، في معركة «فريدلاند» في مطلع عام ١٨٠٧ م، وهو ما أدى إلى بدء المفاوضات المباشرة بين القيصر الروسي والإمبراطور الفرنسي، وكانت تقضي بأن تطلق فرنسا يد روسيا في آسيا، وهو ما يعني تخلي نابليون عن حليفته الشرقيتين الدولة العثمانية والفارسية من أجل سياسته الأوروبية. عبد العزيز سليمان نوار: مصر والعراق، ص ٢٠٦.

(2) Hurewitz, J.C.: op.-cit., p. 81.

(3) Yapp, M. E: *the making of the modern near east 1792-1923*, (London: Longman, 1987), pp. 137-140.

(٤) عبد العزيز سليمان نوار: «ثورة ١٨٣٢ في العراق»، مجلة الهلال، السنة ٧٣، العدد الثاني، (١٩٦٥)، ص ١٨.

ولكن البعثة باءت بالفشل^(١)؛ فلم تنجح إلا في تعيين كلوديوس جيمس ريج^(٢) *James hciR Claudius* قنصلاً لبريطانيا في بغداد خلفاً للسير هارفورد جونز الذي استمر في منصبه حتى اصطدم بداوود باشا والي بغداد فقام بطرده من العراق في مايو ١٨٢١ م^(٣). وقيل إنه توفي بالكوليرا في نفس العام^(٤).

(١) زكي صالح: مرجع سابق، ص ٣٠.

(٢) ولد في ٢٨ مارس ١٧٨٧، في فرنسا، ثم نقل وهو طفل إلى إنجلترا، وظهرت عليه إمارات النبوغ منذ صغره، ساورته رغبة ملحة وهو في السابعة عشرة من العمر بالسفر إلى الهند، التحق عام ١٨٠٤ بوظيفة كاتب تحريرات في مؤسسة بومباي بالهند، وأقام في طريقه فترة في مصر أتقن فيها اللغة العربية. تولى مهام مقيمة بغداد ١٨٠٨، بعد احتفاله بزواجه بمدة وجيزة، وغادرها في مايو ١٨٢١، وتوفي في أكتوبر من نفس العام. كلوديوس جيمس ريج: رحلة ريج المقيم البريطاني في العراق عام ١٨٢٠ إلى بغداد وكردستان وإيران، ترجمة اللواء بهاء الدين نوري، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٨)، ص ٥-١٩.

(3) Zaki Saleh: *Mesopotamia (Iraq) A study in British foreign affairs*. (Baghdad: al-ma-aref press, 1957), p. 133.

(٤) سعاد هادي العمري: بغداد في القرن التاسع عشر كما وصفها الرحالة الأجانب (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٢)، ص ٩٦.

الصراع بين داوود باشا والي بغداد والوكيل السياسي البريطاني

تولى كلوديوس جيمس ريج منصب الوكيل السياسي البريطاني في بغداد من ١٨٠٨ إلى ١٨٢١ م، فحاول أن يجعل كلمته هي الكلمة الثانية في العراق إن لم تكن الأولى، وازداد نفوذه إلى حد خطير في عهد عبد الله باشا (١٨١٠-١٨١٣) وسعيد باشا (١٨١٣-١٨١٦) حيث إنهما توليا منصب الولاية بترشيح من ريج نفسه.

وعندما تولى داوود باشا الحكم سنة ١٨١٧ م على جثة سلفه^(١) رأى في نشاط ريج في العراق خطرًا يهدد مستقبل البلاد، خاصة حينما استغل ريج فرصة الصراع بين داوود باشا وأمير بابان، فتدخل لكسب ثقة الأخير من ناحية، ولتحيضه على الانفصال عن بغداد من ناحية أخرى^(٢)، كما رأى في الامتيازات التجارية البريطانية، وخاصة الضريبية، ضياعًا لحقوق الخزينة، وشرع في تنفيذ الرسوم التي فرضها على التجار الأجانب، وقام بجباية هذه الرسوم نقدًا أو بضاعة بالقوة إذا اقتضى الأمر.

وكان رد فعل ريج أن قام بتحسين المقيمة البريطانية، في بغداد استعدادًا لقصف جند الباشا بمدفعتها، وأصدر أوامره إلى وكيله في البصرة المستر روبرت تيلور بأن يوقف التجارة مع البصرة، وأن يمنع السفن التي تحمل العلم البريطاني من المتاجرة مع البصرة، ولما كانت السفن التي ترفع العلم البريطاني هي التي تقوم بمعظم النقل النهري والبحري فإن هذه الإجراءات كانت تعرض البلاد لأزمات حادة. ولقد كان داوود باشا من الولاة الذين أحرز العراق على ידיهم نهضة كبيرة،

(١) سليمان فائق بك: تاريخ الممالك "الكولة مند" في بغداد، محمد نجيب أرمنازي (ترجمة)، (بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٦١)، ص ٤٧، ٤٨.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العرب الحديث، ص ١٠٥.

وطمأنينة وأمن ما لم يحصل في عهد أي من المماليك الآخرين^(١)، وقد كانت علاقة داوود مع الممثل البريطاني في بداية الأمر حسنة، غير أن طموحات كلوديوس ريج الكبيرة وتكبره بعد شعوره بأرجحية السفير البريطاني في الآستانة؛ جعلت داوود باشا يقدم على استعمال الشدة تجاه البريطانيين وممثلهم في بغداد، وذلك بعد عدم قدرته على تقليص نفوذ هذا الوكيل البريطاني السياسي أو الحد من أعماله بالطرق السلمية، فقام بفرض رسوم على البضائع البريطانية، وأعلن أنه لا توجد امتيازات على الإطلاق للإنجليز في العراق^(٢).

وما كانت شكاوى ريج الشديدة إلا لتزيد من شدة الباشا حتى انتهى به الأمر بإرسال جنوده إلى دار المقيمة البريطانية ضربت عليها الحصار، فسارعت حكومة الهند بالاحتجاج لدى الباب العالي في القسطنطينية، الذي عمل على إطلاق سراح ريج وسمح له باشا بغداد بمغادرة البلاد في مايو ١٨٢١ م^(٣).

غير أن داوود باشا ما لبث أن خضع لضغط القسطنطينية والهند، خاصة بعدما بدأ البريطانيون يبدون اهتمامًا خاصًا بشأن وادي الرافدين، لإيجاد وسائل أسرع للنقل التجاري الرخيص ولتوصيل الأنباء والبريد، فأخذ داوود يدعن لمشينة الأمر الواقع، ووافق على وثيقة التراضي التي قدمتها له إدارة شركة الهند الشرقية البريطانية^(٤) بواسطة ممثلها في البصرة، والتي تضمنت استرجاع ما أخذه من بضائع التجار البريطانيين ونقودهم، وكان غرضها الأساسي يتمثل في مادتها الأولى التي نصت على تعهد الباشا «بالرضوخ لجميع الشروط الواردة في المعاهدات العثمانية

(١) عثمان بن سند الوائلي البصري: مطالع السعود، تاريخ العراق من سنة ١١٨٨ هـ / ١٧٧٤ م إلى سنة ١٢٤٢ هـ / ١٨٢٦ م، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف وسهيل عبد المجيد القيسي، (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٩١)، ص ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٣.

(2) Longrigg, S. H: *Four Centuries of Modern IRAQ*, (Oxford: Oxford University press, 1968), pp 265, 266.

(3) Zaki Saleh: op.- cit., p 132, 133.

(٤) ظلت شركة الهند الشرقية تتولى إدارة الهند حتى عام ١٨٥٨ م عندما وافق البرلمان البريطاني على نقلها إلى الحكومة البريطانية رأسًا، وأطلق عليها حكومة الهند البريطانية منذ ذلك التاريخ، وأصبح حاكم عام الهند يلقب بنائب الملك Vic Roy. عبد العزيز محمد الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج ٢، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦) ص ٧٨٥.

والفرامانات السلطانية قديمها وحديثها»^(١).

ثم اضطر للموافقة على تسوية وضعها الإنجليز في ٢٠ مارس ١٨٢٣ م تم بمقتضاها إعفاء تجارتهم الداخلية من كافة الضرائب والتكاليف المفروضة على وسائل النقل النهري، وتحددت الضريبة الجمركية^(٢) على البضائع الإنجليزية ب- ٣٪ متضمنة بذلك امتيازات هامة للملاحة البريطانية في العراق^(٣).

وبعد ذلك استقام الأمر لداوود باشا وانتظمت علاقاته بالميجور روبرت تيلور Rubert Taylor الذي خلف ريج فيما بين النهرين، وتحسنت العلاقات بينهما حيث تفاهما على استخدام نهر الفرات كطريق لربط الشرق بالغرب بالبوخر.

وسرعان ما اتضح أنه لم يكن في وسع البريطانيين ولا الباب العالي تقبل ذلك الوالي المتمكن في ولايته، الذي حاول أن يُنشئ جيشًا جديدًا وأن يُدخل إصلاحات حديثة من شأنها أن تجعل مهمة السلطان العثماني محمود الثاني في السيطرة عليه صعبة.

لهذا عندما طلب من حكومة الهند عام ١٨٢٤ م تزويده بطبيب ولوازم طبية رفضت ذلك، فما كان منه إلا أن استقدم ديفو Devaux صاحب الفضل في الانتصارات الفارسية على جيش بغداد ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠ م وأسند إليه أمر تدريب الجيش وفق النظم الحديثة، فهب الإنجليز لمقاومة اتجاه الباشا البغدادي نحو الاستعانة بالفرنسيين، لأنه سيؤدي إلى احتمال تأليف جيش عراقي ينظر بعين الريبة والشك إلى الإنجليز، لهذه الأسباب سعى المقيم السياسي البريطاني تيلور - خليفة ريج - إلى إبعاد ديفو عن قيادة الجيش العراقي، وإحلال عقلية إنجليزية في هذه

(١) زكي صالح: مرجع سابق، ص ٣٩.

(٢) جرك كلمة يونانية أصلها كمركيه ثم انتقلت منها إلى اللاتينية، وحرفت في اللغة العربية فأصبحت جرك، وفي اللغة التركية كمرك، والضريبة الجمركية هي ضريبة تجبى على البضائع لمرورها إلى داخل الدولة. طارق عبد العاطي غنيم بيومي: مرجع سابق، ص ١٠٤.

(٣) راجع نص الاتفاقية التي عقدها داوود باشا مع البريطانيين في ٢٠ مارس ١٨٢٣ م A.S.Nawar: British Interests in the Rivers of Mesopotamia, Appendix XXXIII, pp 106 - 109.

في كتاب عبد العزيز سليمان نوار: المصالح البريطانية في أنهار العراق.

القيادة، ولكن من الواضح أن داوود لم يوافق على هذا العرض لأننا لم نجد ما يؤكد قدوم قوات إنجليزية إلى العراق، كما أن ديفو ظل قائداً عاماً للقوات النظامية حتى أواخر أيام داوود في بغداد^(١).

وفي نفس الوقت كان السلطان العثماني محمود الثاني - المعروف بكرهه لاستبداد المماليك بالحكم في بغداد - يشعر بارتياح شديد من تلك الإصلاحات التي يقوم بها داوود باشا، محتذياً نهج والي مصر محمد علي، فلم يشأ أن يكون لديه باشا آخر من الطراز نفسه يتمتع بقدر لا يستهان به من الاستقلال، فكان أن اختار في أواخر عام ١٨٣٠ م علي رضا باشا والي حلب ليقوم على رأس جيش قوي ليقضي على ذلك الوالي الذي بدأ يأخذ بجوانب الحضارة الغربية في إعداد جيشه الجديد قبل أن تستفحل قوته كمحمد علي والي مصر، واعتمد داوود علي الثبات لحصار طويل فاستعد استعداداً قوياً، غير أن انتشار الطاعون وإبادته لمعظم جيشه، واجتياح فيضان نهر دجلة لمدينة بغداد اضطره للاستسلام أمام جيش السلطان العثماني بقيادة علي رضا باشا الذي قضى نهائياً على حكم المماليك في العراق سنة ١٨٣١ م^(٢).

(١) عبد العزيز سليمان نوار: داوود باشا والي بغداد، (القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨)، ص ٣٢٢.

(٢) سليمان فائق بك: مرجع سابق، ص ٨٠، ٨١.

علي رضا باشا وتفوق النفوذ البريطاني

ورث علي رضا باشا، حاكم العراق الجديد، باشوية بغداد، وقد تحولت إلى منطقة شبه جرداء، خالية من السكان، لقد أصبحت هذه الولاية، التي لم تكن تقل في غناها إلا عن مصر فقط، لا تكاد تعرف، ولم يعد لها ما يذكر بتلك الولاية، التي أجهد علي باشا نفسه بالمطالبة بها عندما كان لا يزال واليًا على حلب، يكفي أن نذكر أن عدد سكان بغداد لم يبق بها من المائة والخمسين ألف من السكان على ما يذكره شاهد عيان، عاش فيها فترة الطاعون، أكثر من عشرين ألف، وأن تلك المدينة كانت عبارة عن أطلال من الخرائب^(١).

وأصبحت كلمة السلطان هي العليا في ربوع العراق، وأصبحت الامتيازات الأجنبية^(٢) البريطانية الصادرة من لدن الباب العالي نافذة في بلاد الرافدين بغض النظر عن مشيئة الحاكم في بغداد، الذي لم تعد في استطاعته القدرة على أن يسلك تجاه البريطانيين ما فعله سليمان باشا الصغير أو داوود باشا دون أن يُعرض نفسه للعزل من منصبه على أقل تقدير، فالسلطان أصبح هو الذي يُولي من يشاء منصب الباشوية في بغداد ويعزل من يشاء، وعندئذ أصبح الوضع الجديد صالحًا للبريطانيين

(١) J. R. weilsted: *Travels to the City of the Caliphs*, Vol. 1, (London: 1840), p. 249.

(٢) تعود نشأة الامتيازات الأجنبية Capitulations في الدولة العثمانية إلى معاهدة ١٥٣٥م التي عقدها السلطان سليمان القانوني مع فرانسوا الأول ملك فرنسا، لأجل تنظيم العلاقات بين الدولتين. Hurewitz, J.C: op-cit, pp 1-4. ولم تظهر خطورة معاهدات الامتيازات طالما كانت الدولة العثمانية قوية، ولكن ظهرت خطورتها الشديدة عندما ضعفت الدولة وتسابقت الدول الأوروبية في استغلال هذه المعاهدات إلى أقصى درجة ممكنة؛ لتحقيق مصالح ذاتية لها، أو لانتقاص من سيادة الدولة العثمانية على أقاليمها تمهيدًا لاحتلالها. عبد العزيز سليمان نوار: المصالح البريطانية في أنهار العراق، ص ٢٥.

ليعاودوا نشاطهم بقوة أكثر عن ذي قبل وذلك نظرًا لما كان لهم من أرجحية لدى الباب العالي ظلوا يتمتعون بها حتى أواخر القرن التاسع عشر.

بالإضافة إلى ذلك كانت علاقة علي رضا باشا بالإنجليز طيبة منذ البداية فقبل أن يقوم بحملته وعد فرانسيس راودن تشيزني Francis Rawden Chesney المكلف بدراسة مشروع المواصلات البخارية عبر العراق بأن يقوم بالأعمال التمهيدية لتنفيذ المشروع، كما أنه في أعقاب استتباب الأمر له في بغداد، أصدر بيورلدي^(١) في ٢ أكتوبر ١٨٣١م يؤكد فيه العمل وفق المعاهدات المعقودة بين الدولتين العثمانية والبريطانية.

لذلك طلب السفير البريطاني في الأستانة من روبرت تيلور أن يقدم المساعدات الممكنة لعلّي رضا ليوطد أقدامه في الحكم، وليقاوم الغزو المصري المنتظر للعراق، وليقاوم المشروعات الروسية في أعقاب معاهدة أونكيار أسكلة سي - وهي معاهدة دفاعية هجومية قصد بها السلطان العثماني الاستعانة بالروس ضد التوسع المصري^(٢) - التي جعلت الدولة العثمانية من وجهة نظر الإمبريالية الإنجليزية تحت الحماية الروسية.

وأصبحت إنجلترا تخشى على طريق العراق لا من مصر فقط بل من الروس أيضًا، فبعد هذه المعاهدة ركز روبرت تيلور - الوكيل السياسي البريطاني في بغداد - اهتمامه في مراقبة النشاط الروسي في دائرة اختصاصه، كما راقب الخطوات التي يمكن أن يقوم بها علي رضا باشا للتعاون مع الروس ضد القوات المصرية، فقد كان علي رضا بطبيعة هذه الظروف الجديدة يميل إلى الروس بدرجة أكثر من ميله إلى فرنسا وبريطانيا اللتين تقاعستا عن إنقاذ الدولة العثمانية في محنتها أمام التفوق المصري.

وخشي تيلور من أن يقتنص الروس الفرصة لخلق نفوذ لهم في العراق، فهول

(١) البيورلدي هو أمر صادر من الصدر الأعظم أو من الوالي، ويحمل خاتمه إلى صاحب المصلحة للعمل بمقتضاه، وبما يتضمنه من توجيهات وأوامر. حسين مجيب المصري: معجم الدولة العثمانية، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٨)، ص ٥٢.

(2) Hurewitz. J.C: op-cit, pp 105 , 106.

من الخطر الروسي تهويلاً شديداً دون أن يكون هناك ما يدعو إلى ذلك، فكتب تيلور محذراً حكومته من أن الروس سيستغلون تلك المعاهدة إلى أقصى درجة ممكنة، وأنهم لن يتوانوا عن استغلال أنهار العراق في مشروعات تقوض المصالح البريطانية في المنطقة وتهدد الهند تهديداً خطيراً، وليواجه تيلور هذه الظروف الطارئة اقترح على حكومته أن تنظر في أمر تعزيز إمكانياته المالية حتى يستطيع شراء الجواسيس، وكسب صداقة الزعماء، وشيوخ العشائر الكبرى لإحباط المناورات التي يقوم بها أعداء المصالح البريطانية⁽¹⁾.

واكب عودة العراق إلى الحكم العثماني المباشر، قيام محمد علي والي مصر بشن هجومه على الشام، وحطم إبراهيم باشا في ثلاث معارك متعاقبة القوات العثمانية التي أرسلها السلطان محمود الثاني ضده، واندفع بقواته إلى قلب الأناضول حتى كوتاهية، ولم يبق، والحالة هذه، أمام محمد علي عقبات تعيقه عن الزحف نحو استانبول، ولعله ما كان ليتردد أمام تغيير مصير الدولة العثمانية تغييراً تاماً، لولا تدخل الدول الكبرى لوضع حد لتطلعاته، ووضعت الحكومة الإنجليزية سياستها على أساس إرغامه على الانسحاب من بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية، على اعتبار أن مصر هي المسئولة عن هزيمة السلطان العثماني، وبالتالي عن عقد الأخير لمعاهدة أونكيار أسكدة سي مع قيصر روسيا، ورأت بريطانيا أن نفوذها الإمبريالي في منطقة الشرق الأدنى يتوقف على إبعاد روسيا عنه، وعلى انسحاب المصريين من الشام وشبه الجزيرة العربية، وكان إبعاد المصريين عن الشام يحقق لإنجلترا في الوقت نفسه الإبقاء على طريق العراق بعيداً عن متناول الروس والمصريين، ومن ثم كان تدخلها الحاسم الذي انتهى بعقد صلح كوتاهية سنة ١٨٣٣ م.

وهكذا أصبح والي مصر مالكا للجزء الأمامي من الطريق التاريخي المؤدي إلى الهند عبر الفرات، الأمر الذي يمكنه، لو استولى على العراق، من الاستحواذ على جميع فوائد التبادل التجاري بين الهند وأوروبا عبر سورية والخليج العربي. وترعمت إنجلترا بصفة خاصة الجهود المبذولة لتسوية المشكلات بين الدولة

(1) F. O: 78 / 237, Taylor to Ponsonby, July, 4. 1834.

العثمانية ومحمد علي والي مصر على أساس إبعاد قوته عن سواحل الخليج من جهة، وصرفه عن تنفيذ مشروعه لضم العراق من جهة أخرى، حتى لا يسيطر على الطريقين المؤديين إلى الهند والشرق الأقصى وجنوب شرق آسيا، وكانت الحكومة البريطانية تخشى من وقوع هذين الطريقين في يد قوة منافسة، ولهذا وضعت بريطانيا خطتها على أساس خلق وجود بريطاني لها في أنهار العراق يمهد لها السيطرة على طريق العراق وربط الشرق بالغرب بخطوط للسفن البخارية المنتظمة بعد اقتحام العالم لعصر البخار^(١)، فقد كانت الهند ذات أثر بالغ في تعلق بريطانيا بربوع هذا الوادي الذي كان يتألف من الخليج والعراق وفارس، تلك المنطقة التي كان يشار إليها بعبارة الشرق الأدنى حينذاك.

وتعتبر الفترة بين ١٨٣٠ و ١٨٧٦ م فترة تفوق فيها النفوذ البريطاني في الدولة العثمانية تفوقاً كبيراً، فقد طغى خلالها على النفوذ الفرنسي والروسي باستثناء الفترة القصيرة التي أعقبت معاهدة أونكيار أسكدة سي، وأدى هذا التفوق البريطاني في الآستانة إلى أن يتفوق كذلك القناصل الإنجليز في العراق، وساعد على ذلك الصراع بين محمد علي ومحمود الثاني، فلقد كانت التطورات السياسية في العاصمة العثمانية ذات صدى قوي في العراق.

وأبرز مظاهر هذا الصدى هو عقد البريطانيين معاهدة تجارية مع الدولة العثمانية أهم شروطها إلغاء نظام الاحتكار في جميع أنحاء السلطنة العثمانية في أغسطس ١٨٣٨ م^(٢)، ووافقت فرنسا على المعاهدة في نوفمبر من نفس العام، وفطن محمد علي إلى المقصود من ورائها فلم يعلن اعتراضه أو قبوله، وسافر إلى السودان في تلك الظروف الدولية العصيبة الحرجة في رحلة طويلة، حتى لا يواجه قناصل الدول الأوروبية، معلناً أنه ذاهب للبحث عن الذهب في قازدوغلي، ولتنظيم حكومة السودان.

وكان سقوط حكومة المماليك من العوامل التي أعانت على استمرار نمو النفوذ البريطاني في العراق، ولتقوية هذا النفوذ كان الإنجليز يستغلون تفكك العراق إلى

(١) زكي صالح: مرجع سابق، ص ١٠.

(2) Hurewitz. J.C: op-cit, p 110.

عصبيات متناحرة ومتعادية في كثير من الأحيان، كما كانت الظروف السياسية المتعلقة بالصراع المصري العثماني في الثلاثينيات، والضغط الفارسي المتواصل على العراق من العوامل التي فتحت مجالات كبيرة للتدخل البريطاني في أمور العراق، إلى جانب ذلك عمل الإنجليز على معاونة المبشرين البروتستانت لوقف تيار التبشير الكاثوليكي الفرنسي فدارت منافسة قوية بين الفرنسيين والإنجليز في هذا المجال كما دارت هذه المنافسة بينهما في مجالات أخرى، كما سنوضح فيما بعد.

واتخذ التدخل البريطاني في هذا الوقت صورة جديدة خطيرة فقد طالب تيلور بأن يحترم رأيه عند تعيين النقيب والقاضي^(١)، وبعض كبار رجال الإدارة في البصرة، ولكن علي رضا لم يستمع إلى هذه المطالبات وتغاضى عن نقل تيلور للبضائع التابعة لبعض التجار تحت اسمه هو حتى لا تجبى عليها الضرائب المقررة، كما تغاضى عن الأبهة والعظمة التي كان يذهب بها تيلور لسراي الحكومة، إذ كان يمتطي صهوة جواد عربي أصيل وأمامه فرقة موسيقية وحوله حرس المقيمة وفرسان على خيول مطهمة.

ولكن سياسة اللين من جانب علي رضا قوبلت بضغط متواصل من جانب المقيمة البريطانية، وبرغم ذلك ظل علي رضا محتفظاً بعلاقته الطيبة بتيلور^(٢)؛ إلا أن الأخير منذ توقيع معاهد أونكيار أسكلة سي أخذ يكيل التهم لعلّي رضا وينسب إليه الإهمال الذي يهدد بسقوط البلاد في يد أول كتية مصرية تتقدم صوبها^(٣)، وطالب تيلور حكومته أن تسعى لدى الباب العالي لعزل علي رضا من منصبه، وأدت هذه الأمور إلى وقوع فرقة بين المقيمة والسراي.

(١) القاضي هو الحاكم في العراق، وهو يتبع الشرع الإسلامي الحنيف في القضايا التي تعرض عليه، ويعتمد على فقه الدين الإسلامي وفتاوى السابقين في حكمه، ولم يكن له راتب مخصص من خزينة الولاية، فقد كان يعيش على صدقات المسلمين أو من أعماله الأخرى، حتى عهد سليمان باشا الصغير أو القليل الذي رتب لهم رواتب من بيت المال. يوسف عز الدين: «إدارة ولاية بغداد في القرن التاسع عشر»، مجلة الأستاذ، كلية التربية، جامعة بغداد، المجلد ٧ (١٩٥٩)، ص ١٨٤.

(2) F. O: 78/240, Rapport de Raghib, March, 1834.

(3) F. O: 78/237, Taylor to Ponsonby, July, 4. 1834

وتطور النزاع بين تيلور وعلي رضا إلى أن اتخذ شكلاً عنيفاً إذ اصطدم رجال المقيمة برجال الباشا^(١)، ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي تحدث فيها أزمة بين المقيمة والسراي، فكلما حدث تصادم في المصالح بينهما حدثت أزمة بين الطرفين، فقد حدث في عهد سليمان الصغير (١٨٠٨ - ١٨١٠)^(٢)، وحدث كذلك مع داوود باشا (١٨١٧ - ١٨٣١)^(٣).

فقد كانت المقيمة تعتمد هذه الأزمات لإحراج مركز الولاة الذين لا يتبعون طريقاً ملائماً للمصالح البريطانية، ومع أن تقرير راغب أفندي، مبعوث السلطان لدراسة أسباب النزاع بين علي رضا وتيلور، قد أثبت أن تيلور هو المخطئ، إلا أن الباب العالي طلب من علي رضا أن يتجنب إثارة مثل هذه الأزمات مع الوكيل السياسي البريطاني، وأن يعاقب أولئك الذين وجهوا إهانات للوكيل السياسي^(٤). والواقع أن الباب العالي كان في حاجة إلى توثيق علاقته بالإنجليز خلال أزمة التوسع المصري في الشام وشبه الجزيرة العربية، فقد كان في أمس الحاجة إلى التأيد البريطاني، وكان الإنجليز يخشون من التوسع المصري فكان أن التقت مصالح العثمانيين والإنجليز، وانتهاز روبرت تيلور هذه الظروف وأخذ يعرض على

(1) F. O: 78/240, Rapport de raghib, March, 1834.

(2) فقد حدث الصدام بين المقيم السياسي البريطاني في العراق وسليمان باشا الصغير على إثر توسط السفير الفرنسي في الأستانة المسيو سباستيان له للحصول على فرمان الولاية ١٨٠٨ م، الأمر الذي أدى إلى أن يجيك الوكيل السياسي البريطاني المستر كلوديوس جيمس ريج Claudius James rich ضده المؤامرات التي انتهت بإحراج مركزه أمام سلطات الأستانة، الأمر الذي أدى إلى أن يعمل الباب العالي على إبعاده عن الحكم سنة ١٨١٠ م. عبد العزيز سليمان نوار: داوود باشا، ص ١٩٤، ١٩٨.

(3) فقد كانت طموحات كلوديوس ريج الكبيرة وتكبره بعد شعوره بأرجحية السفير البريطاني في الأستانة سبباً لحدوث الصدام بين المقيمة البريطانية وداوود باشا لدرجة إقدام الأخير على استعمال الشدة تجاه البريطانيين، وانتهى به الأمر بإرسال جنوده إلى المقيمة البريطانية ضربت عليها الحصار، فسارعت حكومة الهند بالاحتجاج لدى الباب العالي في القسطنطينية، الذي عمل على إطلاق سراح ريج وسمح له باشا بغداد بمغادرة البلاد في مايو ١٨٢١ م، غير أن داوود باشا ما لبث أن خضع لضغط القسطنطينية والهند، خاصة بعدما بدأ البريطانيون يبدون اهتماماً خاصاً بشأن العراق. عبد العزيز سليمان نوار: داوود باشا، ص ٢٠٣، ٢١٣.

(4) F. O: 78/240, Rapport de Raghib, March, 1834.

F. O: 78/237, Taylor to Ponsonby, July, 4. 1834.

علي رضا أن يتولى ضباط إنجليز قيادة جيشه، وأن يوافق على استقدام قوة بريطانية من الهند، كما أوصى تيلور حكومته بأن تقوم بإمداد والي بغداد وباشا السليمانية بالأسلحة ليقاوم التوسع المصري المنتظر، ولو تأملنا كل المشروعات التي اقترحها تيلور لأدركنا أنها كانت تثير كل الشك في أغراضها وتدعو المرء إلى الاعتقاد أن ورائها استعمار بريطاني للعراق.

وعلى الرغم من تخوف تيلور من تقدم حملة خورشيد باشا إلى جنوب العراق، فليس لدينا ما يؤكد أن هناك تعاوناً قد تم بينه وبين علي رضا باشا ضد الحملة، بل إن تيلور اكتفى بالاقتراح على حكومته أن تعمل على الحيلولة بين الحملة والخليج والعراق بإعانة الباب العالي على إثبات حقوقه في الكويت والقطيف والبحرين على اعتبار أنه لم يكن لا للمصريين ولا للسعوديين حقوق في تلك الجهات حيث إنها وقعت تحت حكمهما لفترات قصيرة^(١)، أما مشيخات الخليج الأخرى فقد كان يرى أن معاهدة ١٨٢٠ م قد اعتبرتهم حكام مستقلين.

نتيجة للتهديدات الواضحة لأي محاولة توسعية لمحمد علي في الخليج، ونظراً لأن محمد علي لم تكن لديه إمكانيات للوقوف أمام هذا التحدي السافر، خاصة أنه لا يمتلك القوة البحرية القادرة على مواجهة سيدة البحار في ذلك الوقت، أدى إلى توقف التقدم المصري تجاه الخليج وصدرت الإرادة لخورشيد باشا بسحب قواته والعودة إلى مصر^(٢)، وبذلك انتهى وجود محمد علي في المنطقة تماماً وتخلّى عن مشروعاته في شرقي شبه الجزيرة العربية، كما سنوضح لاحقاً.

(١) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٢١٠.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة دون رقم، إرادة مزيلة رقم ٢١ صادرة إلى خورشيد باشا لسحب قواته من نجد، ٢ رجب ١٢٥٥ هـ / ١١ سبتمبر ١٨٣٩ م.

الصراع المصري العثماني والنشاط الأجنبي في العراق

شهد العراق نشاطًا ضخمًا وثورات بعيدة الأهداف في أعقاب التوسع المصري في الشام، وكانت هذه التطورات من الأهمية والعمق لدرجة أنها كشفت النقاب عن السياسات التي وضعتها القوى الكبرى لنفسها إزاء المشرق العربي عامةً، والعراق خاصةً، وعلى رأس هذه القوى الإمبراطورية البريطانية، فضلاً عن الدولة العثمانية التي كانت تهددها تلك الأحداث الكبرى تهديدًا جذريًا، وكل هذه القوى كانت معادية لفكرة انضمام الشام ومصر ناهيك عن انضمام العراق إليهما.

فقد وجدت بريطانيا أن من مصلحتها بقاء العراق تحت الحكم العثماني بغض النظر عما في ذلك الحكم من مساوئ، ولهذا كانت المصلحة تجمع بين الحكومتين العثمانية والبريطانية في العمل ضد الثورات التحررية، لأن بريطانيا كانت تعلم تمامًا أن نجاح ثورات العراق ضد عودة الحكم العثماني المباشر هو المقدمة الطبيعية لانضمام العراق إلى الوحدة السورية المصرية التي تمت عام ١٨٣٣م بمقتضى صلح كوتاهية، ومعنى ذلك لدى الساسة الإنجليز هو وقوع انقلاب خطير في توازن القوى قد يؤدي إلى أن تفقد بريطانيا نفوذها في المنطقة^(١).

ولهذا لم يتردد الإنجليز في تقديم المساعدات الممكنة لتدعيم القوات العثمانية في العراق لتواجه الثورات التي شبت في كافة أرجائه، وصدرت الأوامر إلى المستر روبرت تيلور القنصل البريطاني في بغداد بأن يضع كل إمكانياته السياسية والعسكرية في خدمة المصالح البريطانية العثمانية، وأن يقف إلى جانب علي رضا باشا بقوة

(١) محمد عبد الستار البدري: المواجهة المصرية الأوروبية في عهد محمد علي، (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١)، ص ١١٨-١٢٠.

ضد الحركات الوطنية التحررية العراقية، فقام القنصل البريطاني تيلور بالاتصال بمجموعة من العشائر العربية النائرة، وأقنعها بالابتعاد عن بغداد بعدما ذكر لهم أنه اتصل بالمستولين في الآستانة بشأن مطالبهم الخاصة بعزل علي رضا باشا، وأن الأمر موضع البحث، وموه عليهم بأساليبه الدبلوماسية فغادرت مجموعة كبيرة من العشائر العربية التي كانت قد بدأت في مهاجمة القوات العثمانية في بغداد^(١)، وفي الوقت نفسه كان التفكير قائم في إرسال بعثة لدراسة مدى صلاحية أنهار العراق للملاحة البخارية.

فمنذ أوائل القرن التاسع عشر دار جدل كبير حول استخدام البواخر في النقل السريع بين أوروبا والشرق الأقصى بدلاً من استخدام السفن الشراعية، وحاول الإنجليز استخدام البواخر في طريق رأس الرجاء الصالح، إلا أن التجربة أثبتت عدم جدوى هذا الخط بالنسبة لأساليب المواصلات الحديثة، وأنه يجب استخدام أحد الطريقتين القديمتين بين الشرق الأقصى وأوروبا عبر العراق، أو عبر مصر، وظهرت دراسات تحاول ترجيح أحد الطريقتين على الآخر وتفاضل بينهما^(٢).

ولا شك أن الملاحة البخارية كانت أبرز مجال شهد تنافس بين كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا، وكانت فترة التوسع المصري في الشام خلال ثلاثينيات القرن التاسع عشر الفترة التي برز خلالها بقوة أثر الصراع المصري العثماني على الملاحة البخارية في أنهار العراق كمجال للتنافس الأجنبي في العراق، بالرغم من أنها كانت بداية تفوق الملاحة البريطانية حتى مطلع القرن العشرين في أنهار العراق.

(١) حول تفاصيل الثورات العراقية واتصالاتها بمحمد علي وقواده في الشام، والدور الذي لعبه المقيم البريطاني في بغداد في إخمادها. انظر: علي عفيفي علي غازي: أثر الصراع المصري العثماني في الجزيرة العربية والشام على العراق، رسالة ماجستير، (الإسكندرية: كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٩)، الفصل الثالث: الموقف الشعبي العراقي من الصراع المصري العثماني، ص. ٢٤٧ وما بعدها.

(2) Hoskins. H.L: op – cit, pp 91-99.

الصراع المصري العثماني والملاحه البريطانية في أنهار العراق

يعود اهتمام بريطانيا باستخدام البواخر في أنهار العراق للربط بين الشرق والغرب إلى عام ١٨١٦م حين كتب باركر Barker - قنصل بريطانيا في حلب - إلى البحرية البريطانية يحثها على إرسال باخرة لاختبار طريق العراق في يوليو ١٨١٦م موضّحاً أهمية استخدام البواخر في مياه العراق لربط الشرق بالغرب.

وكتب روبرت تيلور - الوكيل السياسي في البصرة - موضّحاً المزايا التي ستعود على بريطانيا من نقل الوكالة البريطانية من البصرة إلى الكويت في يناير ١٨٢٢م،^(١) ودخلت هذه المقترحات حيز التنفيذ على يد جيمس تيلور James Taylor أخي روبرت تيلور الذي كان متحمساً لمشروع مد خط ملاحه بخارية عبر العراق.

فقد كان جيمس تيلور في أول الأمر من دعاة استخدام البواخر في طريق مصر البحر الأحمر، ولكنه لم يستطع العمل بحرية في هذا المجال، حيث إن جون مالكوم John Malcolm - عندما كان حاكماً على بومباي - كان لا يوافق على قيام الأفراد بتلك المشروعات، فأدى ذلك إلى أن يتحول جيمس تيلور إلى دراسة إمكانية استخدام البواخر في طريق العراق الخليج.

وكان طريق العراق قد بدأ يكسب الدعاة خلال الثلث الأول من القرن التاسع عشر، كما فضله بعض الرحالة عند سفرهم من الهند إلى إنجلترا^(٢)، ولقي المشروع

(١) لقد سبق أن انتقلت الوكالة البريطانية من البصرة إلى الكويت في ٣٠ أبريل ١٧٩٣، وظلت بها حتى ٢٦ أغسطس ١٧٩٥. لوريمر: دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ٣ (الدوحة: ديوان أمير دولة قطر، ٢٠٠٢)، ص ١٥٠٧.

(٢) من الرحالة الذين مروا بالعراق في الثلث الأول من القرن التاسع عشر: الفرنسي جان جوزيف مارسيل J. J. Marcel (١٨٠١)، والأسباني دومنجو باديا لبلخ Domingo Badia y Leb-

من داوود باشا والي بغداد كل التشجيع نظراً لما سידره على الخزانة من أموال كثيرة، ونتيجة للعود التي تلقاها من روبرت تيلور عن مساعدة الإنجليز له في الإصلاح العسكري^(١).

ومما لا شك فيه أن وجود روبرت تيلور كوكيل سياسي لبريطانيا في بغداد كان عاملاً من العوامل التي جعلت أخوه جيمس تيلور ينظر إلى العراق ويلتفت إليه بالرغم من سمعته السيئة بسبب كثرة الفتن الداخلية فيه بشكل لا يبشر بأنه يصلح كممر عالمي سريع بين الشرق والغرب.

وعلى أية حال فقد رحل جيمس تيلور من الهند إلى العراق ١٨٣٠ م، وهياً له أخوه الإمكانات اللازمة لصعود نهر دجلة إلى بغداد، وبها تدارس الأخوان في خطة عمل سياسي اقتصادي لتنفيذ المشروع الكبير الذي يربط الهند بأوروبا بواسطة بواخر تعمل في أنهار العراق، واتصل جيمس تيلور بداوود باشا، وعرض عليه مشروعه مبيّناً ما سيعود على العراق من مكاسب كبيرة، ويذكر هوسكنز أن جيمس تيلور قد حصل على وعد من والي بغداد بأن يعطي الإنجليز حق استخدام البواخر

ieh (١٨٠٧)، والفرنسي دوبريه Dupre Adrien (١٨٠٧)، والبريطاني كلودبوس جيمس ريج C. J. Rich (١٨٠٨)، الفرنسي جان باتيست لوي جاك بارون روسو Jean Batiste Ulrich Jas- (١٨٠٨)، الألماني أورليخ جاسبار سيتزن par Seetzen (١٨٠٨)، والإنجليزي جون مكدونالد كينير J. M. Kinneir (١٨١٠)، والفرنسي الفونس دي لامارتين Lamartine (١٨١٠)، والبريطاني جون لويس بوركهاردت John Lewis Burckhardt (١٨١٢)، والإنجليزية أيستر ستانوب Hester Stanhope (١٨١٣)، والإنجليزي جيمس س. بكنكهام، J. S. Buckingham (١٨١٦)، والبريطاني وليم هود W. Heude (١٨١٧)، والبريطاني جورج فورستر سادلير George Forster Sadleir (١٨١٩)، والبريطاني جورج كيبل G. Keppel (١٨٢٤)، والفرنسي كيوم لجان Guillaum Lejean (١٨٢٨)، والبريطاني جيمس ريموند ولستد James R. Wallstead (١٨٣٠)، والإنجليزي أنتوني نوريس جروفرز A. N. Groves (١٨٣١)، والبريطاني جيمس بيلي فريزر J. B. Fraser (١٨٣١)، والفرنسي بيير دفال P. Duval (١٨٣٢)، والبريطاني جيمس روس J. Ross (١٨٣٤)، والإنجليزي فرانسيس راودن تشيزني Francis Rawden Chesney (١٨٣٥)، والفرنسي ف. فونتانييه V. Fontanier (١٨٣٥). علي عفيفي علي غازي: رؤية الرحالة لقيم وعادات عشائر العراق ١٨٠٠-١٩٥٤، رسالة دكتوراة غير منشورة، (دمنهور: كلية الآداب جامعة دمنهور، ٢٠١٤)، ص ٦٥، ٦٦.

(1) Hoskins. H.L: op. - cit., p 117.

في نهر دجلة لمدة عشر سنوات، وحق احتكار الإنجليز تزويد البلاد بالأسلحة^(١)، وبالفعل تولى جيمس تيلور بنفسه قيادة فرقة من الخيالة النظامية، ولكنه ما كاد يغادر الموصل حتى سقط قتيلاً بيد جماعة من العرب^(٢)، وشاء القدر أن يقضي نحبه ومعه الامتياز الذي منحه له داوود باشا.

ومع هذا لم يتوقف نشاط الداعين لمشروع بواخر العراق، ولكن بدوافع أخرى فبينما كانت دوافع الأخوين تيلور شخصية وتجارية، كان ستراتفورد كاننج Stratford Canning، سفير بريطانيا في الآستانة، يقدر تمامًا أن مشروع الملاحة البخارية بين الشرق والغرب لا يجب أن يترك بيد رجال الأعمال، وإنما يجب أن تتولاه الحكومة البريطانية، حيث إن تطورات التنافس البريطاني الروسي الفرنسي في الشرق الأدنى كانت تنذر في ١٨٢٩ - ١٨٣٠ م بأحداث خطيرة، فقد نزلت الجيوش الفرنسية الجزائر، ووقعت الحرب الروسية العثمانية، وبدأت بوادر الصراع بين محمد علي والسلطان.

وكانت علاقات تيلور الحسنة بـداوود باشا هي الدافع للأخير في التفكير في شق قناة تربط بين نهري دجلة والفرات لخدمة المشروع البريطاني الهادف إلى استخدام العراق كطريق للملاحة البخارية التجارية يربط الشرق بالغرب، وهو ما قد يؤدي بطبيعة الحال إلى أن يصبح العراق محط آمال الاستعمار البريطاني، وبالتالي يصبح ميداناً للمنافسة بين الدول الاستعمارية الكبرى، في الوقت الذي لم يكن العراق وحده بقادر على أن يقف في وجه الأطماع الاستعمارية الأوروبية، ولذلك رأينا السلطان العثماني يُقدم على القضاء على المماليك في العراق في إطار خطته الرامية إلى تركيز قوى الولايات كلها في يده لتقف الدولة العثمانية بجميع إمكانياتها ضد التدخل الأجنبي.

وكان القضاء على داوود باشا عاملاً قوياً لوئد كافة مشروعات وطموحات تيلور، القنصل البريطاني في بغداد، فلم تسمح الظروف لداوود بأن يبرز إلى حيز التنفيذ هذا المشروع الكبير، ويرجع ذلك إلى أن نزاعاً مسلحاً وقع بعد فترة قصيرة بينه وبينه

(1) Ibid, p 118.

(2) Ibid, pp 118, 119.

السلطان محمود الثاني، الذي كان قد قرر عزله وإنهاء حكم المماليك في العراق، ولهذا اتصل الإنجليز بالباب العالي وطلبوا العفو عن داوود باشا، وانتقدوا حملة علي رضا باشا بأنها باهظة التكاليف، وأشاروا على الباب العالي أن يقبل المبالغ التي عرضها داوود لتسوية النزاع بدلاً من الاستمرار في تدابير القتال المُكلفة، ولكن هدف الحملة لم يكن جمع الأموال وإنما إعادة حكم السلطان المباشر إلى هذه البلاد.

فقد أصبحت فكرة القضاء على حكم داوود وعلى العصبيات الحاكمة ركنًا رئيسًا من أركان سياسة السلطان محمود الثاني، ومن ناحية أخرى لم تتابع السلطات البريطانية الضغط على الباب العالي لأن الإنجليز كانوا قد ضمنوا المحافظة على الأمن والمصالح البريطانية في العراق بعدما حصلوا بوساطة تشيزني - المكلف بدراسة موضوع الملاحة البخارية في أنهار العراق - على وعد من علي رضا باشا بأن يعينهم على تحقيق مشروعاتهم، وأن يقوم بتطهير ميناء السويدية لهذا الغرض، ولهذا لم يعد الإنجليز بحاجة إلى الإبقاء على داوود في بغداد، لأنهم كانوا يميلون إلى داوود بسبب ميله لمشروعاتهم الخاصة باستخدام نهر الفرات كطريق للبواخر التي ستربط بين البحر المتوسط والخليج تمهيدًا لربط أوروبا بالشرق الأقصى بخطوط بخارية منتظمة عبر العراق.

بعثه تشيزني

وتفوق الملاحة البخارية البريطانية في العراق

ازدادت أهمية العراق الدولية مع بداية التوسع المصري في الشام، فقد كان التوسع المصري سريعاً وقوياً بشكل لم تكن تتوقعه الحكومة البريطانية، وكانت تعتقد أن محمد علي سيكتفي بثبيت الامتيازات التي حصل عليها من الباب العالي، وبالاكتفاء بضم عكا دون بقية أجزاء الشام، ولكن محمد علي أصر على أن يسيطر على كامل بلاد الشام، وبالتالي أصبح طريق مصر وطريق العراق في قبضته؛ فمن يسيطر على الشام يسيطر بالتالي على طريق العراق، وهدد هذا التوسع السريع بانسلاخ العراق عن الدولة العثمانية، وكان بامستون Palmerston قد تولى وزارة الخارجية البريطانية في أواخر عام ١٨٢٠م ووضع سياسته على أساس المحافظة على كيان الدولة العثمانية^(١)، وكان مبدأ حفظ توازن القوى الدولية؛ هو المبدأ الذي ساد سياسة الدول الأوروبية الكبرى خلال أزمة الصراع المصري العثماني في الشام.

وقدر ستراتفورد كاننج - السفير البريطاني في الآستانة - منذ بداية أزمة الشام خطورة التوسع المصري على المصالح البريطانية، وفي ضوء هذه الفكرة بدأت الدوائر الدبلوماسية البريطانية في الشرق الأدنى تجمع المعلومات لتحديد بكل دقة الفرص التي يمكن أن تستغلها القيادة المصرية والثغرات التي تستطيع القوى المصرية أن تنفذ منها إلى العراق.

وإلى جانب المجهودات التي كان يقوم بها القناصل والوكلاء السياسيون

(1) F. O: 78/226, Palmerston to Campbell, February, 4. 1833.

البريطانيون استخدم عدد من ضباط جيش شركة الهند الشرقية للتجول في العراق والشام والخليج والبحر الأحمر ومصر لوضع تقارير وثيقة عن أحوال هذه البلاد، ومدى تطور النفوذ المصري فيها، ومن هؤلاء فرانسيس راودن تشيزني؛ الذي حوله كاننج من العمل في صفوف الجيش العثماني في الجبهة الروسية في حرب ١٨٢٨م إلى دراسة نواحي القوة والضعف في إمكانيات مصر وإلى دراسة مقارنة بين نهري النيل والفرات من حيث صلاحيتها للملاحة البخارية^(١).

ولدى الضباط والممثلين الدبلوماسيين البريطانيين من المقدرة ما يجعلهم يربطون بين ما يُكلفون به من مهام بالمصالح البريطانية، ولهذا فقد انهالت تقارير القناصل والوكلاء على وزارة الخارجية البريطانية عن احتمال سقوط العراق في يد الجيش المصري إن أجلاً أو عاجلاً إن لم تمنع القوات البريطانية ذلك، وفكر كل من تيلور والسفير البريطاني في الآستانة في استخدام القوة المسلحة البريطانية للدفاع عن العراق ضد الهجوم المصري المنتظر، إلا أن كاننج خشي من أن تتذرع كل من فرنسا وروسيا بهذه السابقة للقيام بعمليات عسكرية توسعية شديدة الخطورة على الإمبراطورية البريطانية.

وفي أواخر عام ١٨٣٠م قام تشيزني برحلة دراسية استطلاعية في أنهار العراق من دمشق إلى عانة التي بلغها في ديسمبر ١٨٣٠م، ومن هناك استقل طَوْفًا يسمى «كلك»^(٢) في نهر الفرات حتى وصل إلى الفالوجة، ومنها انتقل إلى بغداد ثم تابع رحلته إلى البصرة في ١٠ أبريل ١٨٣١م، ومنها إلى بوشهر ثم المحمرة^(٣)، وأثناء

(1) F. O: 78/211, Canning to Palmerston, December, 19. 1832.

(٢) مركب يتخذ أهل العراق من ألواح خشبية يُشد بعضها إلى بعض، ويتم تعويمها بواسطة أجربة من جلود الماعز والأغنام، ويتم تسييرها بواسطة "مجدافين". علي عفيفي علي غازي: "الكلك في كتابات الرحالة"، مجلة التراث الشعبي، العدد الثاني، (٢٠١٥)، ص ٣٠-٣٦.

(٣) لقد كانت النتيجة الأكثر أهمية لرحلة تشيزني الأولى لدراسة نهر الفرات أن البعثة قدرت أهمية ميناء المحمرة كميناء يمكن أن يحل محل ميناء البصرة، بل ويتفوق عليه في المستقبل، ولذلك نشط الإنجليز في تلك الفترة في دراسة إمكانية الاستفادة من هذا الميناء الناشئ، واتصلوا بشيوخ عشائر كعب، كما أن التجار الإنجليز استخدموا فعلاً ميناء المحمرة كقاعدة لتهريب بضائعهم إلى العراق حتى لا تدفع الجمارك في البصرة. عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٧٤. ومن ثم فلا غرو أن نجد من الباحثين من يشير إلى أن السفير الفرنسي فونتانييه هو من أقنع

سيره قام بدراسة عمق النهر، وتياراته المائية، وسجل أسماء القرى التي مر بها، وبعد أن وصل إلى البصرة قام بدراسة نهر كارون حتى شوشتر بفارس، ثم عاد إلى لندن، ومعه خطة كاملة لإنشاء ملاحه بخارية في نهر الفرات، بعد أن استغرقت بعثته سنة واحدة (١٨٣٠-١٨٣١)، وفي طريق عودته التقى بعلي رضا والي حلب الذي كان يستعد للزحف على بغداد لطرد داوود، فأبدى علي رضا تحمسا لمد خطوط الملاحه البخارية في المياه العراقية، ووضع خطة مشروع للاتصال بالهند عن طريق العراق^(١).

وكان تشيزني خلال رحلته في نهر الفرات يبعث بتقاريره إلى المسؤولين في السفارة البريطانية بالآستانة وإلى حكومة لندن، وكانت هذه التقارير تشير بوضوح إلى أن نهر الفرات لا يصلح للملاحه البخارية^(٢)؛ نتيجة لسرعة تياره، ووجود المستنقعات في الجنوب، ووجود العشائر العربية القوية المسيطرة على مجرى النهر، وتستطيع أن تهاجم البواخر المارة في الوقت الذي لا سلطة للحكومة عليها في الغالب^(٣). وقد رأى أن التغلب على هذه العقبات أمر يسهل إذا استرضيت القبائل على ضفتي النهر، وأن خطر القبائل يزول بتحضرها، ولم يكن ذلك في نظره أمرا عسيرًا.

إلا أنه حدث تبدل في آراء تشيزني، وتحمس من حكومة لندن لفكرة استخدام البواخر البريطانية في أنهار العراق منذ عام ١٨٣٣م، ذلك أن تشيزني التقى بويليام الرابع ملك بريطانيا (١٨٣٠-١٨٣٧)، الذي كان يعتقد أن الشعب الإنجليزي لن يُقدّر حقيقة الأهداف الإستراتيجية الكامنة وراء المشروع، وشجعه الملك الذي كان مهتمًا شخصيًا بالمشروع، ونصحه بأن يعمل على إعداد أسطول بخاري صغير

علي رضا باشا بضرورة إرسال حملة إلى عربستان وجنوب العراق لتقوية مركزه في تلك المناطق، ومن ثم كانت حملة علي رضا باشا على المحمرة وجنوب العراق عام ١٨٣٨-١٨٣٩م. إلهام محمد علي ذهني: مرجع سابق، ص ١٠٨.

(١) Chesney F. R.: Narrative Euphrates Expedition (london: longmans green and co., ١٨٦٨).

(2) Hoskins. H.L.: op.-cit., p. ١54.

(٣) عبد العزيز سليمان نوار: المصالح البريطانية في أنهار العراق، ص ٣٧، ٣٨.

يكون جزءاً من البحرية الهندية، يكون مرساه العراق ليساعد على تقوية الدولة العثمانية ضد روسيا، وتلقف الساسة البريطانيون هذا الرأي الجديد بدافع الأهمية الإستراتيجية وطالبوا باختبار صلاحية الفرات للملاحة من جديد^(١).

ويرجع هذا التبدل الجوهري في أراء تشيزني، والتحمس الشديد من قبل ملك وحكومة بريطانيا نتيجة تبدل جوهري حدث في المشرق العربي، هذا التبدل كان الصراع المصري العثماني في الشام، ففي عام ١٨٣٢م اجتاحت الجيوش المصرية الشام، وفزعت بريطانيا من امتداد النفوذ المصري لها اعتقاداً منها أن النفوذ الفرنسي سوف يجيء في أعقابه، وتآزم الموقف بعقد السلطان محمود الثاني معاهدة أونكيار أسكدة سي مع روسيا في ٨ يوليو ١٨٣٣م، وكانت السياسة البريطانية حريصة على عدم وقوع خط المواصلات العالمية عبر الشام والعراق في يد مصر أو غيرها من الدول، ولهذا رأت أنه لا مندوحة لها عن اتخاذ إجراءات فعالة تكفل لها السيطرة على هذا الطريق باستخدام نهر الفرات في الملاحة البخارية.

فقد استطاعت القوات المصرية خلال عامين أن تسيطر على الشام، وأن تُنزل الهزيمة بالجيوش العثمانية حتى لقد بلغت في تقدمها الأناضول العثمانية ذاتها، الأمر الذي جعل الطريقين القصيرين عبر الشرق الأدنى إلى الشرق الأقصى في قبضة حكومة واحدة قوية، لأن مفاتيح طريق العراق هي الشام، بل إن العراق كان مقبلاً بنفسه على الوحدة المصرية؛ فقد انضم يحيى الجليلي والي الموصل، وصفوق الفارس شيخ عشائر شمر الجربا إلى القيادة المصرية، وقامت ثورة كبيرة في بغداد نفسها ضد الوالي العثماني، وكان محمد باشا ميركوري أمير راوندوز مُتفاهماً مع الإدارة المصرية^(٢)، الأمر الذي كان يُبشر بظهور دولة كبيرة ناشئة في منطقة المشرق العربي قد تقف حجر عثرة في وجه الأهداف الاستعمارية البريطانية، التي كانت تتبنى سياسة المحافظة على كيان الدولة العثمانية^(٣)، كما أن بريطانيا خشيت من أن يصل هذا التوسع المصري إلى الحدود الفارسية.

ولهذا كان على الدبلوماسية البريطانية أن تُعيد النظر في سياستها تجاه المنطقة،

(١) عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق، ص ٣٩٧.

(٢) علي عفيفي علي غازي: مرجع سابق، الفصل الثالث.

(3) F. O: 78/226, Palmerston to Campbell, February, 4. 1833.

في إطار الأحداث التي ترتبت على الصراع المصري العثماني، فأصبح على بريطانيا أن تتخذ خطوات فعالة لتكون لها اليد العليا على خطوط المواصلات العالمية عبر الشام والعراق، ولهذا وضع ستراتفورد كاننج السفير البريطاني في الآستانة مذكرة تعرض فيها للتطورات التي وقعت في المنطقة وأثرها على المصالح البريطانية، وطالب بضرورة العمل على إضعاف جانب مصر ومقاومة توسعها في الشام بكافة الوسائل.

وكتب كاننج إلى حكومته يقول إن المعونة التي تقدمها بريطانيا للسلطان في محنته ستجعله يقدم تضحية معقولة في مقابلها، ولما كان الباب العالي مكبلاً بالامتيازات التي تتيح للدول الكبرى مشاركة بريطانيا في أي امتياز تحصل عليه، عمل كاننج على الحصول على امتياز الملاحة البخارية في الفرات بطريقة لا تستطيع بها أي دولة أوروبية أخرى أن تطالب بالحقوق نفسها.

وفي هذه الظروف لوحظ أن تشيزني قد عدل عن أرائه التي سبق أن أبداهها من قبل لستراتفورد كاننج عام ١٨٣١م^(١)، وكان هذا التحول تحت تأثير ملك بريطانيا بصفة خاصة، وأخذ تشيزني يُردد أن الفرات من أنسب الطرق لربط الشرق بالغرب بخطوط منتظمة من البواخر، وانتَهز الساسة الإنجليز هذا الرأي الجديد ونادوا بأن الوقت قد حان لاختبار صلاحية نهر الفرات للملاحة البخارية، وما هدفوا من وراء ذلك إلا خدمة أغراضهم الإستراتيجية، ولكن تلك الحملة الكبيرة التي تزعمها تشيزني للمشروع لم تشر إلى هذه الأهمية الإستراتيجية، وإنما ركزت الدعاية في النتائج الاقتصادية والنواحي السياسية العامة^(٢).

وحاولت الدبلوماسية العثمانية أن تكسب تحالفاً عسكرياً مع بريطانيا ضد الوالي الثائر، ولكن السياسة البريطانية ترددت طويلاً في الأمر، وأغلب الظن أن ظروف أزمة استقلال البلجيك وغيرها من المشكلات الأوروبية الخطيرة هي التي منعت بريطانيا من أن تفتح على نفسها جبهة جديدة في الشرق الأدنى قد تثير ارتباكات

(١) حيث كان تشيزني عندما قام برحلته الأولى لدراسة مدى صلاحية نهر الفرات للملاحة البخارية عام ١٨٣٠-١٨٣١م قد قدم إلى ستراتفورد كاننج سفير بريطانيا في الآستانة تقريراً أوضح فيه صعوبة استخدام البواخر عبر نهر الفرات. عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق، ص ٣٩٧.

(2) Hoskins, H.L.: op.-cit., p. 154.

دولية جديدة، وأدى ذلك إلى أن يضع السلطان يده في يد القيصر الروسي الممدودة إليه فعقد معاهدة أونكيار أسكلة سي، التي رأت فيها روسيا وسيلة لمنع القوات المصرية من التوسع شرقاً في العراق، ولوضع حد للنشاط المصري المتزايد في الأناضول بعدما كاد يسيطر على الممر المائي الوحيد الذي يربط روسيا بالمياه الدفيئة في البحر المتوسط.

وعلى الصعيد الآخر وجدت بريطانيا نفسها أمام عدة تكتلات كبيرة في سبيلها إلى الظهور والنمو، فالتحالف بين الدولتين العثمانية والروسية في حد ذاته تكتل خطير على المصالح البريطانية في الشرق الأدنى، كذلك كان قيام الوحدة بين مصر والشام والجزيرة العربية والسودان يشكل خطرًا داهمًا على خطوط المواصلات البريطانية عبر الشرق الأدنى إلى الهند، كما أن هذه الوحدة الناشئة ستصبح على جانب عظيم من الخطورة على المصالح البريطانية إذا ما ارتكزت على العراق، وقد تدخل في حلف مع فارس الأمر الذي يضع بريطانيا في مأزق حرج.

في الوقت الذي كان يسود بعض المسئولين الإنجليز وجهة نظر أخرى متفائلة تدعو إلى الاستفادة من قوة مصر الفتية في ظل استعدادها للتعاون مع بريطانيا للوقوف ضد المشروعات الروسية الموجهة صوب الشرق الأدنى والهند، ورأى بعض الساسة البريطانيين ومن بينهم لورد بونسبي Lord Ponsonby سفير بريطانيا في الآستانة وكامبل Campbell قنصلها في القاهرة أن القوات المصرية أقدر على ذلك من قوات الباب العالي العثمانية⁽¹⁾، وقدرُوا أن هذا التعاون بين بريطانيا ومصر قد يكفي بريطانيا مثونة إعداد جيش كبير للوقوف في وجه روسيا في هذه المناطق.

في ذات الوقت الذي كان محمد علي يعمل فيه على إقناع المسئولين الإنجليز بأن توسعه لا يضر بالمصالح البريطانية، ولكن بامستون - وزير خارجية بريطانيا - كان يحمل محمد علي تبعة عقد السلطان معاهدة أونكيار أسكلة سي، وتعرض الشرق الأدنى لنزول القوات الروسية فيه، فالأمر الذي لا شك فيه أن نشوب القتال بين الروس والعثمانيين من جهة والقوات المصرية من جهة أخرى سيضطر الروس

(1) F. O: 78/227, Palmerston to Campbell, May. 24, 1833.

F. O: 78/246, Palmerston to Ponsonby, August. 21, 1834.

بحكم الضرورات الإستراتيجية إلى التدخل في أمور العراق، الأمر الذي يهدد بسقوط هذه البلاد بعد وقت قصير في قبضة الروس وهذا ما كان يخشاه الإنجليز تمامًا.

فبالرغم من أن بريطانيا قد استهدفت من إنشاء خط ملاحية بخارية للسفن البريطانية في أنهار العراق؛ تسهيل المواصلات بينها وبين الهند ودعم نفوذها في العراق لمواجهة التوسع المصري في الشام، إلا أن هدفها الأكثر وضوحًا كان مقاومة الخطر الروسي في منطقة الخليج، واحتمال امتداد هذا الخطر إلى العراق من ناحية وإلى الهند من ناحية أخرى، فقد كان الإنجليز يعتقدون أن نفوذهم في العراق ومصالحهم في منطقة الخليج وممتلكاتهم في الهند، كل ذلك يتعرض لخطر داهم إذا غدا المجال مفتوحًا لتسلل النفوذ الروسي إلى العراق، واستقراره على ضفاف دجلة والفرات.

ولقد ساعد علي رضا باشا والي بغداد على إثارة مخاوف الإنجليز من هذه الناحية بعدما أظهر ميله إلى الروس تماشيًا مع السياسة الجديدة لحكومته، الأمر الذي أقض مضاجع الوكيل السياسي البريطاني وجعله يتحرش بالوالي ويحرض حكومته على السعي لدى الباب العالي لكي يقوم بعزله⁽¹⁾، وبعث السلطان بأحد كبار رجاله للتحقيق في الأمر، واتضح أن الوكيل السياسي البريطاني هو الذي يثير المشكلات في وجه الوالي⁽²⁾.

وقدر كل من كاننج وبونسبي خطورة الموقف في العراق في ضوء الصورة التي كان يرسمها تلور في تقاريره، وأخذ بامستون ينقب عن وسيلة لخلق مصالح بريطانية جديدة في العراق لتفتح المجال في المستقبل القريب لاستخدام القوة المسلحة والدبلوماسية البريطانية معًا في مقاومة المصريين إذا ما تقدموا صوب العراق، دون اللجوء إلى إنزال قوات مسلحة علانية باسم الدفاع عن العراق، وهده تفكيره إلى أنه يستطيع أن يبعث إلى العراق بياخرتين مسلحتين إذا ما حصل من الباب العالي على فرمان يسمح للإنجليز باستخدام أنهار العراق للملاحية البخارية،

(1) F. O: 78/237, Taylor to ponsonby, July, 4. 1834.

(2) F. O: 78/240, Rapport de Raghib, March, 1834.

وهو المشروع الذي كان ينادي به تشيزني لربط أوروبا بالهند بهذه الوسائل الحديثة للمواصلات.

فقد وقعت سلسلة من التطورات السياسية والاقتصادية الكبرى في إنجلترا نفسها وخارجها في مجالات السياسة الدولية أدت إلى أن يعيد الإنجليز النظر في موقف الحكومة الإنجليزية من المشروعات العديدة المطروحة أمامها بشأن استخدام البواخر في خطوط منتظمة بين الموانئ الهندية والبريطانية، فقد أصبح التنافس العالمي التجاري شديداً بين الدول الأوروبية الكبرى منذ الثلث الأول من القرن التاسع عشر، فظهرت الحاجة لدى الحكومة الإنجليزية من أجل إنشاء خط باخر عبر العراق بواسطة البواخر السريعة من أجل نقل المراسلات التجارية خاصة، والبريد عامة، في ظل النشاط الفرنسي الكبير في أعقاب نزول جيوشها لاحتلال الجزائر ابتداءً من عام ١٨٣٠م.

في الوقت الذي اعتقد فيه الإنجليز أن التوسع المصري في الشام لم يتم إلا بتحرير مصر من فرنسا، فخشي الإنجليز من أن يصبح البحر المتوسط بعد فترة وجيزة بحيرة فرنسية، كما أن إصرار محمد علي على السيطرة على بلاد الشام كاملة وجنوب الأناضول بموجب اتفاق كوتاهية، جعله يسيطر على طريق العراق، بل إن العراق نفسه أصبح قاب قوسين أو أدنى من الانضمام لمصر ضد السلطان العثماني، كما سبق الذكر، وهو أمر كانت لا ترضى به الإمبريالية الإنجليزية.

هذا بالإضافة إلى دخول روسيا كطرف ثالث بين الحكومة العثمانية ومصر بعدما عقد القيصر الروسي مع السلطان العثماني معاهدة أونكيار أسكدة سي ١٨٣٣م التي وضعت الدولة العثمانية من وجهة النظر الإنجليزية تحت الحماية الروسية^(١)، وجعلت إنجلترا تخشى على طريق العراق لا من مصر فقط بل من الروس أيضاً.

ولهذا وضعت الحكومة البريطانية سياستها على أساس إرغام مصر على الانسحاب من بلاد الشام ومن شبه الجزيرة العربية على اعتبار أن محمد علي هو المسئول عن هزيمة السلطان، وبالتالي عقد الأخير المعاهدة مع روسيا؛ التي رأت

(١) جمال محمود حجر: القوى الكبرى والشرق الأوسط في القرنين التاسع عشر والعشرين، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩)، ص ٣٤، ٣٥.

بريطانيا أن الروس سوف يستغلونها إلى أقصى حد ممكن الأمر الذي يهدد المصالح البريطانية في المنطقة، كما أن إبعاد المصريين عن الشام يحقق للإنجليز في الوقت نفسه بقاء طريق العراق بعيداً عن متناول الروس والمصريين في آن واحد.

وعندما بحثت الحكومة الإنجليزية الموقف وجدت أنها أمام خيارين لا يمكن أن تحقق أهدافها في الشرق الأدنى إلا من خلالهما، ألا وهما استخدام القوات المسلحة لإرغام محمد علي على الخروج من الشام والجزيرة العربية، أو وضع بواخر مسلحة في أنهار العراق لتحول دون انضمامه إلى مصر انضماماً فعلياً يقوي من مركز محمد علي، مع العمل ضد الوجود المصري في سورية وشبه الجزيرة العربية.

وفضلت الدوائر السياسية البريطانية الخيار الأخير متمثلاً في إمكانية إصدار الباب العالي فرماناً يسمح باستخدام باخرتين في نهر الفرات بقصد تنشيط التجارة، ولتحقيق ذلك كان لابد من إقناع المسؤولين الإنجليز بصلاحيه نهر الفرات للملاحة البخارية، وإقناع الباب العالي بأهمية المشروع للبلاد.

وكانت حجج المتحمسين للمشروع تتمثل في^(١): انخفاض تكاليف النقل والسفر في طريق الفرات عنها في طريق البحر الأحمر. وأن الاتصال بالهند سيكون في وقت أقل، فعدد أيام الرحلة عبر العراق أقل منها بواسطة طريق مصر. كما رأوا أن البواخر ستساعد على استقرار العرب الرحل وعلى استعادة العراق لما كان عليه من ازدهار، وتنمو بذلك التجارة البريطانية نمواً كبيراً.

وفي ٣ يونيو ١٨٣٤م تشكلت لجنة خاصة من أعضاء مجلس العموم البريطاني، هي لجنة الملاحة البخارية على رأسها أحد المتحمسين للمشروع وهو المستر شارلز جرانت للمفاضلة بين الطريقتين المصري والعراقي^(٢)، وعقدت عدة جلسات استمعت فيها اللجنة إلى آراء المختصين بطريق الفرات، واستجوبت اللجنة كل من له خبرة بطريق المواصلات عبر الشرق الأدنى، واستعرضت الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية للعراق والبلاد على طول الطريق المقترح.

ونصحت اللجنة باستخدام الطريقتين عبر البحر الأحمر وعبر العراق في آن

(١) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٢٤٥.

(2) Hansards parliamentary debates: 3rd Ser, vol XXIV, (London: June, 3, 1834), p.142; Hoskins. H.L: op.-cit., p. 122.

واحد نظرًا لأن الرياح الموسمية في البحر الأحمر تعرقل الملاحة من يونيو إلى سبتمبر، وهي فترة يكون مستوى ماء الفرات ملائمًا تمامًا للملاحة البخارية، وفي فترة انخفاض المياه فيه من نوفمبر إلى فبراير يكون البديل طريق البحر الأحمر^(١).

وكانت شهادة تشيزني بطبيعة الحال هي ما عولت عليه اللجنة في وضع تقرير برلماني ضخم، ذلك أن تقارير تشيزني، التي سبق أن أرسلها إلى حكومة لندن يقول فيها إن الفرات لا يصلح للملاحة البخارية، قد شكلت عقبة كبيرة ومشكلة خطيرة واجهت اللجنة عند دراستها لموضوع استخدام البواخر البريطانية في نهر الفرات، لذا أصبح من الضروري أن توضع الأمور أمام الحكومة البريطانية، وأمام الشعب الإنجليزي، وأمام البرلمان بشكل يجعله يوافق على تأييد المشروع.

وفعلًا وافق مجلس العموم البريطاني في أغسطس ١٨٣٤م على فتح اعتماد مالي بمبلغ عشرين ألف جنيه إسترليني لتمويل نفقات بعثة رسمية تقوم بدراسة الإمكانات المتاحة، ولتسير سفن نهريّة بخارية في نهر الفرات، وأضافت إليه شركة الهند الشرقية مبلغ خمسة آلاف جنيه أخرى^(٢)، وصدر مرسوم ملكي مؤرخ في ٢٨ نوفمبر ١٨٣٤م بتعين تشيزني قائدًا للبعثة.

وطلبت الحكومة البريطانية من الباب العالي استصدار فرمان سلطاني يعطيها حق إرسال باخرتين إلى نهر الفرات لدراسة هذا النهر، وللعمل على جعله طريقًا للمواصلات البخارية بين البحر المتوسط والمحيط الهندي عبر الخليج.

وعندما تقدم السفير البريطاني في استانبول لورد بونسبي إلى الباب العالي مطالبًا باستصدار فرمان يسمح لباخرتين بريطانيتين بالملاحة في نهر الفرات تردد السلطان في إعطاء ذلك فرمان، خشية من الأهداف الاستعمارية البريطانية^(٣).

(1) Hoskins. H.L.: op.-cit., pp 156-158.

(2) عبد العزيز سليمان نوار: المصالح البريطانية في أنهار العراق، ص ٤٢، ٤٣.

(3) ولا شك أن قيصر روسيا - حليف السلطان العثماني بمقتضى معاهدة أونكيار أسكدة سي - كان يعارض منح الإنجليز مثل هذا الامتياز الذي تكمن وراءه أهداف استعمارية، ومن الراجح أنه لعب دورًا في تردد السلطان؛ الذي لم يحسمه إلا تخوفه من تهديدات السفير البريطاني في الأستانة لورد بونسبي بأنه إذا تلتكأ فسوف تتجه أنظار الحكومة البريطانية إلى طريق مصر، الأمر الذي قد يدفعها إلى توقيع معاهدة تجارية مع والي مصر محمد علي باشا، مما قد يمنحه مركزًا جديدًا ويزيد من عزائمه وأحلامه وآماله وتطلعاته.

ولهذا حاول ريس أفندي وزير الخارجية العثمانية - أن يضع عقبة شديدة أمام البعثة، فأعلن للسفير البريطاني أنه مستعد لأن يستصدر من السلطان فرمان المطلوب لو تحملت الباخرتين مسئولية الدفاع عن نفسيهما ضد هجمات العشائر العربية التي ستمر البعثة بأراضيها في العراق، حيث إن سيطرة الحكومة على تلك العشائر واهية جدًا، فما كان من السفير البريطاني إلا أن وافق على تحمل هذه المسئولية، ولكنه في نفس الوقت وضع ريس أفندي في مأزق حين اشترط عليه ضرورة الموافقة على تسليح الباخرتين^(١)، ومع ذلك ظل الباب العالي مترددًا في إصدار فرمان فهدد الإنجليز الباب العالي بأنهم سيستخدمون طريق مصر إذا ت لكأ السلطان أكثر من ذلك، وبذلك عرف الإنجليز كيف يستغلون ظروف الصراع بين السلطان ومحمد علي لمصلحتهم.

وتلكأ السلطان محمود الثاني في إصدار فرمان رغم إلحاح السفير البريطاني عليه، فلجأ السفير إلى تهديد السلطان بأنه إذا لم يصدر فرمانًا يسمح لباخرتين بريطانيتين بالملاحة في نهر الفرات من أجل تسهيل التجارة فإن مثل هذا الاتفاق بين حكومة لندن والقاهرة سيقوي من الروابط بينهما ويعطي لحكومة مصر مركزًا قانونيًا أقوى يعينها على خوض الجولة الثانية - التي كان يعد لها السلطان كل إمكانياته - وهي الأكثر أملًا في النصر على السلطان العثماني، خاصة وأن فرنسا كانت تقف علانية إلى جوار حكومة مصر، ومن ثم كان السلطان محمود الثاني في حاجة إلى استرضاء إنجلترا ومنعها من توثيق العلاقات مع مصر، لتقف إلى جانبه ضدها، رغم إدراك السلطان العثماني لخطر البعثة على مستقبل المنطقة، ولكن الصراع بين السلطان ومحمد علي جعل الأول يعطي للإنجليز الامتياز بعد الآخر بقصد تحطيم حكومة القاهرة، فكان ذلك بداية الامتيازات البريطانية في المياه العراقية.

والواقع أن الباب العالي وقع بين شقي الرحى، الضغط البريطاني بمطالبه المتعددة من ناحية^(٢)، والضغط الروسي المتزايد بعد أونكيار أسكلة سي من ناحية

(١) عبد العزيز محمد الشناوي: مرجع سابق، ج ٢، ص ٧٧٣.

(2) F. O:78/240, ponsonby to Palmerston, November, 17. 1834.

أخرى، فقد اعتقد الروس أن منح مثل هذا الفرمان سيلقي بالعراق غنيمة سهلة في يد الإنجليز، وأنهم سيجعلون منه قاعدة عسكرية لمقاومة النفوذ الروسي في جنوب غرب آسيا، وفي منطقة الخليج العربي، واحتج الروس بأن الباب العالي قد امتنع لفترات طويلة عن منح الإمبراطورية النمساوية حرية الملاحة في الدانوب، وها هو يريد أن يمنح الإنجليز امتيازاً في نهر الفرات لا يشاركهم فيه أحد^(١)، ولكن الضغط البريطاني كان شديداً على الباب العالي الذي كان يخشى أن تصبح مصر هي المعبر بين الشرق والغرب، في الوقت الذي كان العثمانيون في حاجة إلى إرضاء الإنجليز ليقفوا إلى جانبهم ضد مصر.

وفعلاً حصل البريطانيون على فرمان في ٢٩ ديسمبر ١٨٣٤م ذكرت مقدمته أنه موجه إلى جميع الباشاوات والولاة سواء من يحمل منهم ثلاثة أطواخ أو طوخين فقط، وكذلك إلى القضاة وقباطنة المواني وسائر حكام الأماكن الواقعة على ضفتي نهر الفرات، ثم قرر الفرمان أن لورد بونسبني السفير البريطاني في استانبول «وهو أحد الشخصيات الذائعة الصيت للغاية بين الأمم المسيحية» قد قدم مذكرة رسمية إلى الباب العالي قرر فيها أن الحكومة البريطانية تطلب الإذن لباخرتين أن تبجرا على التوالي في نهر الفرات الذي يصب على مسافة قريبة من مدينة بغداد لغرض تسهيل التجارة، ولهذا السبب فإننا نسمح لباخرتين بالملاحة على التوالي في نهر الفرات، فأعطى لهم الحق بموجبه باستخدام باخرتين في نهر الفرات^(٢)، بقصد تسهيل التجارة، وأن تستمر الملاحة طالما كانت مفيدة للدولتين ولا يحدث من ورائها متاعب.

وأخطر الباب العالي كل من علي رضا والي بغداد ومتصرف البصرة بهذا الفرمان^(٣)، وأصدر والي بغداد علي رضا بيورلدي إلى مختلف المسؤولين في دائرة اختصاصه بضرورة مساعدة «بعثة الفرات على إتمام مهمتها»^(٤).

(1) F. O:78/240, ponsonby to Palmerston, December, 16. 1834.

(2) Hurewitz. J.C: op.-cit., pp 109 – 110.

(3) Hoskins. H.L: op.-cit., pp 163, 164.

(٤) عبد العزيز سليمان نوار: المصالح البريطانية في أنهار العراق، ص ٤٥.

وعقب صدور هذا فرمان سارع البريطانيون في إرسال كابتن فرنسيس راودن تشيزني على رأس بعثة بحرية إلى العراق لدراسة مدى صلاحية نهر الفرات للبواخر، ولكن تشيزني واجهته مشكلة أخرى تمثلت في أن الدوائر الرسمية البريطانية كانت ترغب في تحرك الباخرتين من البصرة في اتجاه الشمال، بينما كان تشيزني يرى العكس استناداً إلى عدم قدرة الباخرتين على الصمود في وجه التيارات الشديدة في الفرات والمتجهة جنوباً، فضلاً عن أن صعود الباخرتين في الفرات من البصرة يوحي للأهالي والعشائر العراقية بأن هناك نية مبيتة لغزو العراق نظراً لأن تفوق الإنجليز في منطقة الخليج وسمعتهم الاستعمارية السيئة تؤكد فكرة الغزو في أذهان الأهالي، أما مجيء البعثة من نواحي الشام بعد أن تمر عبر أراضي السلطان وباشا مصر فلا يثير مثل تلك الشكوك، وفي النهاية استقر الرأي على أن تبدأ الباخرتان عملهما في الفرات نازلتين بدلاً من صاعدتين فيه، على أن تشحن الباخرتان مفككتين^(١) في سفينة شراعية من إنجلترا إلى بلاد الشام عن طريق جبل طارق وجزيرة مالطة.

وأخيراً صدرت التعليمات النهائية بإبحار البعثة في أبريل ١٨٣٥ م، وحدد رئيس وزراء بريطانيا مهمة البعثة في رسالة بعث بها إلى تشيزني على النحو التالي^(٢):
أن تقوم البعثة بدراسة الفرات لتحديد مدى صلاحيته للملاحة البخارية لإنشاء طريق سريع إلى الهند بهدف تنمية التبادل التجاري. وتحديد مدى سرعة نقل البريد بواسطة البواخر بطريق الفرات بين الهند وبريطانيا. والعمل على التعاون مع السلطات العثمانية في سبيل إنجاح البعثة. وتجنب الاشتراك فيما بين العشائر من منازعات وعدم استخدام العنف إلا إذا تطلب الأمر المحافظة على أرواح أعضاء البعثة.

(١) كانت باخرتا بعثة الفرات السادسة والسابعة في ترتيب البواخر التي صنعت من هذا الطراز، وقد صممت آلات الباخرتين بطريقة ثلاثم تشغيلا بالفحم أو بالخشب كوقود، وتم تسليحها بطريقة فنية لمقاومة هجمات العشائر العربية والكردية في العراق على ضفاف نهر الفرات، وكان طاقم الباخرة دجلة مؤلفاً من ٣٢ ضابطاً وبحاراً وفتياً، أما طاقم الباخرة الفرات فكان مؤلفاً من ٣٣ رجلاً ما بين ضابط وبحار وفتي، ومعهم الدكتور هلفر وزوجته، وكانت الباخرة الفرات أطول وأكبر حجماً، وأكثر قوة من الباخرة دجلة، فقد ذكر أن قوتها كانت خمسين حصاناً، بينما كانت قوة الباخرة دجلة عشرين حصاناً. عبد العزيز سليمان نواز: تاريخ العراق، ص ٢٤٩.

(٢) عبد العزيز محمد الشناوي: مرجع سابق، ج ٢، ص ٧٧٤، ٧٧٥.

ولما وصلت البعثة إلى مالطة تعاقدت مع إثني عشر مالطياً لتسهيل عملية اتصالها بالعرب، وواصلت رحلتها حتى بلغت في ٣ أبريل ١٨٣٥ م ميناء السويدية، لتجد البعثة في استقبالها هنري لينش Henry Lynch Bless الذي كان يقوم خلال شتاء ١٨٣٤-١٨٣٥ م بمجهودات كبيرة بين العرب^(١) لتهيئة الجو أمام البعثة ولإعداد وسائل نقل المهمات من الشاطئ السوري إلى مرفأ وليام فورت William Fort^(٢) على الفرات.

وفي أعقاب وصول البعثة إلى السويدية أسرع تشيزني إلى إنزال الباخرتين للصعود في نهر العاص، وهنا اعترضته مشكلة خطيرة، هي اعتراض السلطات المصرية في الشام على نزول البعثة، كما ستوضح لاحقاً.

وقبل أن تصل البعثة إلى دير الزور وصلت تشيزني في أول أبريل ١٨٣٦ م أنباء تؤكد أن الضرورات حتمت إلغاء البعثة وحلها في ٣١ يوليو ١٨٣٦ م، ومعنى هذا أن البعثة لم تتمكن من تحقيق الأهداف الرئيسية، وأنها بعد تلك المجهودات المضنية وئدت في مهدها، ولكن تشيزني كان مصرّاً على متابعة البعثة سواء أكان المعترض هو محمد علي أو السلطان نفسه أم روسيا^(٣) أم سلطات بريطانيا نفسها، ولذلك كتم الأمر عن رجاله، وبعث بشكوى إلى المسئولين في لندن مطالباً بضرورة تمكين البعثة من إتمام مهمتها، وأقنعت الرسالة سلطات لندن ووافقت على مد أجل البعثة إلى أول يناير ١٨٣٧ م.

وأرسلت الباخرتان إلى الساحل السوري ومنه إلى بيرة جك على الفرات شمال العراق، وفي مرفأ وليام فورت على الفرات الأعلى تمت إعادة تركيبهما، وبدأتا رحلتهما من هذا المرفأ إلى البصرة في مارس ١٨٣٦ م، وهبطتا النهر تحت قيادة

(١) يعتبر العرب أكبر العناصر التي تسكن العراق من حيث العدد، وهم أحفاد الساميين الذين سكنوا العراق كالأشوريين، والكلدان، والعموريين، وقد اختلط العرب والأكراد الذين يلونهم من حيث العدد اختلاطاً وثيقاً في مختلف العصور التاريخية مما نتج عنه روابط ثقافية واجتماعية وتاريخية وغيرها. حسين هادي الشلاه: طالب باشا النقيب البصري ودوره في تاريخ العراق السياسي الحديث، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٢)، ص ١٨.

(٢) تقع وليام فورت على الفرات الأعلى على بعد ميلين ونصف ميل من «بيرة جك».

(٣) عبد العزيز محمد الشناوي: مرجع سابق، ج ٢، ص ٧٧٣.

«فرانسيس راودن تشيزني» رافعتا العلم البريطاني، ومدفعتيهما على أهبة الاستعداد لأي طارئ، وأطلق على إحدى الباخرتين اسم «الفرات»، وكانت أكبر حجماً من الأخرى التي أطلق عليها «دجلة»، بينما أخذ الفنيون يرسمون خريطة تفصيلية للنهر ويرصدون تياره وعمقه، وما يصادفونه من عقبات طبيعية، إلى أن بلغت البعثة دير الزور حيث بدأ تشيزني تجربة جديدة ذات أهمية خاصة، فنظرًا لقلّة الفحم اللازم للبواخر في العراق، قام تشيزني بتجربة استخدام البيتومين في إدارة ماكينات الباخرة؛ لأنه لاحظ توفره في العراق، وانتشار مناطق إنتاجه من أقصى شمال العراق إلى جنوبه، وقام تشيزني بالتجربة ونجحت إلى حد كبير.

ولم تكد باخرتا البعثة بتباعدان عن دير الزور عدة أميال حتى هبت عاصفة مفاجئة أغرقت الباخرة «دجلة» ومعها الكثير من الخرائط والمعدات والآلات العلمية المهمة، فكان غرقها كارثة شديدة لها صداها إذ تصور المسؤولون أن العواصف عتبة جديدة خطيرة تواجه الملاحة البخارية، ولذلك عني تشيزني بتبرير الكارثة فكان يؤكد على أنها حادثة عارضة لا تعني أبدًا أن الفرات غير صالح للملاحة^(١).

ولقد أثبتت بعثة تشيزني أن نهر الفرات صالح للملاحة البخارية رغم العقبات التي واجهتها ولكن تحت إشراف حكومة مستنيرة تستطيع أن تقوم بمشروعات متعددة على طول النهر لإزالة العقبات الطبيعية التي تحول دون استخدام البواخر. ومن ناحية أخرى قدمت البعثة دراسات اجتماعية لسكان العراق، ودراسات اقتصادية فتحت أمام دوائر الهند مجالات تجارية مربحة لا في العراق فقط بل في فارس كذلك عن طريق نهر كارون وفروعه، وظهرت بوضوح أهمية هذه الدراسات خلال حملة بريطانيا ضد الدولة الفارسية في ١٨٣٧ - ١٨٣٨ م و١٨٥٧ - ١٨٥٨ م، كما قدمت البعثة معلومات جغرافية عن طريق العراق إلى حلب، وعن الأهمية التجارية لقناة الشقلاوة التي يمكن أن تربط بين الفرات ودجلة بل إن تشيزني وضع مشروعًا لتحقيق هذه الفكرة^(٢)، كذلك وضعت البعثة أساس احتكار بريطانيا للملاحة في أنهار العراق.

(1) Hoskins. H.L.: op.-cit., p169

(2) Chesney. F. R.: the expedition for the study the rivers Euphrates and Tigris, Vol. 1, (London: 1850), p. 33.

بعثة تشيزني

أول نجاح بريطاني في وضع قوة مسلحة في العراق

تعد بعثة الفرات أول نجاح بريطاني في وضع قوة مسلحة في العراق باسم تنشيط التجارة في تلك الجهات، فقد ربحت السياسة البريطانية من وراء هذه البعثة أرباحاً سياسية واقتصادية بعيدة المدى، وعلى رأس هذه الأرباح فرمان ١٨٣٤م، إذ استغلت الدبلوماسية البريطانية فرمان أكبر استغلال فاستبقوا الباخرة الفرات في مياه العراق تحقيقاً لأغراض سياسية في أنهار العراق، ولنفس تلك الأغراض السياسية أرسلت ثلاث بواخر إلى شط العرب في أكتوبر ١٨٣٩م بقصد مقاومة التوسع المصري، فجعلت من العراق قاعدة بحرية ضد القوة المصرية الفتية^(١).

ولم يعترض العثمانيون على تحركات هذه البواخر في نهر دجلة وشط العرب، فهل كان للإنجليز حجة قانونية تخولهم حق الإبحار في نهر دجلة وغيره من أنهار العراق؟ مع أن فرمان لا يتضمن أبداً إلا نهر الفرات، فبعد دراسة فرمان البعثة الصادر في ٢٩ ديسمبر ١٨٣٤م يتضح أنه لا توجد أية إشارة إلى منح الإنجليز حق

(١) وفي ظروف إرسال البواخر الثلاث إلى شط العرب في أكتوبر ١٨٣٩م في أعقاب نكبة الجيش العثماني في موقعة نصيبين، يؤكد لنا أن هذه البواخر المسلحة أرسلت للمساهمة في الدفاع عن العراق إذا ما تقدمت القوات المصرية صوبه، ومن ناحية أخرى فإن إرسال هذه البواخر الثلاث في سرية تامة دليل على أن أغراض البريطانيين كانت إستراتيجية، كما أنهم تجنبوا إرسالها عن طريق الشام كبعثة الفرات حتى تفاجأ القيادة المصرية بظهور هذه البواخر في الفرات، ولا شك أن الحكومة العثمانية رحبت بوصول هذه البواخر التي ستعينها على المصريين إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، وأبلغ دليل على أن هذه البواخر إنما أرسلت لمقاومة المصريين أنها سحب من مياه العراق في أعقاب انتهاء الأزمة المصرية ١٨٤٢م فقد اعتقد الإنجليز أن وضع هذه البواخر في الفرات سيفلق الطريق أمام القوة المصرية الفتية الجديدة من عبور نهر الفرات والوصول إلى الخليج العربي عن طريق أنهار العراق، وكللت الخطط البريطانية بالنجاح بإرغام المصريين بالقوة على الانسحاب من الشام وشبه الجزيرة العربية.

تسيير بواخر لهم في نهر دجلة، بل إن موافقة السلطان العثماني كانت قاصرة على استخدام نهر الفرات دون أي غموض، وإذا كان هناك التباس في جملة «نهر الفرات الواقع في جانب بغداد»^(١).

فلا جدال أن هذا لا يعني أبدًا حصولهم على حق الإبحار في دجلة، ولكن الحكومة البريطانية لم تبحث في نهاية الثلاثينات من القرن التاسع عشر عن أي سند قانوني يعطيها حق الملاحة في دجلة إلا بعد انسحاب محمد علي من الشام؛ فقبل ذلك كانت الظروف مهيأة لها للإبحار في نهري دجلة والفرات دون اعتراض يذكر من جانب سلطات الباب العالي أو حكومة بغداد، وذلك لأن علي رضا كان في تلك الفترة في حاجة ماسة إلى معونة بريطانيا - مثله في ذلك مثل الباب العالي - ليوقف على قدميه أمام التوسع المصري، ولهذا تجاوز علي رضا - ربما بعلم الباب العالي - عن إبحار الباخرة الفرات في نهر دجلة، ولربما كان علي رضا يجهل النتائج السياسية الخطيرة المترتبة على هذا التجاوز الذي عُدَّ سابقة خطيرة تمسك بها الإنجليز، وأدت إلى نتائج خطيرة لم تكن تتوقعها الحكومة العثمانية أبدًا.

وأدركت فرنسا ما وراء ذلك الفرمان من حقوق ستستخدمها بريطانيا إلى أقصى درجة ممكنة، ولذلك رفضت الحكومة الفرنسية التسليم بما حصل عليه الإنجليز من امتيازات في أنهار العراق، فضغط جيزو - السفير الفرنسي - على حكومة لندن مطالبًا بحرية الملاحة لجميع الدول في تلك الأنهار، وظهرت مشروعات فرنسية لربط نهر العاص بالفرات، ولكن هذه المشروعات الفرنسية، وهذه المعارضة السياسية الدبلوماسية لم تجد أمام صلابه موقف بريطانيا وقوة أسطولها^(٢).

وهكذا يعتبر عهد علي رضا باشا في العراق (١٨٣١-١٨٤١) الفترة التي

(١) راجع:

OTTOMAN FERMAN PERMITTING NAVIGATION OF THE EUPHRATES RIVER BY BRITISH STEAM VESSELS, 29. December 1834.

وهي العبارة

«At A small distance from the city of Baghdad»

Hurewitz. J.C: op.- cit , pp 109-110.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٢٦٦.

وضع فيها الإنجليز أسس حقوقهم في المياه العراقية، ولعبت شخصية علي رضا باشا المتساهلة دوراً في ذلك، مثلما سبق أن ذكرنا، حينما تغاضى عن تحركات تيلور ومنحه حقوق التدخل في أمور من صميم الأمور الداخلية للولاية، كما لعبت الظروف الدولية من ناحية أخرى دوراً هاماً في وضع وتثبيت تلك الأسس البريطانية، فكانت حاجة الإمبراطورية البريطانية إلى استخدام الملاحة البخارية عبر الشرق الأدنى للربط بين الشرق والغرب لتحقيق أهداف سياسية وإستراتيجية فضلاً عن الأهداف الاقتصادية عاملاً قوياً لاهتمام البريطانيين بالملاحة البخارية في أنهار العراق.

كما لعب الصراع المصري العثماني في الجزيرة العربية والشام، والخوف من ظهور دولة كبرى تستطيع أن توحد الشرق الأدنى دوراً كبيراً كذلك في وضع أسس الحقوق البريطانية في المياه العراقية في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، فقد كان قيام محمد علي بتحركاته العسكرية التي انتهت بتكوين إمبراطورية في البلاد العربية^(١)

(١) في الحقيقة ليس هناك دليل على تفكير محمد علي في إقامة إمبراطورية عربية بعدما فتح الجزيرة العربية في العقد الثاني من القرن التاسع عشر، بل إن هذا التفكير راوده في مطلع العقد الرابع من القرن المذكور، ويؤكد ذلك ما ذكره المؤرخ الإيطالي أمبرتو ريتيناتو الذي كتب يقول "إن محمد علي باشا بعد سنة ١٨٣١م كان عنده الطموح لبناء إمبراطورية عربية شاسعة منفصلة عن تركيا". أنطونيو بلييري: "المذكرة التمهيدية"، لكتاب الإسهامات الإيطالية في دراسة مصر الحديثة في عصر محمد علي باشا، عماد البغدادي (ترجمة)، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥)، ص ١٠. وقد وضع ذلك من الرسالة التي بعث بها قنصل النمسا إلى وزير خارجيته مترنيخ يقول فيها "إنني أرى عددًا من الشواهد التي تشير إلى... فكرة إقامة إمبراطورية عربية فأرى من ناحية دولة عثمانية ضعيفة، ومن ناحية أخرى جيشاً عربياً وأسطولاً بحرياً قوياً، ويضاف إلى ذلك صحوة العالم العربي من نومه العميق". محمد عبد الستار البدري: مرجع سابق، ص ٤١. وكذلك الرسالة التي بعث بها كامبل قنصل إنجلترا إلى وزير خارجيته بامستون يؤكد فيها أن باشا مصر يسعى لبناء "إمبراطورية عربية تشمل مصر والنوبة وسنار ودارفور وكردفان في أفريقيا، وشبه الجزيرة العربية واليمن والخليج والفرات وسوريا بل ويستحوذ على الخلافة ويجدد مجد الإسلام" ١٨٣٨ Oct. ١. Campbell to Palmerston ٣٤/٧٨ F. o. والبعض الآخر قال عنها إنها إمبراطورية إسلامية. لطيفة محمد سالم: مرجع سابق، ص ١٧-١٩؛ عمر عبد العزيز عمر: العلاقات المصرية اللبنانية، ص ٧٧. وقال عنها آخرون إنها كانت إمبراطورية عثمانية، وأن هدفه كان "إحياء العالم العثماني". طارق البشري: "حروب محمد علي"، مجلة الهلال، العدد ٢، (١٩٦٥)، ص ٧٠. ويؤيد هذا الاتجاه المؤرخ الإيطالي ماسيمو كامبانيني الذي كتب يقول "الآيد هذا الرأي ما يبرهن عليه من حقائق فمحمد علي لم يكن مصرياً ولم يشعر بأنه كان

قد أحدثت صدامًا مروعًا بينه وبين المصالح البريطانية في الشرق، خاصة وأن محمد علي أصبح مسيطرًا على البحر الأحمر من ناحية الغرب والخليج من ناحية الشرق، فصار بذلك متحكمًا في أهم طريقين للمواصلات البريطانية إلى الهند خاصة، وبلاد الشرق عامة.

وكانت الدولة العثمانية في غمرة اليأس بعد هزيمة قواتها أمام محمد علي حينذاك في حاجة لأن تكسب صداقة بل تحالف بريطانيا، ولهذا سعت الحكومة العثمانية إلى أن تقوي من علاقاتها بالحكومة الإنجليزية لتعينها ضد هذه القوة الناشئة، ولقيت هذه الاتجاهات استجابة قوية في دوائر لندن السياسية، إذ كانت أهداف بريطانيا المحافظة على الوضع الراهن بقدر الإمكان، ورد القوات المصرية إلى قواعدها في مصر حتى لا تصبح الطرق المؤدية إلى الهند تحت رحمة هذه القوة الجديدة، ولكن بريطانيا كانت تلعب دورها بشكل يكفل مصالحها في المنطقة دون أن تعقد تحالفًا مع الباب العالي، فقد ظلت تقدم المساعدات إلى السلطان دون أن تبدو كأنها حليفة له ضد مصر.

ومن المساعدات البريطانية التي قدمتها للسلطان العثماني نجاح مساعي الباب العالي لدى ستراتفورد كاننج السفير البريطاني في الأستانة ليقوم بدور الوساطة في إقناع الحكومة الفارسية بالتزام سياسة الحياد خلال الأزمة الطاحنة التي يتعرض لها الباب العالي، إذ كان الباب العالي يخشى من أن يتنزه شاه فارس الفرصة وينقض على العراق، ولهذا قامت حكومة لندن بتحذير شاه فارس من التدخل ضد العراق خلال أزمة الهزائم العثمانية في بلاد الشام، وقد لعبت الدبلوماسية البريطانية دورًا رئيسيًا في أن تقف الدولة الفارسية على الحياد في الصراع المصري العثماني.

فقد قدر بامستون أن الشاه قد يغتنم فرصة نكبة الدولة العثمانية في نصيبين وفي سلطاتها محمود الثاني وينقض على العراق^(١)، ولذلك وجه النصيح للشاه

كذلك، وواصل توسيع النفوذ المصري لأهداف تتعلق بمكانته الشخصية، ومكانة جماعته أكثر من أي شيء آخر". ماسيمو كامباني: تاريخ مصر الحديث من النهضة في القرن التاسع عشر إلى مبارك، ترجمة عماد البغدادي، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٦)، ص ٢٨.

(١) فبالرغم من الهدوء بين الدولة الفارسية والدولة العثمانية في أعقاب توقيع معاهدة أرضروم الأولى في ١٨٢٣م، نتيجة لأن «فتح علي شاه» كان في أواخر أيامه، ففضل أن يحتفظ بعلاقات ودية مع السلطان العثماني فلم يتدخل أثناء الفوضى التي اجتاحت العراق إبان حملة علي رضا

بعدم اتخاذ أية تدابير عسكرية ضد بغداد، ورفع المشكلات التي تحدث بين فارس والعراق إلى مستوى المفاوضات بين البلاطين العثماني والفارسي، وفعلاً امتثل الشاه لهذا النصح الذي يحمل ثوب التهديد فلم يتدخل في أمور العراق خلال هذه الأزمة، وبالتالي لم يكتب لمحاولة التحالف بين محمد علي وفارس النجاح.

وفي الوقت نفسه صدرت التعليمات من كاننج إلى الكولونيل تيلور الوكيل السياسي البريطاني في بغداد بأن يتعاون مع علي رضا باشا في مساندة الحكم العثماني في العراق^(١).

كذلك منعت بريطانيا المصريين من السيطرة على البحرين، وفرض الأسطول الحربي البريطاني على شيخ البحرين فك ارتباطه الودودي مع القيادة المصرية في شبه الجزيرة العربية، وسعت البحرية البريطانية في الخليج إلى أن تنزل بعض قواتها في الكويت إلا أن شيخها رفض بشدة، وأرسلت شركة الهند الشرقية البريطانية أسطولها ليستولي على عدن بالقوة ١٨٣٩م كجزء من خطة إمبريالية عامة تقضي بإغلاق المنافذ البحرية في البحر الأحمر والخليج في وجه تقدم قوات محمد علي، كما هددت باستخدام القوة ضد المصريين في نواحي عُمان^(٢) خاصة وأنها كانت

باشا للقضاء على المالك بل أقدم على تسليم عزيز أغا الثائر المملوكي إلى علي رضا ١٨٣٢م، فلما تولى محمد شاه الحكم في ١٨٣٤م أظهر نياته التوسعية، لولا تدخل الروس والإنجليز لإثناؤه عن التفكير في استغلال الصراع المصري العثماني للتدخل في شئون العراق، خاصة في ظل توتر العلاقات مع الدولة العثمانية التي كانت تعمل من جانبها على التفاهم مع الحكومة الفارسية لتأمين جانبها في هذه الظروف العصية التي تمر بها، إلا أن توسع ميركوري بك أمير راوندوز على حساب فارس كان سبباً في إثارة الشاه الفارسي، ومن ثم فكر في التحالف مع محمد علي لاقتسام العراق، وكاد التحالف بينهما أن يتم لولا التدخل التهديدي من بامستون فهدأت الأمور بين فارس والعثمانيين إلى حين حتى إذا ما فرغت الدولة العثمانية من صراعها مع محمد علي تفرغت لمشكلات الحدود الفارسية العراقية، وأرسلت نجيب باشا والياً على بغداد (١٨٤٢-١٨٤٧).

عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٣٣٠-٣٣٣.

(1) F. O: 78/211, Canning to Campbell Aug., 2. 1832, No 60, Encl. of A letter from Canning to Palmerston, December, 19. 1832.

(2) تشغل عُمان موقعاً استراتيجياً من شبه الجزيرة العربية، وكانت تعرف بأنها بلاد الملاحة والشرع نظراً لأن سكانها كانوا بارعون في الملاحة، ولعبوا دوراً هاماً في تجارة الشرق والغرب، ويعتبر ميناء مسقط أهم موانئ المنطقة من الناحيتين الاستراتيجية والتجارية، وذلك نظراً لموقعه الاستراتيجي على مضيق هرمز، ويمتاز باتساعه، هذا بالإضافة إلى أنه تتوفر له حماية طبيعية من

قد حققت أهدافها في المنطقة بتوقيع اتفاقية ١٨٢٠م^(١) مع مشيخات الساحل في أعقاب حملتها على رأس الخيمة ١٨١٩م^(٢).

ولهذا فقد عارضت التوسع المصري بشدة خوفاً من ظهور قوة جديدة تنازعها النفوذ في الخليج، إذ قدرت أن وصول القوات المصرية إلى سواحل شرقي شبه الجزيرة العربية يمكن مصر من السيطرة على الخطوط الملاحية التي تصل أوروبا بالهند^(٣)؛ على أن إرسال بعثة الفرات بقيادة الكابتن فرانسيس راودن تشيزني لدراسة نهر الفرات تعتبر أكبر مؤامرة بريطانية ضد مصر في العراق، فقد كانت الحكومة البريطانية ترى في إرسال بعثة بحرية إلى مياه العراق فرصة كبيرة لخلق مصالح بريطانية هناك تمهد لإرسال قوة عسكرية تقف في وجه التوسع المصري صوب العراق، وتمنع القوى العراقية المؤيدة لمصر من عبوره.

على أنه خلال الفترة التي كانت تعمل فيها بعثة تشيزني في العراق، قد تشكلت لجنة برلمانية لدراسة أحسن الوسائل التي يمكن بواسطتها إنشاء خطوط مواصلات بخارية إلى الهند عن طريق البحر الأحمر، وتجاهلت هذه اللجنة تقارير بعثة الفرات التي كانت قد انتهت من دراسة مدى صلاحية نهري دجلة والفرات للملاحة البخارية في ١٨٣٧م، وقدمت اللجنة تقريراً يؤكد ضرورة إنشاء خط ملاحة تجاري بين السويس وبومباي^(٤).

وكانت هناك عدة تطورات قد جعلت طريق البواخر عبر البحر الأحمر أكثر سهولة للإنجليز، ومن أهمها مد الخط الملاحي البخاري البريطاني من مالطة إلى الإسكندرية، واتجاه الإنجليز نحو إحلال البواخر في الأسطول الهندي محل السفن الشراعية، والاحتلال البريطاني لعدن، التي أصبحت أهم محطات تزويد

مختلف الجهات. إلهام محمد علي ذهني: مرجع سابق، ص ١٢٧، ٢٤١.

(١) Hurewitz. J.C: op.-cit., pp 88-90.

(٢) أحمد عبيدي: «الحملة العسكرية على رأس الخيمة ١٨١٩ - ١٨٢٠»، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٣١ (١٩٨٢).

(٣) محمد حسن العيدروس: تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، (الكويت: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٦)، ص ٢٨٢.

(٤) Hoskins. H.L: op.-cit., pp 197, 207.

البواخر بالفحم^(١)، بالإضافة إلى أن مصر قد استطاعت خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر أن تحرز تقدمًا ملحوظًا على يد محمد علي الذي امتد حكمه إلى شبه الجزيرة العربية (١٨١١-١٨١٨)، وإلى السودان (١٨٢١-١٨٢٤) مسيطرًا بذلك على جانبي البحر الأحمر، وكان في نفس الوقت يسعى إلى كسب ثقة الأجانب في سبيل إحياء الطريق العالمي عبر مصر، فكان معنيًا جدًا بسلامة القوافل بين السويس والإسكندرية.

(١) سلطان بن محمد القاسمي: الاحتلال البريطاني لعدن ١٨٣٩م، (الشارقة: دار الغرير للطباعة والنشر، ١٩٩٣)، ص ٨، ٧، سلطان ناجي: «الخلفية التاريخية للاحتلال البريطاني لعدن»، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد الثاني (١٩٧٥)، ص ٣٦.

موقف محمد علي من بعثة تشيزني

اعتقد محمد علي أن إنجلترا هي المسئولة عن رفض الدول الأوروبية محاولته إعلان استقلال مصر في عام ١٨٣٤م، فأعلن رفضه لنشاط بعثة تشيزني الإنجليزية في منطقة شمال سورية التي كانت تقع تحت إمرته آنذاك، فاكسب محمد علي بذلك عداوة أوروبا بأسرها وخاصة إنجلترا ولم يستثن من هذه العداوة سوى فرنسا، فقررت بريطانيا في النصف الثاني من ثلاثينيات القرن التاسع عشر الوقوف في صف السلطان ضد محمد علي، الذي أصبح يقض مضاجعها بعد أن نجح في استخدام سورية كرأس جسر إلى العراق الذي يمثل الطريق إلى الهند من جهة الغرب.

ويبدو أن السياسة البريطانية قد قررت أن يكون الفرات الحد الشرقي للبلاد الواقعة تحت الحكم المصري حتى تحتفظ بالنفوذ البريطاني قوياً في العراق وعلى طول نهر الفرات، ولذلك ضغطت بريطانيا - تعاونها روسيا - على حكومة القاهرة حتى اضطررتها إلى الانسحاب من أورفة وبيرة جك^(١) وبذلك أصبح طريق الفرات أكثر أمناً للإنجليز عن ذي قبل.

وفي أعقاب وصول بعثة تشيزني إلى السويدية في ٤ أبريل ١٨٣٥م أسرع تشيزني بالعمل على إنزال مهماتها للصعود في نهر العاص، وهنا اعترضته مشكلة خطيرة، وهي اعتراض السلطات المصرية في الشام على نزول مهمات البعثة فمحمد علي لم يبلغ رسمياً بوصول البعثة، وإنما كتب المستر فارن Farren قنصل بريطانيا في دمشق إلى محمد شريف باشا حاكم الشام، وإلى إبراهيم باشا سر عسكر القوات المصرية، عن قدوم سفينة محيطة بالآلات البعثة وأن العمل قد بدأ فعلاً في تسهيل إنزال ونقل المهمات من السويدية إلى حلب بأقصى سرعة ممكنة^(٢).

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٥، وثيقة بدون رقم، من سليم بك إلى إبراهيم باشا في ١٥ ربيع أول ١٢٥٠هـ/ ٢٢ يوليو ١٨٣٤م، وثيقة ٢٥٠ في ٢ شعبان ١٢٥٠هـ/ ٣ ديسمبر ١٨٣٤م، ووثيقة ٢٩٠ في ١٢ شعبان ١٢٥٠هـ/ ١٣ ديسمبر ١٨٣٤م.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٥، وثيقة ٥٤٧، من محمد علي إلى إبراهيم باشا، ١٤ ذي القعدة ١٢٥٠هـ/ ١٤ مارس ١٨٣٥م.

وأُسرع إبراهيم باشا بالكتابة إلى الجنب العاللي يخبره بوصول البواخر الخاصة بمشروع الخط الملاحي البريطاني في نهر الفرات إلى السويدية، وأن البريطانيين أنزلوا معدّات المشروع إلى البر دون استئذان أحد^(١)، فأصدر محمد علي أوامره بمنع إنزال مهمّات البعثة عند السويدية بحجة أنه لم يخطر من قبل بفرمان السلطان، وتمسك بضرورة صدور فرمان من الباب العاللي يوجه إليه يطلب فيه مساعدة البعثة لأنه والي من قبل السلطان^(٢)، وسواء كان محمد علي يحكم مصر فقط، أو مصر والشام فإن هذين الإقليمين خاضعان للسيادة العثمانية، ولا يغير حكمه لهذين الإقليمين من وضعيته ومركزه القانوني كوالي، ولما كان محمد علي يخشى من أن يتلاعب الإنجليز برجاله في الشام حذرهم من الغفلة، ومن أن الإنجليز قد يوهموهم «زوراً» أن حكومة القاهرة «صرحت لهم بالمرور»^(٣)، وطلب محمد علي من شريف باشا «البحث عن الوسائل الممكنة ليحولوا بينهم (الإنجليز) وبين وسائل النقل»^(٤). وتجاهلت السلطات المصرية مطالب كامل الخاصة بمد طريق بين أنطاكية وبيرة

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٥، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٥٣٢، من دولة السر عسكر إبراهيم باشا إلى الجنب العاللي من طرابلس في ٢٩ ذي الحجة ١٢٥٠هـ / ٢٨ أبريل ١٨٣٥م.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٦، وثيقة ١١٢، من الجنب العاللي إلى شريف باشا، في ٦ ربيع الثاني ١٢٥١هـ / ١ أغسطس ١٨٣٥م، ويحاول محمد علي في هذه الوثيقة أن يتذرع بذريعة سيادة الدولة العثمانية على أراضي من أجل التخلص من وعد كان قد قطعه للبريطانيين بشأن تقديم التسهيلات لتنفيذ الخط البخاري البريطاني في نهر الفرات. دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٥، صورة الوثيقة العربية رقم ٥١٨ / ٢٠، من جورجي وكيل قنصل الإنجليز بطرابلس في ٢٣ ذي الحجة ١٢٥٠هـ / ٢٢ أبريل ١٨٣٥م. ومن الواضح أن الهدف الذي توخاه محمد علي من ذكر هذا المبدأ الذي لم يعد له أدنى وجود بعدما نجح ابنه إبراهيم باشا في السيطرة على بلاد الشام وشرع يهدد العاصمة العثمانية نفسها هو أن يوحي لبريطانيا أنه لا يفكر في تغيير الوضع الراهن على وفق ما أقره اتفاق كوتاهية بينه وبين الباب العاللي.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٥، وثيقة ٥٦٦، من محمد علي إلى شريف باشا، في ٩ شوال ١٢٥٠هـ / ٧ فبراير ١٨٣٥م.

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٥، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤١، من عوني أفندي في محرم ١٢٥٠هـ / مايو ١٨٣٤م، وانظر الرد على رسالة عوني أفندي بمحافظ الشام: محفظة ٧٥، وثيقة ٣٣٤، من شريف باشا إلى كبير معاوني الجنب العاللي، في ٢ رمضان ١٢٥٠هـ / يناير ١٨٣٥م.

جك لتسهيل عمليات نقل مهمات البعثة بين الساحل السوري ووليام فورت^(١)، الأمر الذي أدهش المسؤولين الإنجليز نظرًا لأن كامبل كان يؤكد لحكومته أن محمد علي سيقدم أكبر المساعدات لبعثة الفرات^(٢)، خاصةً عندما جاء رد حاكم مصر بضرورة استئذان السلطان، ولكنه أعطى خيار التنفيذ لوالي بغداد ووالي الشام فمثل ذلك عقبة أمام التحقيق، بالإضافة إلى شيوع الأمر بين الدول.

وبعد جهود استطاعت بريطانيا أن تحصل على فرمان مارس ١٨٣٥ م ينص على احترام الملاحة في الفرات^(٣)، وكانت نقطة الخلاف الوحيدة كما كان يبدو من المحادثات بين كامبل ومحمد علي هي تمسك الأخير بصدور فرمان من الباب العالي موجه إليه يطلب منه مساعدة البعثة^(٤)، وكان محمد علي يريد من وراء ذلك أن يحمل الباب العالي مسئولية ما سترتب على وصول البواخر إلى العراق، خشية أن يؤدي وجود البعثة بأسلحتها وذخائرها ورجالها إلى احتلال العراق، وبذلك تصبح البلاد الواقعة تحت حكمه يهددها الإنجليز من العراق شرقًا، ومن البحر المتوسط غربًا، في الوقت الذي امتنع الباب العالي عن إصدار فرمان المطلوب على اعتبار أن فرمان السلطان الممنوح للبعثة موجه إلى كل باشاوات الدولة دون استثناء^(٥).

ولقد أساءت السلطات البريطانية فهم الأسباب التي جعلت دوائر القاهرة، والقيادة المصرية في الشام، تقاوم البعثة، واعتقدت أن محمد علي ينتقم من بريطانيا

(1) F. O: 78/247, Campbell to ponsonby, 8. December, 1834.

(2) F. O: 78/247, Campbell to Palmerston, 9. Oct., 1834.

(٣) لطيفة محمد سالم: الحكم المصري في الشام ١٨٣١-١٨٤١، (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٩)، ص ٤٨.

(4) F. O: 78 / 252, Ponsonby to Willington, 24. march, 1835.

F. O: 78 / 253, Ponsonby to palmerston, 27. May, 1835.

F. O: 78 / 257, Campbell to palmerston, 27. Jon, 1835.

(٥) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٥، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٥٠٣، من دولة السر عسكر إبراهيم باشا إلى جناب الخديوي من طرابلس، في ٢٢ ذي الحجة ١٢٥٠هـ / ٢١ أبريل ١٨٣٥م.

التي أرغمته على الانسحاب من أورفة، ولكن محمد علي في الواقع كان يخشى من تفوق طريق الخليج - الفرات على طريق البحر الأحمر، الأمر الذي يصيب خزانة مصر بخسائر كبيرة، وقد عبر محمد علي عن رأيه في هذا الموقف بقوله «إن بعثة الفرات أعظم مصيبة على الأمة الإسلامية، وإذا قبلناها حلت علينا الملامة واللعنة إلى يوم الدين، ولذلك لا يمكن أن نوافق عليها حتى ولو بلغت الروح الحلقوم»^(١). ووضعت السياسة المصرية العقبات أمام البعثة فرفض إبراهيم باشا تقديم المساعدة للإنجليز فلم يسمح باستئجارهم الدواب، وأصدر محافظ حلب أمراً بمنع الأهالي من تقديم المساعدة مهدداً المخالف بمصادرة أمواله وأملاكه، ورفض متسلم أنطاكية مرور الدواب التي أجبرت على العودة ومنع الضباط الإنجليز من العبور وحجزت اللوازم الخاصة بهم^(٢).

ولكن موقف محمد علي الشديد من بعثة الفرات لم يستمر كثيراً إذ بدأ يتراجع أمام الضغط البريطاني المتواصل عليه فسمح للبعثة بالمرور عبر الشام إلى ساحل الفرات تجنباً للصدام بالإنجليز، وكتب إبراهيم باشا إلى تشيزني مأمور بعثة الفرات يخبره بأن «مولاي أصدر أمراً بإعطائكم الجنود اللازمين لحراستكم ولإيصال قوافلكم ولوازمكم إلى حدود حلب سالمة وبترقيق ضابط كبير لهؤلاء الجنود»^(٣)، واستجاب لإلتماس تشيزني بترميم الطرق، وبنقل لوازمه برفقة جنود مصريين حيث إن نقلها «على هذا المنوال يظهر للأهالي بأن النقل جاء برضاء جنابكم العالي وبأمر والدكم العظيم» وأكد تشيزني لإبراهيم باشا بأن ذلك سوف «يجلب سرور الدولة الإنجليزية إلى الحد الأقصى»^(٤).

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٥، وثيقة ٥٤٧، من محمد علي إلى إبراهيم باشا، ١٤ ذي القعدة ١٢٥٠هـ / ١٤ مارس ١٨٣٥م.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٦، وثيقة ٦٥، من إبراهيم باشا إلى الجناب العالي، في ٢٨ محرم ١٢٥١هـ / ٢٦ مايو ١٨٣٥م، ومرفق بها خطاب الكولونيل الإنجليزي مأمور قضية الفرات إلى إبراهيم باشا، المؤرخ في ٢٢ مايو ١٨٣٥م.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٦، وثيقة ٨٧، مرفق رقم ٢، من إبراهيم باشا إلى الكولونيل الإنجليزي «تشيزني»، في ٧ صفر ١٢٥١هـ / ٤ يونيو ١٨٣٥م.

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٦، وثيقة ٨٧، مرفق رقم ١، من الكولونيل الإنجليزي «تشيزني» إلى إبراهيم باشا، في ٧ صفر ١٢٥١هـ / ٤ يونيو ١٨٣٥م.

وفي الوقت نفسه أصدر أوامره بإخلاء روم قلعة وبيرة جك الواقعتين على الضفة الشرقية للفرات من الموظفين المصريين حتى يكون في حل مما وعد به القنصل البريطاني في مصر بتسهيل مهمة إنزال الباخرتين البريطانيتين في نهر الفرات^(١)، حيث رأي أنه «يجب صرف النظر عن جهات ديار بكر وأورفة والاكتفاء بشاطئ الفرات الذي من جهتها مع الاحتفاظ بمرعش»^(٢).

واختلف إبراهيم باشا مع أبيه في هذه النقطة، وتمسك بضرورة الإبقاء على روم قلعة وبيرة جك لأن هذين المركزين الاستراتيجيين كانا يضمنان البقاء للقوات المصرية في تلك المناطق بالإضافة إلى أنهما يسيطران على الطريق المؤدي إلى بغداد، ذلك الطريق الذي ارتفعت قيمته الإستراتيجية والسياسية إلى درجة كبيرة بسبب وصول بعثة الفرات وما لابسها من ظروف موضحاً لوالده ما سيؤول إليه الحال عند وصول هاتين السفينتين المسلحتين إلى قلب العراق قائلاً «إن الإنجليز قد جاءوا ومعهم عساكرهم ومدافعهم ومهماتهم وذخائرهم، فإذا بنو سفنهم وهجموا على بغداد متخذين من العرب ذريعة لهم لهذا الهجوم... وجلبوا على الأمة الإسلامية داهية دهياء يتهمنا الناس قائلين أنت الذي فعلت هذا، وأنت الذي أذنت لهم بالمرور من أرضك، وأنت الذي تسببت في هذه المصيبة التي نزلت بنا دون أن يعلم أحد أن الدولة هي التي أذنت لهم فمروا»^(٣).

في الوقت الذي شعر فيه الباب العالي بتلك المسؤولية نتيجة للضغط المصري والضغط الروسي، فأخذ يعيد النظر في مسألة بعثة الفرات في ضوء هذه التحذيرات، ولكن تشيزني قرر تجاهل السلطات المصرية واستمر رغم احتجاجها في إنزال المهمات إلى البر، وكان رد فعل إبراهيم باشا أن أصدر أوامره المشددة بمعاينة كل من يجرؤ على التعاون مع البعثة بأي شكل من الأشكال^(٤).

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٦، وثيقة ٢٥، من الجناح العالي إلى الباشا السر عسكر، في ٢٧ محرم ١٢٥١هـ/ ٢٥ مايو ١٨٣٥م.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الشام: محفظة ٨٢، وثيقة ١٨٤/٢٧-١، في ١٢ جمادى الأولى ١٢٥٥هـ/ ٢٣ يوليو ١٨٣٩م.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٥، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٥٠٣، من دولة السر عسكر إبراهيم باشا إلى جناب الخديوي من طرابلس، في ٢٢ ذي الحجة ١٢٥٠هـ/ ٢١ أبريل ١٨٣٥م.

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٥، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤١، من عوني أفندي في محرم ١٢٥٠هـ/ مايو ١٨٣٤م.

ولكن تشيزني كان عنيداً إلى الدرجة التي صرح بها لمتسلم أنطاكية بأنه سينقل المهمات سواء «أذنتم أو لم تأذنوا»، وفعلاً بدأ في تركيب أجزاء إحدى البواخر استعداداً لصعود نهر العاص^(١)، فكتب إبراهيم باشا لأبيه يطلب منه إعلان بطلان فرمان السلطان الخاص بمنح الإنجليز حق الملاحة البخارية في الفرات، وأن يجيبهم إجابة قاطعة بعدم الإذن لهم في تسيير السفينة، ولكن محمد علي فضل الأساليب الدبلوماسية، فحث السلطان على سحب فرمان الذي سبق أن أصدره لإنقاذ العراق مما بيته له الإنجليز، وتأزرت هذه المجهودات مع الضغط الروسي على الباب العالي لتجميد فرمان، وبالفعل صدرت التعليمات لمحمد علي بأن يحجز الآلات الموجودة في السويدية حتى يصل الرد من لندن، وكان معنى هذه التعليمات هو تجميد البعثة.

وسارع محمد علي بتنفيذ هذه التعليمات وامتنعت السلطات المصرية عن تقديم المساعدات للبعثة وأصدر تعليماته إلى إبراهيم باشا بعدم إعطاء البعثة «أية وثائق لتسهيل مهمتها بحجة أن أمر كهذا يقتضي الحصول على موافقة الدولة العثمانية»^(٢)، «على أن يفهمهم إبراهيم باشا أن هذا الانتظار لن يورث مصلحتهم من حيث الغاية أي ضرر لأنه سيتلافاه بمساعدته إياهم على النقل عند وصول الجواب والأمر المؤذن بالقبول فحينئذ ما يلزم لنقله عشرون يوماً يتم نقله في خمسة أيام فقط»^(٣).

وفسرت بريطانيا موقف محمد علي بأنه نوع من الانتقام لموقفها غير الودي منه في أزمة حرب الشام الأولى، كما فسرت موقف روسيا بأنها ترى في وجود بعثة الفرات قيداً لأطماعها من الانطلاق في منطقة الخليج وجنوب غرب آسيا، فما كان من الدبلوماسية البريطانية والقوة البحرية البريطانية إلا أن وضعت خططها على أساس توجيه ضربة مباشرة إليه إن ظل متمسكاً بتجميد البعثة، وصدرت التعليمات

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الشام: محفظة ٧٦، وثيقة ٣٧، من الحاج خلف متسلم أنطاكية إلى دولة الباشا سر عسكر، في ١٤ محرم ١٢٥١هـ/ ١٢ مايو ١٨٣٥م.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٦، وثيقة رقم ١١٧، من المعية إلى السر عسكر إبراهيم باشا، في ٢٣ ربيع الأول ١٢٥١هـ/ ٢٠ يوليو ١٨٣٥م.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الشام: محفظة ٧٦، وثيقة ٢١، من الجناب العالي إلى الباشا السر عسكر، في ٢٢ محرم ١٢٥١هـ/ ٢٠ مايو ١٨٣٥م.

إلى كامبل القنصل البريطاني العام في مصر ليطلب من محمد علي في الحال أن يصدر أوامر صريحة لإبراهيم باشا بتقديم المساعدات لأعضاء البعثة، وإذا رفض محمد علي إصدار مثل هذه الأوامر كان على كامبل أن يغادر الإسكندرية معلناً أن الأميرال رولي Rowely سيتخذ التدابير الكفيلة بدون إبطاء لصيانة مصالح وحقوق بريطانيا، وذلك بمنع دخول أو خروج أي وحدة بحرية ترفع العلم المصري من الإسكندرية، وأي سفينة تصر على خرق هذا الحصار تؤسر وترسل إلى مالطة^(١).

في الوقت الذي كان محمد علي قد أرسل أسطول له إلى كريت، ولهذا كان مجبراً على التراجع أمام هذا التهديد الخطير الذي يعرض مكاسبه خلال السنوات السابقة إلى الضياع^(٢)، فأمر بأن تترك البعثة تمر عبر الشام إلى بيرة جك، وأن يسرع في نقل أجزاء الباخرتين، وعدم الاحتكاك بالبعثة، وطلب من إبراهيم باشا أن يغض الطرف عن نقلهم للمهمات الحربية كالمدافع والبنادق والذخائر، وأدوات البعثة^(٣)، فكتب إبراهيم باشا إلى متسلم أنطاكية بأن «يوجه ما يلزم من خطابات في أن يجمعوا من القرى التابعة لأنطاكية الحصان والبغال والإبل ويرسلوها إلى السويدية بسرعة... وكذلك صدرت خطابات موجهة إلى متسلمي حلب وكليس أن يجمعوا من الدواب ما يقدر عليه من البغال والحصان والإبل ويجمعوا المكارين ويرسلوا إلى الميناء المار الذكر بسرعة وأرسلت الخطابات المذكورة إليهما في يد خاص^(٤)».

والظاهر أن محمد علي لم يشأ أن يخلق من قضية هذه البعثة سبباً في عرقلة سياسته العامة، التي كانت تمر بمرحلة حرجية، خاصة بعد اندلاع بعض الثورات ضد حكمه في بلاد الشام، ولهذا فإنه لم يتردد في أن يأمر إبراهيم باشا بتسهيل مهمة نقل الباخرتين الخاصتين بالمشروع إلى نهر الفرات خشية أن يقف موقفاً معادياً ضد بريطانيا؛ إذا وقف ضد تنفيذ فرمان الذي أصدره السلطان العثماني لصالح

(١) عبد العزيز محمد الشناوي: مرجع سابق، ج ٢، ص ٧٧٧.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٢٥٥.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٦، وثيقة رقم ٢٧، من الجناح العالي إلى السر عسكر

إبراهيم باشا، في ٢٧ محرم ١٢٥١هـ / ٢٥ مايو ١٨٣٥م

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٦، وثيقة ٩٧، من إبراهيم باشا إلى الجناح العالي، في

١٠ صفر ١٢٥١هـ / ٧ يونيو ١٨٣٥م.

إنشاء الخط الملاحي البريطاني في نهر الفرات، والذي أطلع عليه بواسطة القنصل البريطاني العام في مصر^(١)، وفي الوقت نفسه كتب إلى شريف باشا حاكم دمشق يأمره «بالمعاونة على نقل الباخترين إلى نهر الفرات نظرًا لاحتمال انشغال إبراهيم باشا في مناطق أخرى»^(٢).

ولكن محمد علي يعود مرة أخرى للوقوف موقفًا معرقلًا للبعثة عندما تقدم قادتها باقتراح غير مباشر، حين التقى الجنرال ستورلنج، المتدرب للإشراف على شئون البواخر التي يريد إنشائها في نهر الفرات، بإبراهيم باشا ملتزمًا منه أن تقوم السلطات المصرية بتمهيد الطريق المؤدي إلى بيرة جك لغرض استخدامها في نقل مهمات البعثة واستفسر إبراهيم من والده عن «الأموال التي ستفق على ترميم الطرق هل هي تدفع من قبل الميري أو من قبلهم»^(٣)، فجاءه رد والده بأن «يتفضل السر عسكر بإغماض عينيه حتى يكون الإنجليز هم المنفقون»^(٤).

فهذه الرسالة تكشف بوضوح جوهر سياسة محمد علي بشأن هذه القضية فهو من جهة يتظاهر بالموافقة على المشروع في محاولة لعدم إثارة بريطانيا، التي يقدر خطورتها على مشاريعه، ومن جهة أخرى يسعى سرًا لخلق كل ما من شأنه عرقلة المشروع، وتأخير تنفيذه في محاولة لكسب الوقت ريثما يفرغ من صراعه ضد الباب العالي، فأوحى إلى متسلمي المناطق التي ستمر بها البعثة بأن يعرقلوا عمليات النقل.

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٦، صحيفة ٣٩، من الجناح العالي إلى حضرة الباشا السر عسكر إبراهيم باشا، في غرة صفر ١٢٥١هـ / ٢٩ مايو ١٨٣٥م.

(٢) ويقصد بالمناطق الأخرى الثورات التي قد اندلعت في مناطق متعددة في بلاد الشام، ويكشف هذا الأمر عن الإحساس المتزايد بالقلق الذي أخذ يؤثر على محمد علي من سياسة بريطانيا تجاه مشاريعه في المنطقة، فترى تغيرًا كبيرًا في موقفه من قضية بعثة الفرات من الامتناع إلى العرقلة، وأخيرًا الموافقة والمعاونة. دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٦، وثيقة رقم ٤٠، من الجناح العالي إلى شريف باشا، في غرة صفر ١٢٥١هـ / ٢٩ مايو ١٨٣٥م.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٦، وثيقة ٩٥، من إبراهيم باشا إلى سامي بك كبير معاوني الجناح العالي، في ١٠ صفر ١٢٥١هـ / ٧ يونيو ١٨٣٥م.

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٦، وثيقة ٧٧، من الجناح العالي إلى الباشا السر عسكر، في ١٨ صفر ١٢٥١هـ / ١٥ يونيو ١٨٣٥م.

وكتب لإبراهيم باشا يقول «إذا كان الإنجليز استأجروا الدواب لنقل المهمات أو جمعوا العمال لتعبيد الطرق» فإن عليه أن يكتب إلى متسلم أنطاكية يخوفه بأنه من تلقاء نفسه دون أن يشعره بأنه يبيعاز من محمد علي «قائلاً: أظن أن هذه المسألة أمر عظيم فاحذر ولا تعطه الرخصة وعرقل دائماً وإلا فتكون مهيناً السبب لإعدامك، وكذلك أوصيه بالألا يخلوا من تحريض الآخرين على منع المساعدة، وبأن يعمل هو أيضاً على تبعيد المكارين من العمال إذا اتفقوا معهم وتنفير من يريدون الاتفاق معهم» ورأي إبراهيم باشا أنه يستطيع أن «يمنع عنهم المسألة من جميع الوجوه»^(١). ورغم ذلك فإن مهمات البعثة نقلت في زمن قياسي إلى «بيرة جك» فتطالعنا الوثائق أنه لم يأت شهر جمادى الأولى ١٢٥١هـ/ أغسطس ١٨٣٥م، إلا وقد نقلت جميع مهمات البعثة من السويدية إلى بيرة جك، وتم بناء على طلب القائد الإنجليزي تمهيد الطريق الموصل للفرات وتقديم الدواب لنقلها واصطحاب الحرس لمرافقة البعثة، ووصف إبراهيم باشا موقف محمد علي هذا في رسالة بعث بها إلى سامي بك فقال «ومثلنا في هذا الخصوص كمثل الذي يهرب من المطر لثلا يتل به فيأتيه البرد من حيث لا يظنه فيقع في مصيبته»^(٢)، وساعد على سرعة نقل البعثة من الأراضي الواقعة تحت حكم محمد علي إسهام الباب العالي، في تسهيل عمليات النقل التي كانت شاقة جداً^(٣)، فقد أرسل رشيد باشا من ديار بكر دواب لنقلها فوصلت البعثة بفضل هذه المساعدات إلى بيرة جك، وكان الباب العالي ينشد تأييد بريطانيا للدولة العثمانية في جولة تالية تخوضها ضد محمد علي انتقاماً لهزيمتها في حرب الشام الأولى.

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٦، وثيقة ٣٠، من إبراهيم باشا إلى الجناب العالي، في ١٤ محرم ١٢٥١هـ/ ١٢ مايو ١٨٣٥م.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الشام: محفظة ٧٦، وثيقة ٢٧٤، ترجمة الإفادة من إبراهيم باشا إلى سامي بك، المؤرخة في ٦ جمادى الأولى ١٢٥١هـ/ ٣١ أغسطس ١٨٣٥م.

(٣) فقد كان نقل الأجزاء الكبيرة من الباخرتين (الفرات: التي كانت قوتها خمسين حصاناً، ودجلة: التي كانت قوتها عشرين حصاناً) عملاً يتطلب جهداً كبيراً، فقد تطلب لنقل «غلاية» الباخرة الصغيرة دجلة ١٠٤ من الثيران لجرها يقودهم ٥٢ رجلاً من المكارين من أهل البلاد. عبد العزيز محمد الشناوي: مرجع سابق، ج ٢، ص ٧٧٨.

ورغم سماح محمد علي للبعثة بالمرور إلى وليام فورت فلم يكف عن مراقبتها وتبع أنبائها^(١)، ووضع العراقيين في طريقها، فلما وصلت البعثة إلى عيتاب بدلاً من أن يبذل لهم حكام تلك الجهات المساعدة قابلوهم بالسؤال عمّ إذا كان لديهم تصريح لشراء لوازمهم أم لا؟ الأمر الذي جعل تشيزني يكتب إلى محمد شريف بك حاكم الشام موضحاً له إذا كان الأمر يقتضي تصريح فإنه يلتمس تحرير «كتابين مفتوحين إلى كافة المتسلمين من الحكام الموجودين في تلك الحوالي بخصوص بذل المساعدة لإشتراء ونقل كافة الأشياء والمهمات اللازمة للمصلحة المشار إليها وإرسال هذين الأمرين إلى طرفه»^(٢)، وفي الوقت نفسه يأمر شريف باشا بأن يجمع المعلومات التفصيلية عن المشروع «على أن يكون تحقيقه وتحريه سرّياً من غير علم الإنجليز فإذا تم له تحقيق ذلك فليكتب إلى الجناب العالي على وجه الوضوح»^(٣).

ويرجع موقف محمد علي ذلك إلى خوفه من أن يقع العراق في يد الإنجليز وتصبح البلاد الواقعة تحت حكمه مهددة بالإنجليز من الجانبين: العراق والبحر المتوسط، ولهذا فكرت سلطات القاهرة في أن تجد منفذاً جديداً لمراقبة البعثة، إذ أشيع أن المصريين ينوون إنزال قطعة بحرية في نهر الفرات^(٤)، وبعد أن نقلت مهمات البعثة إلى وليام فورت ركبت الباخرتان «دجلة والفرات» وأنزلتا إلى مياه نهر الفرات، وبدأتا رحلتها صوب البصرة في منتصف مارس ١٨٣٦ م.

وسارت أمور البعثة أول الأمر سيراً مرضياً، إلا أنها بعد أن غادرت دير الزور بقليل تعرضت باخرتا البعثة في مساء ٢١ مايو ١٨٣٧ م لعاصفة شديدة أغرقت في الحال الباخرة الصغرى «دجلة» وسط الظلام بما كانت تحمله من خرائط ومعدات وآلات علمية دقيقة وثمانية، وغرقت معها أيضاً جميع الأموال التي كانت تخص البعثة، وبلغت الخسائر في الأرواح عشرين نفساً كان من بينهم ضابطان وثلاثة عشر

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٨، وثيقة ١١٨، من منيب أفندي إلى إبراهيم باشا، في ١١ شعبان ١٢٥٢ هـ / ٢١ نوفمبر ١٨٣٦ م.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٦، وثيقة ٢٠٨، ترجمة الإفادة من محمد شريف باشا إلى سامي بك، من يافا، دون تاريخ (تقريباً ١٨٣٦).

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٧٦، صحيفة ١١٣، من الجناب العالي إلى شريف باشا، في ٦ ربيع الثاني ١٢٥١ هـ / ١ أغسطس ١٨٣٥ م.

(4) F. O: 78/293, Werry to ponsonby, 16. July 1836.

أورويًا، وخمسة من أهل العراق، وكان لغرقها أصداء بعيدة في لندن إذ اعتقدت الدوائر الرسمية أن العواصف تُشكّل عقبة كبيرة في طريق الملاحة البخارية في نهر الفرات، وعمل تشيزني على ترديد أن غرق الباخرة دجلة كان كارثة عارضة لا تدل إطلاقاً على عدم صلاحية نهر الفرات للملاحة البخارية^(١).

وتابعت الباخرة الثانية «الفرات» هبوطها جنوباً في نهر الفرات وسط مقاومة عشائرية عنيفة، كما نتاول لاحقاً، بالرغم من دخول تشيزني في اتصالات بالعشيرتين الكبيرتين المسيطرتين على الجزيرة العراقية وبادية الشام - شمر الجربا وعنزة - اللتين كانتا في صراع مستمر بينهما أعجز باشا بغداد عن أن يفرض سيطرته على هاتين الكتلتين العشائريتين الضخمتين، وفي وجه المؤامرات التي كان يدبرها القنصل الفرنسي فيكتور فونتانييه Victor Fontanier لها^(٢) حتى وصلت شط العرب^(٣)، ثم صعدت نهر دجلة حتى بغداد.

(1) Hoskins. H.L: op.-cit., p.169.

(٢) ولم يُكتب لمجهودات فونتانييه النجاح لأن التمثيل السياسي الفرنسي في العراق كان ضعيفاً، بالإضافة إلى اهتمام الحكومة الفرنسية بمصر دون العراق لأنها كانت ترى أن مستقبل خطوط المواصلات العالمية سيكون لمصر لا للعراق. عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق، ص ٣٩٨.

(٣) عبارة عن مجرى مائي يمتد من التقاء نهري دجلة والفرات حتى رأس الخليج العربي بطول ١٤٧ كيلومتر، وعرضه يتراوح ما بين ٤٠٠ متر عند البصرة، وحوالي ١٥٠٠ متر عند المصب، وعمق يبلغ حوالي سبعة أمتار، وهو على هذا النحو صالح للملاحة البحرية في نصفه الجنوبي، والملاحة النهرية في نصفه الشمالي، ويتخلل شط العرب عدة جذر منها «عبادان أو جزيرة خضر» و«معاوية» و«الدواسر» و«شطيط» و«أم الخصاصيف» و«الصالحية» ويطل على شاطئيه أربعة موانئ اثنين عراقين: «الفاو والمعلل» والآخرين فارسين: «المحمرة وعبادان». بدر الدين عباس الخصوصي: «الجزر التاريخية لأزمة العلاقات العراقية الإيرانية في العصر الحديث»، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد الأول (١٩٨٢)، ص ٣٧.

موقف الأهالي والعشائر العراقية من بعثة تشيزني

لم تكذب البعثة تتخلص من معارضة محمد علي لها حتى تعرضت لأزمة جديدة تمثلت في معارضة العشائر العراقية، وخاصة عشائر شمر الجربا وعنزة المسيطرتين على حافتي النهر من البصرة إلى الشمال، فلم يكن من المستطاع أن ينفذ مشروع مد خط ملاحية بخارية في الفرات؛ إلا إذا وقفت عشائر شمر وعنزة موقفاً مسالماً من بعثة الفرات.

في البداية، حاول الإنجليز الاتصال بصفيق شيخ عشائر شمر الجربا؛ بقصد ربط هذه العشائر القوية بالمصالح البريطانية، واستطاع الإنجليز أن يعقدوا اتفاقية في أبريل ١٨٣٦م مع عشائر شمر الجربا، ومع عشائر عنزة الكبرى تعهدت فيها العشيرتان بالكف عن الحرب والغزوات، وبأن يكونوا دائماً على علاقات صداقة ومودة مع رعايا بريطانيا، وبعث بها إلى لورد بامستون، وعندما علم بامستون - وزير خارجية بريطانيا - بأمر تلك الاتفاقية سُر كثيراً ورحب بعقدها واعتبرها مستنداً لبريطانيا في قابل الأيام تستطيع بها التدخل في أمور الصحراء الشامية، وتجعل من هذه العشائر عضداً لها ضد أي هجوم على العراق، فقد اعتبرها أحد الباحثين «سلاحاً يُمكن أن تُشهره بريطانيا في وجه هذه العشائر وفي وجه حكام العراق وفي وجه الإمبراطورية العثمانية متى شاءت ذلك»^(١).

ومع أن البعثة لم تصادف مقاومة تذكر من عشائر عنزة وشمر الجربا، ربما نتيجة للاتصالات البريطانية المبكرة بها، فإنها لقيت مقاومة عنيفة من جانب العشائر

(١) عبد العزيز سليمان نوار: «آثار العراق والصراع الاستعماري في القرن التاسع عشر»، مجلة الهلال، السنة ٧٣، العدد الثالث، (١٩٦٥)، ص ١٤٣.

الصغيرة، وترجع هذه المقاومة إلى عوامل دينية وسياسية، كما ساعدت أعمال تشيزني نفسه على أن تهب بعض العشائر إلى مقاومة البعثة، فرغم صدور الأوامر إليه بتجنب الاصطدام بالعشائر إلا في الظروف القاهرة، وعدم الاشتراك فيما بين العشائر من منازعات فقد أطلق تشيزني مدافع باخرته على عشيرة عربية لأنها هاجمت شيخاً عربياً كان في ضيافته^(١).

كذلك دبر أهل مدينة الحلة مقاومة شعبية على قدر ما كانت تسمح به إمكانيات التسلح الشعبي حينذاك، فأغلقوا النهر في وجه الباخرة الفرات، ووضعوا جذوع الأشجار والنخيل لمنع تقدم الباخرة، وامتنعوا عن فتح الكوبري معتقدين أنه حاجز يكفي لإرغامها على العودة، ولكن الباخرة حطمت الكوبري واجتازته في هدوء واقتربت من الشاطئ وهددت المدينة بضربها بالمدافع إذا قاومت البعثة، ودارت معركة غير متكافئة لأن أفراد القبائل كانوا غير مسلحين إلا بأسلحة بدائية مثل البنادق الصغيرة الضعيفة والسيوف، بينما كانت الباخرة مزودة بمدفعية تقذف قنابلها على جموع العراقيين فتحدث بينهم خسائر فادحة في الأرواح^(٢).

وتعد مقاومة عشيرة بني حكيم النازلة بمنطقة الخضرة لبعثة الفرات المقاومة القوية الأولى التي صادفت البعثة، حيث تسلح رجالها ببنادقهم القديمة وسيوفهم واصطفوا قرب النهر وأقاموا حاجزاً خشبياً من جذوع الأشجار والنخيل لمنع الباخرة من متابعة السير، وعندما اقتربت الباخرة منهم أخذوا يطلقون رصاص بنادقهم الضعيفة عليها فأطلقت الباخرة قنابلها عليهم فسببت بينهم خسائر فادحة في الأرواح، ودارت معركة غير متكافئة بين رجال العشيرة ومدفعية الباخرة يرجعها أنزورث Ainsworth إلى دسائس القنصل الفرنسي فيكتور فونتانييه^(٣)، أما تشيزني

(1) Hoskins. H.L: op-cit, p169.

(2) عبد العزيز محمد الشناوي: مرجع سابق، ج ٢، ص ٧٨٠.

(3) فلقد أثار نشاط تشيزني السلطات الفرنسية، فاحتجت لدى بريطانيا، وطالبت بحققها في المرور والملاحه في الفرات والبصرة والخليج أسوة ببريطانيا، وحذر فونتانييه من نشاط تشيزني وعمل على الدس له لدى السلطات العراقية، وعلى إثارة القبائل العربية والكردية موضحاً لهم خطر البواخر البريطانية، كما هاجم الامتيازات التي حصلت عليها بريطانيا واستأثرت بها، ورغم جهود فونتانييه لم ينجح في وقف النفوذ البريطاني، وذلك لأن التمثيل السياسي الفرنسي في العراق كان ضعيفاً، ولأن فرنسا حرصت على تركيز نشاطها التجاري في مصر دون العراق.

فيعلل مقاومة العشيرة بأن البعثة قطعت خطأ شجرة مقدسه عندهم^(١).

وكلما تقدمت البعثة جنوباً زادت مقاومة العشائر العربية لإعادتها من حيث أتت ومنعها من متابعة السير، بل إن شيخ المتفق أصدر أوامره بعدم التعاون مع البعثة وعدم تمويلها بالفحم والمؤن اللازمة، وبلغ به الأمر أن هدد بحرق الباخرة إذا مرت بدياره، ولم يحل دون تنفيذ تهديده سوى خشيته من الاصطدام بحكومة بغداد، ومن المعروف أن عشائر المتفق كانت أكثر دراية عن غيرها من عشائر العراق بأحداث العالم ونوايا الإنجليز الاستعمارية وبمشكلات الخليج السياسية والاقتصادية وبدور الأسطول الإنجليزي في الخليج.

كذلك لعبت العاطفة الدينية دوراً كبيراً في إلهاب حماس عشائر جنوب العراق لمقاومة البعثة، فقد صادف في ذلك الوقت وصول مبشر بريطاني بروتستانت يدعى صموئيل Samuel على الباخرة «الهايلاند ساي Highlinsday» التي تحمل البريد الذي سيُسلم إلى الباخرة الفرات، فقام بدعوة العرب إلى ترك دينهم والدخول في المسيحية^(٢) الأمر الذي جعل العرب ينظرون إلى هذه البعثة على أنها حملة عسكرية سياسية اقتصادية، وقد عبر أحد العرب عن مشاعره نحو الإنجليز فقال «إن الإنجليز كالنمل لا تكاد تصل نملة حتى يتوافد جيش من رفاقها في أعقابها»^(٣).

ورغم مقاومة العديد من العشائر للبعثة إلا أن تشيزني كان يُردد أن العشائر العربية قد أعلنت ميلها لبريطانيا، وأن عددًا منها طلب الحماية البريطانية^(٤)، ورغم عدم استبعاد ذلك إلا أنه مما لا شك فيه أنها كانت حالات فردية لا تنم عن شعور عام، ومن المؤكد لو كان هناك تأييد حكومي لمقاومة البعثة لكانت هناك مقاومة عشائرية أعنف وأكثر إيجابية كالمقاومة التي لقيتها من عشائر شمال الشام عندما أوعزت لها السلطات المصرية بالامتناع عن مساعدة البعثة، ولعل من العوامل الرئيسة التي

عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق، ص ٣٩٨، إلهام محمد علي ذهني: مرجع سابق، ص ١٠٨،

عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٢٨٨.

(١) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٢٥٩.

(2) Hoskins. H.L.: op-cit, p. 191.

(3) Ibid: p. 193.

(4) F. O.: 78/293, Escort to Werry, 27 may, 1836.

أضعفت من مقاومة العشائر للبعثة عدم وجود تنسيق بينها وعدم وجود قيادة عليا تنسق أساليب المقاومة.

ولا شك أن مقاومة العشائر العربية للباخرة الفرات يثبت بجلاء أن مثل تلك المشروعات كانت بغیضة مكروهة من أهل البلاد، حقيقة قد يجني الأهالي من ورائها تجارة نشطة وأساليب حضارية تقدمية، ولكن الطريقة التي قدمت بها تلك الأساليب الحضارية كانت تولد في النفوس روحاً معادية لها مع رغبة فيها.

ولم تنظر الحكومة العثمانية لمقاومة العشائر للباخرة الفرات على اعتبار أنها ظاهرة ذات مدلول اجتماعي واقتصادي وسياسي خطير يجب أن يدرس ويعالج بالأسلوب الذي يتلاءم مع أهداف الدولة، ومع مصالح هذا الجزء منها، ولم تر في المتاعب التي تعرض لها الأهالي أمراً يستوجب وقف عمليات الملاحة، ذلك أن المسؤولين العثمانيين كانوا دائماً ما يرون أن أية متاعب يتعرض لها الرعية أو العشائر العربية، ليست متاعب تستوجب وقف الباخرة الفرات عن متابعة الملاحة في النهر، فقد كانوا يرون أن المتاعب التي أشار إليها الفرمان التي تقضي بوقف عمليات الملاحة هي المتاعب التي تتعرض لها الحكومة العثمانية نفسها.

كما أن السلطات العثمانية في بغداد لم تطابق النشاط الذي قامت به الباخرة الفرات في المياه العراقية بما هو منصوص عليه فعلاً في فرمان ١٨٣٤م فقد صدرت الأوامر فجأة إلى تشيزني بأن يصعد في نهر دجلة، وكان تشيزني نفسه لا يتوقع مثل هذه التعليمات، وفعلاً صعدت الباخرة إلى نهر دجلة حتى بغداد، ثم تجاوزتها، ثم هبطت في النهر إلى البصرة، وتسلمت البريد الإنجليزي من سفينة أرسلت من الهند خصيصاً لذلك، وقامت الباخرة الفرات بنقل البريد إلى الساحل السوري، وتجاوزت بذلك الحدود التي رسمها الفرمان.

بعثة الضرات التجربة البريطانية الأولى في العراق

لم يجد الإنجليز أي اعتراضات ضد أعمالهم غير المشروعة في أنهار العراق، لا من قبل الباب العالي ولا من قبل ولايته في بغداد الذين كانوا مؤيدين لمشروع الملاحة البخارية في أنهار العراق؛ نظرًا لما تدره هذه الملاحة من أرباح وفيرة لخزانة الحكومة، وما تؤدي إليه من نشاط متزايد في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في أرجاء العراق، الأمر الذي جعل البريطانيين يتمادون في ذلك مستغلين حاجة الدولة العثمانية للتأييد البريطاني لها خلال أزمة الصراع المصري العثماني في الشام.

وانتهى تشييزني من مهمته سنة ١٨٣٧م، التي مهدت لجعل العراق قاعدة إنجليزية ضد التوسع المصري في الشام وفي شبه الجزيرة العربية^(١)، ومنحت بريطانيا مكاسب سياسية واقتصادية بعيدة المدى، فقد نظرت بريطانيا إلى ملاحة البواخر البريطانية في أنهار العراق دون إذن من السلطات العثمانية المختصة إلى أنها «سابقة»، وحق مكتسب لها.

ففي نفس الوقت الذي كان الإنجليز يعدون العدة لإرسال هذه البعثة إلى نهر الفرات كان الإنجليز والعثمانيون يبذلون جهدًا كبيرًا لإرغام محمد علي على قبول نهر الفرات كحد فاصل بين الأقاليم الخاضعة له وبين الدولة العثمانية، وفعلاً وافق

(١) حيث لم تكتمل البعثة من مهمتها إلا بدأ تنفيذ خط بواخر الفرات لربط الشرق بالغرب بواسطة العراق بإرسال بواخر مسلحة إلى العراق قادرة على منع أي اتجاه مصري نحوه. وكان هذا النشاط والاهتمام البريطاني المتزايد نتيجة لاستيلاء القوات المصرية على الشام، وخشية بريطانيا من سقوط العراق بيد أول كتية مصرية تتحرك نحوه.

Hoskins. H.L: op-cit , p. 120.

محمد علي على اعتبار النهر فاصلاً بين العراق والشام حيث رأي أنه «يجب صرف النظر عن جهات ديار بكر وأورفة والاكتفاء بشاطئ الفرات الذي من جهتها مع الاحتفاظ بمرعش»^(١).

ومن ثم كان الخط الذي سارت فيه باخرتا بعثة الفرات هو الحد الأقصى الذي كان من الممكن أن تسمح به الدبلوماسية والإستراتيجية البريطانية للقوات المصرية بأن تصل إليه وتوافق عليه بريطانيا كحد بين الشام المصري والعراق العثماني، ولهذا اصطدمت المصالح البريطانية مع الأهداف المصرية، وغنم العثمانيون من وراء هذا الصدام.

ومن ناحية أخرى أصبح العراق قاعدة هجومية ضد مصر كما أصبحت كل من الموصل والبصرة قاعدتين عثمانيتين ضد مصر، وشكلت عشائر العراق خطراً داهماً ضد القوات المصرية في الشام، وهذا هو المكسب الكبير الذي أحرزه الإنجليز والعثمانيون الذين عملوا على جعل العراق في الجولة القادمة مع المصريين قوة ايجابية لا سلبية، ولتحقيق هذا الهدف نشطوا في تصفية الإمارات الكردية المناوئة للحكم العثماني^(٢)، وعنوا بالموصل كقاعدة لمشاكسة القوات المصرية في الشام، وبعث الباب العالي ببعض القوات النظامية إلى العراق، وكلف علي رضا بتكوين جيش من أهل العراق، وتوالت الاجتماعات بين القيادات العسكرية في بغداد والموصل وديار بكر لتنسيق التحركات، واجتمعت قطاعات من جيوش هذه القيادات الثلاث في سيوه رك^(٣).

والحق لقد أثارت بعثة الفرات مخاوف الدوائر المحلية والسياسية على السواء، فقد أثارت البعثة بتصرفاتها مخاوف السلطات العثمانية في العراق وإستانبول،

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٨٢، وثيقة ١٨٤/٢٧-١، في ١٢ جادى الأولى ١٢٥٥هـ/ ٢٣ يوليو ١٨٣٩م.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ١٠١، وما بعدها.

(٣) وكانت سيوه رك في مفترق الطرق الأمر الذي جعل القيادة المصرية في حيرة من أمر الجهة التي ستزحف إليها القوات العثمانية المعسكرة فيها. دار الوثائق القومية: محافظ الشام: محفظة ٨٠، وثيقة رقم ٣، مرفق رقم ١٤، من إسماعيل عاصم إلى الجتاب العالي، في ٢٨ ذي الحجة ١٢٥٤هـ/ ١٥ مارس ١٨٣٩م.

وأزعجت عددًا من العواصم الأوروبية وبخاصة باريس لأنها تجاوزت الخطوط التي رسمها فرمان ١٨٣٤م الخاص بها، فقد قصر فرمان إبحار الباخرتين على نهر الفرات فقط، ولم يرد قط ذكر لنهر دجلة أو لغيره من الأنهار، ومع ذلك فقد أبحرت الباخرة الفرات في أنهار دجلة وكارون والبهماشير والساجور^(١).

فقد صدرت الأوامر إلى تشيزني فجأة بأن يصعد في نهر دجلة، وفعلاً صعدت البعثة إلى بغداد بل وتجاوزتها شمالاً، ثم هبطت إلى البصرة وتسلمت البريد الهندي، ثم شرعت في صعود النهر، ولكن الباخرة عجزت عن متابعة الملاحة، ففضل تشيزني أن يرسل البريد مع بعض رجاله بالطريق البري إلى الساحل الشامي، وفعلاً وصل البريد إلى بريطانيا، ولكن متأخر ثلاثة أشهر عن ميعاده الأمر الذي أساء للبعثة.

وكانت التعليمات تقتضي، مثلما سبق أن ذكرنا، بحل البعثة في يناير ١٨٣٧م، ولكن تشيزني قرر أن يبذل كل ما في وسعه للإبقاء على الباخرة الفرات في مياه العراق، وسافر لهذا الغرض إلى بومباي دون أن يلقي نجاحاً في مهمته فرحل إلى لندن، وبينما كان رجال البعثة يستعدون للإبحار بالباخرة الفرات إلى بومباي وفقاً للتعليمات الصادرة إليهم من حكومة لندن جاءتهم الأوامر بالعدول عن ذلك والبقاء في العراق لأن مجلس المديرين Court of Directors اشترى الباخرة الفرات من الحكومة البريطانية وقرر أن يُبقي عليها في مياه العراق^(٢). وبذلك انتهت بعثة تشيزني، ولكن ظلت الباخرة الفرات في المياه العراقية.

وعند تقييم هذه البعثة يجب أن نأخذ في الاعتبار أنها كانت التجربة الأولى للبريطانيين في الشرق الأدنى في ظروف متناهية الدقة، إلا أن الذي لا يجب إنكاره هو أن وصول البعثة إلى الخليج يعد عملاً له قيمته التاريخية الكبرى. وكانت إحدى نتائج البعثة تسير بريد الجمال بين بغداد ودمشق الذي استمر للفترة من ١٨٣٨م إلى

(١) نهر الساجور أحد روافد نهر الفرات الذي يفصل بين الجزيرة الشامية، ويمتد هذا النهر إلى حلب فعليه تقع مدينة منج من أعمال حلب اليوم. أمين سعيد: تاريخ مصر السياسي من الحملة الإفرنسية سنة ١٩٧٨ إلى انهيار الملكية سنة ١٩٥٢، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٩)، ص ٧٢.

(٢) عبد العزيز محمد الشناوي: مرجع سابق، ج ٢، ص ٧٦٨.

١٨٨١م، وكانت تدبره المقيمة البريطانية في بغداد، وتموله إلى حد كبير حكومة الهند البريطانية، ويجرى نقل البريد من قبل قبائل العقيل الذين يقطنون هذه المسافة البالغة حوالي خمسمائة ميل بعشر إلى أربع عشر يومًا.

وبعد ذلك بعامين عندما وقعت معركة نصيبين في يونيو ١٨٣٩م ومنيت الجيوش العثمانية بهزيمة نكراء، سارع البريطانيون بتعزيز قواتهم الموجودة في العراق ضد أي توجهات مصرية نحوه، فأرسلوا على عجل ثلاث بواخر مسلحة إلى العراق تحت ستار نقل البريد، ولكنها كانت تهدف إلى مواجهة أي تعاون مصري عراقي خاصة بعد وصول قوات محمد علي بقيادة خورشيد باشا إلى الإحساء والقطيف، وقيامه بعقد اتفاق عن طريق وكيله محمد رفعت أفندي مع شيخ البحرين، وأخذ يُعدّ العدة للقيام بغزو البصرة مغربيًا محمد علي بأن العراق «مُلْكًا عظيمًا يضاهي ملك مصر وهو الآن كالحسام الجواهر الذي سقط في حفير»^(١).

غير أن تحذيرات بريطانيا المتكررة، والموقف الدولي آنذاك قد أديا إلى إحجام محمد علي عن القيام بهذا المشروع، خاصة عندما وصلت الأمور بينه وبين السلطان العثماني إلى ذروتها من التفاقم، وتحولت لأزمة دولية بعد انتصار قواته في معركة نصيبين، وزحف هذه القوات نحو العاصمة العثمانية، مما أدى إلى تصدي الدول الكبرى إلى محمد علي وإرغامها له بموجب معاهدة لندن ١٨٤٠م على سحب قواته من بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية^(٢)، وبعد ذلك سحبت إنجلترا باواخرها من المياه العراقية فيما عدا باخرة واحدة كانت نواة القوة البحرية المسلحة البريطانية في المياه العراقية، تلك القوة التي ظلت موجودة في العراق حتى سقوطه بيد الإنجليز عام ١٩١٧م.

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٤ حراء، من ميران محمد خورشيد سر عسكر إلى باشمعاون جناب داوري، بتاريخ غرة جمادى الثانية ١٢٥٥هـ/ ١١ أغسطس ١٨٣٩م.

(2) Bury, J. P. T: the new Cambridge modern history, volume X, the zenith of European power 1830-70, (Cambridge: Cambridge university press, 1967), p 429.

الملاحة البخارية البريطانية في أعقاب بعثة تشيزني

بعد تسوية المسألة المصرية تركزت مشاريع الملاحة البخارية النهرية في أنهار العراق بيد الإنجليز، وخلف تشيزني حين غادر العراق في أبريل ١٨٣٧م أحد مساعديه وهو هنري لينش بلس أحد ضباط بعثة الفرات، الذي نجح في الحصول على إذن من السلطات البريطانية في الهند بإجراء دراسات في منطقة شط العرب، وكذلك لاستكمال الدراسات التي أجريت في أنهار العراق، وإجراء محادثات مع رؤساء القبائل التي تقطن حوض نهري دجلة والفرات لإقامة علاقات طيبة معهم لخدمة بريطانيا، وبغرض زيادة التسهيلات في سرعة نقل البريد من البصرة إلى أساكن الشام، وفعلاً قامت الباخرة الفرات بعمليات ملاحية في تلك الأنهار دون أي اعتراض من جانب السلطات العثمانية، استغرقت الفترة من عام ١٨٣٧ - ١٨٣٩م. ثم قام لينش بعد ذلك بإنشاء مؤسسة لينش في بغداد ١٨٤٠م^(١)؛ مع بعض أفراد عائلته، فتنبهت فرنسا لخطر الوضع القائم في العراق، وأنه لا يستند إلى أي أساس قانوني فضغطت على حكومة لندن مطالبة بحرية الملاحة والمرور لجميع الدول في طريق سورية - الفرات - البصرة - الخليج، وطريق الإسكندرية - القاهرة - السويس - البحر الأحمر، وقامت بالاعتراض على تزايد التغلغل البريطاني، واحتج السفير الفرنسي في لندن جيزو Guizot لدى الحكومة البريطانية، ورد لورد بامستون وزير خارجية بريطانيا على الاحتجاجات الفرنسية في مذكرة بتاريخ ٢١ فبراير

(١) وقد تحولت مؤسسة لينش إلى شركة للملاحة البخارية في أنهار العراق عام ١٨٦١م تحت مسمى «شركة السادة لينش للملاحة البخارية في نهري دجلة والفرات» Messrs Lynch of the Euphrates and Tigris steam Navigation Company، وظلت قائمة حتى تمت تصفيتها عام ١٩٥١م. عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق، ص ٣٩٨.

١٨٤١م أكد فيها أن بريطانيا ستعمل على ضمان مصالحها في الممرات المؤدية إلى الهند^(١)، وذهبت جهود الدبلوماسية الفرنسية أمام صلابة موقف بريطانيا، واستقرار نظام الحكم فيها، وقوة أسطولها هباءً منثورًا.

وبوصول هنري رولنسون H. Rolinson -القنصل البريطاني في بغداد- إلى العراق عام ١٨٤٣م أخذ يعمل على تقوية نفوذ بلاده، ونجح في كسب ثقة زعماء العشائر الكردية، وشيوخ العشائر العربية، الأمر الذي أدى إلى غضب نجيب باشا والي بغداد (١٨٤٢-١٨٤٧)، الذي اتهمه بأنه يسعى إلى ربط نصارى العراق بالمقيمة البريطانية لخدمة مصالح بلاده، وانتهاز الفرنسيون فرصة توتر العلاقات بينهما فعملوا على التودد لنجيب باشا لكسب ثقته.

وعندما شرع نجيب باشا في تنفيذ مشروع خط ملاحية عثمانية في نهر الفرات تصدى له التجار الإنجليز يشد أزهرهم القنصل البريطاني في بغداد هنري رولنسون ليمنعوه من تحقيق مشروعه^(٢)، في الوقت الذي فطنت فيه الدولة العثمانية إلى حقيقة البواخر المسلحة البريطانية في أنهار العراق في أعقاب الانسحاب المصري على إثر تسوية ١٨٤٠-١٨٤١م، وكانت حاجة الدولة العثمانية لتأييد الإنجليز قد قلت بعد انتهاء أزمة التوسع المصري، فعملت على أن تنافس الخطوط البخارية البريطانية بخطوط بواخر عثمانية لعلها تحد من نشاطها وخطورتها، فأوفدت أحد رجال البحرية العثمانية وهو نجيب بك، إلى البصرة سنة ١٨٤٧م لدراسة الإمكانيات المتوفرة محليًا لإنشاء قوة بحرية عثمانية في جنوبي العراق، وتأسيس ترسانة^(٣) بحرية في البصرة لخدمة السفن التي أزمعت الحكومة العثمانية شراءها

(١) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٢٦٦.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار: المصالح البريطانية في أنهار العراق، ص ٦١، حيث يذكر أن نجيب باشا قد عرض المشروع على القنصل البريطاني في بغداد روبرت تيلور فأيده، وكتب إلى رؤسائه في لندن داعيًا إلى تأييد نجيب باشا في تنفيذ مشروعه، الأمر الذي أغضب التجار الإنجليز، فبعثوا بشكاياتهم ضده واتهموه بأنه يعمل لصالح الحكومة العثمانية ضد المصالح الإنجليزية، فلم تجد الحكومة البريطانية حلاً لتلك المشكلة إلا بإبعاد روبرت تيلور عن بغداد ١٨٤٣م، وأسندت منصب القنصلية إلى هنري رولنسون.

(٣) في رأي أنها تحريف لكلمة «دار الصناعة»، وفي رأي آخر أنها من الكلمة الإيطالية «Dersana»، ويقال إنها من كلمة «ترساخانة» بمعنى دار المسيحيين، لأن هذا الموضع كان معقل الأسرى المسيحيين، وأقيمت أمامه مصانع السفن وما يتبعها من إدارات. حسين مجيب المصري: مرجع

واستخدامها سواء للنقل النهري الداخلي في العراق أو للنقل الخارجي من العراق. وتألفت في بغداد شركة ملاحه بخارية عثمانية أسهمت الحكومة في رأس مالها بمقدار النصف، واكتتب التجار والأعيان بالنصف الآخر، وعهد لشركة بلجيكية ببناء باخرتين أطلق عليهما بغداد والبصرة، ووصلتا إلى العراق عام ١٨٦١ م.

وعلى عهد نامق باشا والي بغداد ازداد الاهتمام بأمر البواخر النهرية، فأمر في سنة ١٨٦٧ م ببناء ثلاث بواخر جديدة هي: الموصل، والرصافة، والفرات^(١)، وسار على نهجه مدحت باشا والي بغداد (١٨٦٩-١٨٧٢) فأبدى مزيداً من الاهتمام بالبواخر التي استوردها من قبل سلفيه رشيد الكوزلكلي ونامق باشا، وبعد عزله في ٢٣ مايو ١٨٧٢ م عملت السلطات العثمانية على دعم الملاحة البخارية في أنهار العراق، ولكن فرمان الذي منحه السلطان العثماني للبريطانيين كان سلاحاً قوياً في وجهه إذ منحهم فرصة واسعة لاحتكار الملاحة البخارية والتجارية في أنهار العراق.

وبذلك تكون بريطانيا قد خرجت من أزمة الصراع المصري - العثماني، وهي تضمن غلق المضائق في وجه روسيا، كما ركزت مشروعات الملاحة البخارية في أنهار العراق في يدها دون منافسة أخرى، وكانت هذه النتيجة من أهم النتائج التي حققتها بعثة تشيزني التي استغرقت زهاء ثلاث سنوات (١٨٣٥-١٨٣٧)، فبعد أن قررت الحكومة البريطانية سحب البواخر الثلاث التي أرسلتها إلى العراق سنة ١٨٣٩ م بقصد مقاومة التوسع المصري لانتها الغرض الذي من أجله أرسلت، إلا أنها عدلت عن ذلك لرغبتها في الإبقاء على احتكار الملاحة البخارية في مياه العراق بصورة أو بأخرى حتى بعد أن فضلت طريق مصر على طريق العراق.

وذلك لأنها رأت أن خروج البواخر البريطانية من العراق سيحدث فراغاً قد تسرع إحدى الدول المنافسة لتملؤه فتكون النتيجة أن تغلق أنهار العراق في وجه بريطانيا، في الوقت الذي كانت فرنسا تسعى فيه نحو الحصول على موضع قدم في مياه الخليج أو على شواطئه في العراق، كما كانت الحكومة الفارسية تسعى إلى أن تنادد القوة البريطانية في الخليج بقوة أوروبية، لذلك رأى هنري رولنسون

سابق، ص ٥٤.

(١) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٢٧١، ٢٧٢.

- القنصل البريطاني في بغداد - أن من واجب الحكومة البريطانية الإبقاء على الأسطول البريطاني في الخليج وفي أنهار العراق ليكون قوة لسد جميع المنافذ والثغرات في وجه الدول المنافسة^(١).

وهكذا كان الصراع المصري - العثماني سبباً في تفوق الملاحة البريطانية في أنهار العراق، بل تضاعفت فيما بعد لمواجهة النفوذ الفارسي والعثماني، وخاصة عندما دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى إلى جانب دول المحور، فانقضت بريطانيا على العراق واحتلت البصرة في ١٩١٤ م.

وهكذا كان العراق خلال أزمة الصراع المصري - العثماني قاعدة إنجليزية ضد المصريين تحت ستار مشروعات خطوط المواصلات العالمية وتنشيط التجارة، ولم يلبث الإنجليز أن أهملوا العراق لأن سياستهم اتجهت نحو تفضيل مصر كطريق سريع بين الهند وأوروبا، وفي هذا يقول السير جون هبهوس sir J. Hebbouse في مجلس العموم البريطاني إن الغرض من مد خطوط الملاحة البخارية بين الهند وإنجلترا غرض قومي، وحتى لو نجحت بعثة تشيزني في إثبات أن نهر الفرات صالح للبواخر ولربط الشرق بالغرب فإنه لابد من استخدام الطريق عبر مصر والبحر الأحمر أيضاً.

وهذا يؤكد لنا أن الطريق عبر مصر كان له دائماً الأفضلية لدى الإنجليز، حتى أن هوسكنز Hoskins يرى أن النقد الحقيقي الذي يوجه إلى بعثة الفرات هو «أنها عطلت أمر استخدام طريق مصر»^(٢)، وكانت لدى الإنجليز رغبة في أن يُرسلوا يريداهم إلى الهند عن طريق مصر، وذلك بسبب المشاغبات التي لا تنقطع في العراق بين الحكومة والعشائر العربية والكردية الأمر الذي يُعرض البريد من وقت لآخر للضياع، ومن هنا نتبين أن أنظار الإنجليز والفرنسيين على السواء أصبحت مركزة على مصر أكثر من العراق منذ بداية الأربعينيات من القرن التاسع عشر^(٣).

ولكن لماذا لم تسحب الحكومة الإنجليزية بواخرها الأربعة من المياه العراقية

(١) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٢٦٧، ٢٦٨.

(2) Hoskins. H.L: op-cit., p. 178.

(3) Ibid: p. 208-235.

بعد أن انسحب المصريون من الشام ومن شبه الجزيرة العربية إذا كانت الأهداف التي أرسلت من أجلها أهداف إستراتيجية؟ وللإجابة على هذا السؤال فإن الأمر يتطلب إلقاء نظرة على الأوضاع في الشرق الأدنى بين عامي ١٨٤١-١٨٤٢م فهناك ثلاثة مصالح بريطانية كانت تتطلب وجود البواخر الأربعة في المياه العراقية حتى عام ١٨٤٢م، ففي عام ١٨٤١م كانت هناك مفاوضات تشغل الدبلوماسيين الإنجليز والفرس لتسوية الأزمة التي تولدت عن الحملة الإنجليزية على الأهواز (١٨٣٧-١٨٣٨)^(١)، وكان غرض هذه المفاوضات أن يحصل الإنجليز على امتيازات مماثلة لتلك التي حصل عليها الروس في معاهدة تركمان جاي المعقودة بينهم وبين الفرس في عام ١٨٢٨م.

وفي نفس العام (١٨٤١م) كانت هناك مفاوضات هامة بين الباب العالي والحكومة الإنجليزية والفرنسية حول مستقبل الحكم في لبنان بعد انسحاب المصريين من الشام، وعَجَزَ العثمانيون عن إعادة حكمهم المباشر إلى جبل لبنان بسبب كراهية أهل المنطقة للحكم العثماني، ولأن الفرنسيين كانوا يقفون وراء الموارنة، بينما وقف الإنجليز وراء الدروز.

كذلك في نفس العام كانت هناك دعوة قوية تزعمها المستر فارن - قنصل بريطانيا في دمشق - تنادي بأن تمد بريطانيا سيطرتها إلى الساحل الإحسائي بين قطر وشط العرب، وأقام دعوته هذه على أساس أن الكويت مستقلة، وأن المصريين عندما وصلوا إلى الساحل الإحسائي كادوا يطردون الإنجليز من البحرين، وهددوا النفوذ البريطاني في المشيخات المتعاهدة مع انجلترا منذ سنة ١٨٢٠م، كما أن المصريين من مراكزهم في الكويت والساحل الإحسائي كادوا أن يكسبوا تأييد العراق الجنوبي بأسره إلى جانبهم.

وطالب فارن بأن يقوم الإنجليز بذلك الدور الذي قام به المصريون، والخطوة

(١) ويرجع سبب هذه الحملة إلى أن فارس كانت قد أغلقت باب التوسع صوب العراق منذ معاهدة أرضروم الأولى ١٨٢٣م، فالتجأت إلى التوسع صوب أفغانستان. واعتقد الإنجليز أن هذا التوسع يعد تهديداً مباشراً للهند خاصة وأن الإنجليز كانوا يعتقدون أن فارس ليست إلا مجرد توسع لروسيا، فأرسلوا حملة بحرية استولت على مدخل فارس من نواحي الأهواز. عبد العزيز سليمان نوار: المصالح البريطانية في أنهار العراق، ص ٥١.

الأولى في ذلك هي رفع يد السيادة العثمانية عن الكويت وعن الساحل الإحساني وإدخال هذه المنطقة في نطاق النفوذ الإنجليزي، خاصة أن السلطات العثمانية لم تفكر بعد انسحاب المصريين في القيام بتحرير مشيخات الخليج من النفوذ والسيطرة البريطانية.

ولكن منذ عام ١٨٤٢ م لم يعد الإنجليز بحاجة إلى الإبقاء على قوة بحرية بريطانية كبيرة في المياه العراقية أو في مصبات دجلة والفرات وكارون للمحافظة على النفوذ البريطاني في تلك الجهات؛ خاصة بعد أن تمت الموافقة من جانب الباب العالي وفرنسا على النظام الذي وضعه ستراتفورد كاننج السفير البريطاني في الأستانة سنة ١٨٤٢ م لحكم لبنان^(١)، وبعد أن عقدت المعاهدة الإنجليزية الفارسية في ١٨٤١ م^(٢).

وبالفعل صدرت الأوامر في ١٨٤٢ م من حكومة لندن إلى هنري رولنسون - القنصل البريطاني في بغداد - بأن يعمل على إرسال البواخر الأربعة إلى الهند حيث لم تعد هناك حاجة للإبقاء عليها في المياه العراقية الأمر الذي يؤكد أن الأهداف التي أرسلت من أجلها بعثة تشيزني كانت إستراتيجية أكثر منها تجارية، وفعلاً سحبت ثلاثة من هذه البواخر ولم تبقى إلا واحدة ظلت راسية بالقرب من المقيمة البريطانية، هي الباخرة نيتوكريس Nitocris التي ظلت في انتظار ورود الأوامر بسحبها.

والملاحظ أن ثلاثة^(٣) ممن كتبوا عن العراق في القرن التاسع عشر لم يتعرضوا لموضوع إرسال البواخر الثلاثة إلى العراق في أواخر عام ١٨٣٩ م إلا بإشارات طفيفة جداً، فيقول لونكريك Longrigg أن البواخر الأربعة وصلت إلى البصرة وظلت تدور في المياه العراقية لمدة سنة دون إعاقة بالرغم من عدم وصول فرمان، ثم وصل ذلك أخيراً في عام ١٨٤١ م وسمح بعد ذلك للمستمر لينش بتشغيل

(١) نص الاتفاقية في:

Hurewitz. J.C: op – cit, pp 124–125.

(٢) نص المعاهدة في. ١٢٤ - ١٢٣. Ibid, pp.

(٣) ونقصد بهم:

Hoskins. H.L: op.cit.,

Longrigg. S. H: op.cit.,

Zaki saleh: op.cit.,

باخرتين، وفي ١٨٤٢م أخذت ثلاث بواخر إلى الهند وبقيت نيتوكريس وحدها راسية بالقرب من المقيمة البريطانية^(١).

وما ذكره لونكريك هذا صورة من صور الكتابة التاريخية الملتوية التي دأب عليها كلما تعرض لموضوع يمس المصالح البريطانية، فهو لم يحاول أن يبين سبب إرسال تلك البواخر وإنما ذكر الواقعة هكذا، وكأنها أمرًا بسيطًا لا يكشف حقيقة الأهداف الإستراتيجية الكامنة وراء إرسال تلك البواخر الأربعة، ثم إن لونكريك يعترف بأن تلك البواخر إنما أرسلت إلى المياه العراقية دون موافقة مسبقة..

بينما ذكر هوسكنز أن القصد من إرسال البواخر الثلاثة كان تقوية النفوذ البريطاني في العراق، وأشار إلى أن هنري لينش، قائد الأسطول البريطاني في المياه العراقية كان ينقل إحصائيات عن القوات المسلحة المصرية في شبه الجزيرة العربية إلى المسؤولين البريطانيين سنة ١٨٤٠م في الوقت الذي تأزمت فيه العلاقات الإنجليزية الفرنسية بسبب مستقبل الوحدة بين مصر والشام تحت حكم محمد علي.

هذا إلى أن هوسكنز يقول كذلك إن الغرض من وراء إرسال تلك البواخر الثلاثة هو نقل البريد والبضائع والمسافرين^(٢)، وهو غرض تافه إلى جانب تلك الأغراض الإستراتيجية بل إننا نلاحظ أن تلك البواخر لم تقم بأي أعمال تجارية، كما أن نقل البريد الهندي عبر العراق لم يكن في حاجة إلى وجود تلك البواخر المسلحة في المياه العراقية، كما أن الباخرتين من خلال الوصف الذي قدمه هوسكنز نفسه لا يصلحان لنقل المسافرين فقد وصفهما بأنهما قاربان مسلحان^(٣)، ومن خلال متابعة الأعمال التي قامت بها البواخر يتبين لنا أنها لم تقم بعمليات نقل للمسافرين على نطاق واسع بل إن طريق العراق كان قد استبعد كطريق لنقل المسافرين وفضل الإنجليز منذ عام ١٨٤١م طريق مصر عليه، أما الدكتور زكي صالح فكان أول من نبه إلى الدور الاستراتيجي للملاحة البخارية في أنهار العراق^(٤).

(1) Longrigg, S. h: Op.-cit., p 279.

(2) Hoskins. H.L: Op.-cit., p. 181.

(3) Ibid , p 211.

(4) Zaki saleh: op.-cit., p 45, 46.

الصراع المصري العثماني وتنشيط التنافس الأجنبي في العراق

لم يكن التنافس عبر مد خطوط الملاحة في العراق هو الميدان الوحيد الذي تنافس فيه العثمانيون والإنجليز والفرنسيون من أجل السيطرة على خطوط المواصلات العالمية، فقد احتدمت المنافسات حول مد خطوط السكك الحديدية عبر العراق بدرجة لا تقل عن احتدام المنافسات حول مشروعات الملاحة البخارية فيه.

وأسهمت الأوضاع السياسية في وسط آسيا والشرق الأدنى في تقوية رغبة الإنجليز لأجل مد خطوط حديدية عبر العراق، حيث أدت التطورات في الخليج وفي أفغانستان إلى أن ترسل بريطانيا حملة ضد فارس في أعقاب تدخلها في أمور أفغانستان بشكل يهدد النفوذ البريطاني في تلك المنطقة الحساسة بالنسبة للإمبراطورية البريطانية في الهند، وذلك في عام ١٨٣٧م، وكان لهذه الحملة أثرها الكبير في أن يضطر شاه فارس إلى أن يتخلى عن مشروعاته التوسعية في وسط آسيا، لكن هذه الحملة كان لها دورها الكبير في إبراز أهمية استخدام السكك الحديدية في العراق، ويرجع التفكير في هذا المشروع إلى عام ١٨٤٠م^(١)، حيث صاحب هذه المشروعات مشروع مد خط تلغراف بين أوروبا والهند عبر العراق على طول خط السكك الحديدية، ولكي ينجح هذا المشروع كان لابد من الحصول على موافقة حكومتي لندن والآستانة على المشروعين معاً، وعلى موافقة السلطان على ضمان رأس مال الشركة التي ستقوم بتنفيذ المشروع.

واحتدمت المنافسات الدولية على هذه المشروعات حينما تقدمت شركة فرنسية

(١) عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق، ص ٣٩٩.

بمشروع يعارض المشروع الإنجليزي دون أن تتمسك بالحصول على ضمان السلطان لرأسمالها، ودارت المفاوضات بين فرنسا وإنجلترا لتسوية المنافسة بينهما، وانتهت هذه المفاوضات إلى ضرورة مد خط برقي عبر العراق تقوم الدولة العثمانية بنفقاته وتقوم الحكومة البريطانية بتقديم المساعدات الفنية.

وفي عام ١٨٤٣م قام ألكسندر كامبل Alexander Campbell بوضع مشروع خط سكك حديد بغداد، وشجعت شركة الهند الشرقية على وضع الخرائط اللازمة لذلك، وأكمل جون رايت Jonn Right ما بدأه ألكسندر كامبل وأتم في عام ١٨٤٩م رسم خرائط المشروع لكنه لم يوفق إلى بدء العمل فيه، واستمرت الجهود لإنشاء مشروع خط حديدي عبر العراق، ولكن مميزات الطريق البديل عبر مصر التي تدعمت بإنشاء الخطوط الحديدية المصرية عام ١٨٥٨م، وافتتاح قناة السويس رسميًا للملاحة عام ١٨٦٩م، قد حال دون تنفيذ مشروع خط حديد بغداد.

ففي عام ١٨٥٤م صدر امتياز قناة السويس الفرنسي، ولم يصدر امتياز خط حديد بغداد الإنجليزي، ويرجع سبب ذلك إلى أن حكومة بامستون كانت تعارض مد أي من الخطوط الحديدية العالمية السريعة سواء في العراق أو في مصر، وافتتحت قناة السويس للملاحة عام ١٨٦٩م فكان ذلك تحولاً حاسماً في التاريخ، إذ تحولت إلى الطريق الرئيسي الذي يربط بين الشرق والغرب، ولم تستطع المجهودات التي بذلها والي العراق مدحت باشا إلى أن ترفع العراق إلى مستوى المنافسة الحقيقية لقناة السويس، التي جعلت من مصر هدفاً للاستعمار البريطاني للسيطرة على هذا الممر المائي العظيم، فأسرعت إلى ضرب الثورة العراقية واحتلال مصر ١٨٨٢م.

ومن ثم أصبح من مصلحة البريطانيين ألا تنفذ أية مشروعات في العراق حتى لا تنادد قناة السويس، ليظل موضوع استخدام العراق كخط للمواصلات العالمية راکداً حتى أثارته ألمانيا فيما عرف باسم خط حديد بغداد من الأناضول إلى الخليج^(١)، وعارضته الحكومة البريطانية فلم يتم منه زمن الحكم العثماني سوى الخط الموصل بين بغداد وسامراء، وقد أثار مشروع خط حديد بغداد أزمات دولية

(١) خالد بن حمود السعدون: سير العمل في إنشاء سكة حديد برلين - بغداد ١٩٠٨-١٩١٤، مجلة الدارة، العدد الرابع، السنة ٣٥، (١٤٣٠هـ)، ص ١١٥ وما بعدها.

كبرى منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى واحتلال العراق ١٩١٤-١٩١٧ م.

وتلى ذلك الاهتمام بالاتصالات البرقية منذ عام ١٨٦٠ م حيث تم الربط تلغرافياً بين إسطنبول وبغداد، بخط برقي قامت الدولة العثمانية بنفقته، وقدمت الحكومة البريطانية المساعدات الفنية لها، وذلك عام ١٨٦٣ م^(١). وأصبح العراق هو الرابطة بواسطة الخطوط البرقية بين الشرق والغرب.

وهكذا استخدمت البواخر والمواصلات البرقية في العراق دون السكك الحديدية، وكانت البواخر تستخدم على النطاق المحلي في العراق لا للربط بين الشرق والغرب، وبقيت خطوط المواصلات البرقية الوسيلة الوحيدة للربط بين الشرق والغرب عبر العراق^(٢).

وكانت خطوط السكك الحديدية وخطوط التلغراف والاتصالات البرقية من الأنشطة التي احتدمت فيها المنافسات الأجنبية في العراق أثناء وفي أعقاب أزمة الصراع المصري العثماني كنتيجة من نتائج التوسع المصري في الشام، الذي نبه إلى أهمية العراق للربط بين أوروبا والشرق الأقصى، ومن ثم احتدم التنافس الأجنبي في هذه المجالات الثلاثة في العراق الذي كان لا يزال أرضاً بكرًا لمثل هذه المشروعات.

(1) Hoskins. H.L.: Op.-cit., pp. 367-376.

(2) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٢٧٨-٢٨٠.

الصراع المصري العثماني والإرساليات التبشيرية في العراق

كذلك لعب الصراع المصري العثماني في ثلاثينيات القرن التاسع عشر دورًا بارزًا في نمو الإرساليات التبشيرية في العراق، فقد أدى الحكم المصري المستقر في الشام إلى انتشار الأمن في ربوعه، وبالتالي أدى إلى خلق المناخ المناسب لنمو الإرساليات التبشيرية.

فمنذ بداية الحملة المصرية وجه إبراهيم باشا بيانا إلى السلطات المدنية والدينية في الشام يطالبها برفع القيود عن اليهود والمسيحيين المقيمين في البلاد والزوار الأجانب، الأمر الذي فتح البلاد أمام الأوروبيين، مما أدى إلى تدفق الرحالة الأجانب والحجاج والمبشرين والتجار والمبعوثين الدوليين الدبلوماسيين، إذ إن تحسن ظروف الأمن في عهد إبراهيم باشا، وتطوير وسائل المواصلات، وإلغاء الرسوم على الحجاج الوافدين، وتحسين معاملتهم زاد من عدد زوار البلاد، ووجد المبشرون الذين زاروا الشام في العراق المجاور أرضًا بكرًا للتبشير، لأن العراق يموج بتنوع بشري وديني ففيه العصبية الكردية، والعشائر العربية، ويوجد به طوائف دينية متعددة، فإلى جانب المسلمين السنة والشيعة^(١) يوجد اليهود،

(١) غالبية سكان العراق قسمة ما بين السنة والشيعة، فالمنطقة الممتدة من بغداد إلى أقصى شمال العراق تدين غالبًا بالمذهب السني، أما العشائر العربية جنوبى بغداد حتى شط العرب والخليج العربي باستثناء البصرة والزبير يغلب عليها المذهب الشيعي الإثنى عشري الذي يسلسل الإمامة ابتداء من علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى الإمام المهدي الذي اختفى في سامراء، والذي ينتظرون عودته ليملا الأرض عدلاً. عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العرب الحديث، ص ١٦. ومن أشهر العشائر العربية شيعية المذهب الخزاعل وبني لام، وكانت تقوم بالثورة كلما نشبت الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الفارسية، وتعد هذه الثورات العشائرية ذات الصفة المذهبية السمة الأكثر بروزًا في تاريخ العراق خاصة أثناء وعقب الغزوات الفارسية. عبد العزيز سليمان نوار: داوود باشا، ص ١١٢.

والمسيحيين، الذين تعددت مذاهبهم، فإلى جانب الكاثوليك والبروتستانت يوجد اليعاقبة أو السريان الغربيون، والنساطرة، والكلدان^(١)، والأرمن، كما وجدت طوائف دينية أخرى غير كتابية كالصابئة، وغيرها.

ولا مرية في أن الصراع المصري العثماني كان نقطة تحول ليس في تاريخ مصر فحسب، وإنما في تاريخ المشرق العربي، والعراق بصفة خاصة، وذلك لأنه بسبب التوسع المصري في بلاد الشام وما تلاه أصبح العراق متورطاً في السياسات الدولية في العصر الحديث، ولقد كانت النتيجة البارزة أن فُتح العراق أمام الأوروبيين بفضل جهود إبراهيم باشا في الشام، كما ذكرنا.

فمن المؤكد أن استقرار أحوال بلاد الشام وانتشار الأمن في ربوعها في ظل الحكم المصري منذ بداية الحملة المصرية، قد سر الدول الأوروبية من هذا التسامح الديني، الذي أتاح لها الفرصة لإرسال بعثات تبشيرية تنصيرية، فشهدت بلاد الشام نشاطاً تبشيراً مكثفاً يعمل بصورة مكشوفة تحت الحكم المصري، وانعكس بالتالي على النشاط التبشيري في العراق فازدادت حدته، ونشط بصورة مكثفة تأخذ صفة التنافس بين الكنائس المسيحية بهدف ضم مسيحيو العراق والشام إلى المذاهب الغربية، وبصفة خاصة المذهب الكاثوليكي والبروتستانتي، فقد جعل الصراع المصري العثماني العراق أرضاً خصبة للإرساليات التبشيرية من مختلف الكنائس المسيحية.

(١) هؤلاء خرجوا عن المذهب النسطوري، ولغتهم وطقوسهم باللغة الكلدية، وهم في نظر الرحالة الفرنسي أوبر OPPER من أشد الطوائف المسيحية جهالة. إلهام محمد علي ذهني: مرجع سابق، ص ٩٩.

البعثات التبشيرية التنصيرية الفرنسية في العراق

يعود النشاط التبشيري في العراق إلى مطلع العصر الحديث، والذي بدأ بالفتح العثماني له عام ١٥١٤م، إلا أنه كان ضعيفاً وغير ملحوظ إلى أن بدأت بذور التفرقة بين المسلم والمسيحي في العراق بصفة خاصة، والعالم الإسلامي بصفة عامة، عندما أصبحت الدولة العثمانية هدفاً للدول الاستعمارية الأوروبية، فأخذت هذه الدول تخلق أسباباً للتدخل في شئون الدولة العثمانية للحصول على موضع قدم فيها.

وكانت فرنسا أسبق الدول في الاهتمام بالنشاط التبشيري في العراق؛ فقد بدأ نشاطها في هذا الميدان مع الامتيازات التي حصلت عليها في عام ١٥٣٥م من الدولة العثمانية، تلك المعاهدة التي حصلوا بمقتضاها على حرية ممارسة الحملات التبشيرية وتنصير المسلمين وإقامة الأديرة في الولايات العثمانية خاصة في ولاية بغداد^(١)، واستمر عمل البعثات التنصيرية طوال القرن السابع عشر، وتزايد الاهتمام الفرنسي بالعراق في الربع الأخير منه عندما عين دير الكرملين بتي دي لاکرو Petit de la crois قنصلاً للفرنسيين في البصرة عام ١٦٧٩م، وكانت مهمته الرئيسية هي إقامة علاقات تجارية بين البلدين، ولكنه لم ينجح في مهمته؛ لأن حجم التجارة مع العراق ظل محدوداً.

ومع ذلك ظلت القنصلية الفرنسية في البصرة في أيدي رجال الدين حتى عام ١٧٣٩م، حيث عينت فرنسا مقيماً فرنسياً مدنياً في البصرة ليكون على دراية بالشئون التجارية؛ لأجل تنمية التجارة مع المنطقة، ولكن رغم محاولات فرنسا

(١) لمراجعة نص اتفاقية الامتيازات الفرنسية في الدولة العثمانية، والتي وقعت في فبراير ١٥٣٥م، يرجع إلى:

Hurewitz. J.C: op-cit, pp 1-4.

تنمية تجارتها مع العراق إلا أن بريطانيا كان لها نصيب الأسد في مجال التجارة؛ لأن المنسوجات البريطانية وغيرها من المنتجات كانت أكثر رواجًا بالإضافة لخبرة تجارتها بالأسواق الشرقية منذ فترة طويلة.

وفي عام ١٦٨٠م أرسل لويس الرابع عشر القنصل الفرنسي في حلب فرانسويكيه Francois Piquet للعمل كأسقف في بابل مُركزًا اهتمامه على تحويل المسيحيين في العراق إلى المذهب الكاثوليكي، وأراد جذب كل من السريان والكلدان والنساطرة والأرمن في ديار بكر وبابل إلى المسيحية، وقد تلقى فرانسو الدعم من بابوية روما من أجل إنجاح البعثة، وكذلك تلقى الدعم من جمعية البعثات الخارجية في فرنسا، وحاول توسيع دائرة نشاطه فأرسل البعثات إلى فارس وخاصة همدان^(١).

وشهد القرن الثامن عشر تنافسًا بين البعثات التنصيرية في العراق فلم تعد قاصرة على رجال الدين الفرنسيين وإنما شاركهم في هذا الميدان كل من البريطانيين والإيطاليين^(٢)، وتوثقت العلاقة بين الحكومة الفرنسية والآباء الكرملين، الذين كانوا يتولون الشؤون القنصلية الفرنسية في عام ١٧٣٩م، وهو العام الذي دخل بعده النشاط التجاري الفرنسي إلى البصرة عندما جلبوا معهم كميات كبيرة من الجوخ عن طريق موانئ الشام على البحر المتوسط وعينوا مقيمًا فرنسيًا في نفس العام، ورغم انتعاش نشاطهم التجاري إلا أنهم لم يهتموا بهذا الجانب وأهملوا مؤسساتهم التجارية إلى أن ترك المقيم الفرنسي البصرة عام ١٧٤٨م لتأخر مخصصاته، كما سبق أن ذكرنا.

وفي عام ١٧٥٥م أعاد الفرنسيون تعيين مقيم آخر كان اهتمامه السياسي أكبر من اهتمامه التجاري، واتسمت العلاقات بين الممثلين الفرنسيين والبريطانيين في البصرة بالود والصدافة إلى قيام حرب السنوات السبع بينهما (١٧٥٦-١٧٦٣) التي تكبدت فيها فرنسا خسائر فادحة وتنازلت عن مستعمراتها في الهند بموجب معاهدة باريس الموقعة بينهما في فبراير ١٧٦٣م^(٣).

(١) إلهام محمد علي ذهني: مرجع سابق، ص ٩٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦.

(٣) أحمد خليل عطوي: مرجع سابق، ص ٢٩.

وبزوال النفوذ الفرنسي من الهند توقف التنافس الذي انعكس أثره على الخليج والعراق أثناء حرب السنوات السبع، ولم يحاول الفرنسيون بعد ذلك أن يتصدوا للوجود البريطاني إلا عندما تجددت الحروب بينهما أثناء حرب الاستقلال الأمريكية، وبدأ النزاع بين روسيا وبريطانيا وفرنسا حول الدولة العثمانية عندما أرسلت فرنسا حملتها على مصر عام ١٧٩٨م، ولما فشلت هذه الحملة وفشلت جهود نابليون في تكوين إمبراطورية فرنسية تنافس الإمبراطورية الاستعمارية الإنجليزية عني الفرنسيون بمجالات أخرى من النشاطات المعادية للإنجليز مثل النشاط الديني والاقتصادي، وكانت البعثات التبشيرية الكاثوليكية واحدة من تلك النشاطات الفرنسية.

حقيقة بدأ الفرنسيون نشاطهم التبشيري في العراق منذ أوائل العهد العثماني، إلا أنه لم يكن يلفت نظر الحكومة العثمانية، لأن مهمة هؤلاء المبشرين الكاثوليك قد انحصرت في تحويل أكبر عدد من طوائف المسيحيين الموجودة في العراق إلى اعتناق المذهب الكاثوليكي، ونشط هؤلاء المبشرون بين اليعاقبة^(١)، أو السريان الغربيين فتحول جزء منهم إلى الكاثوليكية وعرف باسم السريان.

أما الأرمن الذين كانوا ينتشرون في شمال ووسط وجنوب العراق في كركوك وأربيل والموصل وماردين وبغداد والبصرة، ويتحدثون العربية والتركية والفارسية، وكان بعضهم يتحدث الإنجليزية والهندية والبرتغالية، ولهذا اشتغلوا أعوانا للمقيم البريطاني في بغداد كلوديوس جيمس ريج (١٨٠٨-١٨٢١)، ولهذا فقد تحول جزء كبير منهم إلى البروتستانتية، وكذلك تحولت مجموعة من النساطرة^(٢)، والكلدان

(١) نسبة إلى يعقوب، ونادوا بها نادى به النسطرة من حيث الأقانيم الثلاثة، إلا أنهم قالوا انقلبت الكلمة لحماً ودماً فصار الإله هو المسيح، وقد عُرفوا في العراق باسم السريان الغربيون، وكان كرسيم البطريك في الموصل. عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٣٠٢، عبد العزيز محمد الشناوي: مرجع سابق، ص ٨١٤.

(٢) لقد تعددت التفسيرات لأصولهم، فذهب رأي إلى أنهم أصحاب نسطور بطريك الإسكندرية الذي نادى بالطبيعة البشرية للمسيح عليه السلام. إلهام محمد علي ذهني: مرجع سابق، ص ٢٣٦. وذهب رأي آخر إلى أنهم أصحاب نسطور الذي ظهر في عهد الخليفة العباسي المأمون ونادى بأن الله واحد ذو أقانيم ثلاثة هي الوجود والعلم والحياة، وهذه الأقانيم ليست هي هو ولا هي زائدة على الذات. عبد العزيز سليمان نوار: داوود باشا، ص ١٣٢. بينما عدل الدكتور نوار عن هذا الرأي في موضع آخر فقال إن النسطرة هم أتباع نسطوريوس أسقف

إلى الكاثوليكية على يد المبشرين الفرنسيين الكاثوليك.

ولقد دار التنافس بين المبشرين الإنجليز والفرنسيين حول الطوائف التي لا تدين بالكاثوليكية، وخاصة النساطرة والكلدان والريان واليعاقبة، وهذا التنافس الإنجليزي الفرنسي في ميدان التبشير كانت تؤججه العوامل السياسية والإستراتيجية، وكان يزداد شدة كلما ارتفعت قيمة العراق في المجال الدولي.

واعتبر عهد المماليك في العراق فترة انتصارات متتالية لحركة التبشير الكاثوليكي بين مختلف الطوائف المسيحية في العراق، فقد كانت البعثة التبشيرية الكرملية، التي بدأ نشاطها منذ منتصف القرن الثامن عشر في العراق^(١)، والبعثة التبشيرية الدومينيكانية، التي ترجع إلى القرن الرابع عشر، والبعثة الكبوشية في الموصل وأسيا الصغرى، كلها كانت على جانب كبير من النشاط حتى اندلعت نيران الثورة الفرنسية وما أعقبها من حروب الثورة وحروب نابليون، فأهملت العناية بالحركة التبشيرية الكاثوليكية الفرنسية في العراق، وإن لم تخل المنطقة من وجود مبشرين ذوي نشاط كبير مثل Pierre A. Coupprie الذي توفي عام ١٨٣١م، والذي جاء بعده المبشر الفرنسي تريوش Triuch الخبير بأمور العراق، وكان تريوش أول رئيس أساقفة في العراق، وكان له أكبر الأثر في إحراز انتصارات كاثوليكية كبيرة هناك عقب نكسة حروب الثورة ونابليون؛ إذ دخل في الكاثوليكية عدد ليس بالقليل من النساطرة واليعاقبة والأرمن.

القسطنطينية عام ٤٢٨م الذي نادى بأن للمسيح طبيعتين إحداهما لاهوتية، والثانية ناسوتية. عبد العزيز سليمان نوار: «دور العراق العثماني في حرب القرم»، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ١٣ (١٩٦٧)، ص ٢٢٧. وكان أكثرية نصارى العراق من النساطرة، واستمروا متمسكين بمعتقداتهم دون أية اضطهادات حتى القرن التاسع عشر، وكان لهما بطريقتان إحداهما في ديار بكر، والثانية في منطقة جبال طياري، وكان للبطريرك سلطات مدنية واسعة إلى جانب سلطاته الدينية، وكانت الدولة العثمانية معترفة بذلك بل كانت ترحب بهذه الأوضاع، حيث كان هؤلاء البطارقة يتولون إدارة أتباعهم ويجمعون منهم الأموال الأميرية دون أن يكبدوا الدولة متاعب كثيرة، وقد تحولت مجموعة منهم إلى الكاثوليكية. عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٣٠٢.

(١) حيدر جاسم الرويعي: "نشاط الآباء الكرملين في العراق حتى الحرب العالمية الأولى"، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، المجلد الثامن، العدد ١-٢، (٢٠٠٥)، ص ١-١٧.

وقد خطا تريوش خطوات جريئة نحو السيطرة على الكلدان فأقنع البطريك القائم بالاستقالة، واستصدر قرارًا بتولية المطران يوسف من قبل بابا روما، في محاولة لبسط النفوذ البابوي ليقم سدًا منيعًا أمام البروتستانتية، الأمر الذي جعل البطريك المعزول يهيب معارضًا وربما كان للإنجليز دور في تشجيعه على المعارضة.

ويقال إن الكلدان كتبوا إلى البابا إن استمر في التدخل في شئونهم الداخلية وفي انتخاب البطريك، وإذا رفض اعتماد البطريك الذي انتخبوه فإنهم قد يلجأون إلى قطع علاقاتهم بالبابا، وإلى إعلان جماعتهم مستقلة بنفسها، ولكن تريوش كان عنيدًا فأقام حفل تنصيب المطران يوسف سرًا في يناير ١٨٤٨م فتسبب بذلك في تعكير صفو الجو بين الكلدان والفرنسيين^(١).

ولكن يبدو أن يوسف استطاع أن يكسب الكلدان بالسياسة والتودد، فتسبب في إشعار الإنجليز في العراق أن الفرنسيين سيكسبون هذه الجولة؛ فرفعوا المشكلة إلى الباب العالي الذي أرسل وجدي باشا للموصل لدراسة مشكلة انتخاب بطريك النساطرة، وشرع في إجراء مشاوراته مع رجال الدين المسيحي، ومع موظفي القنصلية البريطانية في الموصل سرًا دون علم الفرنسيين، وانتهى الرجل من مشاوراته إلى العمل على إعادة انتخاب بطريك آخر غير أولئك كلهم.

وكتب وجدي باشا إلى أسعد باشا - والي الموصل - بأن يستدعي أساقفة الجزيرة وماردين وديار بكر ليطلعهم على أوامر السلطان الخاصة بانتخاب بطريك جديد، وتم ذلك تحت إشراف الدولة العثمانية^(٢)، وكانت الدولة العثمانية تهدف إلى سلب الفرنسيين بعض أساليبهم في نشر المذهب الكاثوليكي الذي سيجلب وراءه نفوذًا أوروبيًا سيشكل خطرًا على البلاد، كما أن انتخاب بطريك تحت إشراف السلطات العثمانية يكفل لها - إلى حد ما - تقوية قبضتها على هذه الطوائف، وبثبت وجود السلطات العثمانية في هذا المجال الديني، ورحل تريوش عن العراق في عام

(١) عبد العزيز محمد الشناوي: مرجع سابق، ج ٢، ص ٨١٥، ٨١٦.

(2) Ross, H. J.: Letters from The East 1837-1857, Edited by his Wife (London: 1902), PP. 59, 135, 147.

١٨٥٠م ولم يعد إليه إلى أن توفي ١٨٨٧م^(١).

والحق إن وكلاء فرنسا السياسيين في بغداد والبصرة والموصل، قد اهتموا بنشر المذهب الكاثوليكي في العراق اهتمامًا فاق اهتمامهم بخدمة المصالح السياسية في هذا الإقليم، بل كانوا يعتقدون أن المصالح التنصيرية لفرنسا في العراق مرتبطة بمصالحها السياسية، وتنبهت الحكومة البريطانية لخطورة النشاط الفرنسي التنصيري، بعدما أثار قناصلها ومبشروها مخاوفها من احتمال سيطرة فرنسا على الشرق، وبدأوا يطالبون حكومة لندن بأن توثق علاقاتها مع مسيحي العراق، فقد كان المنصرون الإنجليز ومعهم القناصل يعتقدون أن كل موظف علماني فرنسي هو في ذات الوقت منصر كاثوليكي، وأنه عند انهيار الدولة العثمانية ستجد فرنسا في مسيحي العراق الكاثوليك ركيزة سياسية ودينية تساعد على بسط سيطرتها على أكبر رقعة من ممتلكات الدولة العثمانية.

وكانت خطة المسؤولين الفرنسيين تهدف إلى تحويل الأقليات المسيحية في العراق إلى الكاثوليكية وربط الكاثوليك فيها برباط التبعية المباشرة لبابا روما ولحكومة فرنسا، ولهذا كان اختيار تريوش لهذه المهمة دليلاً على أن الأهداف التي من أجلها أرسل كانت أهداف سياسية ودينية في آن واحد، إذ كان تريوش على علم واسع بأحوال العراق السياسية والاقتصادية فضلاً عن أحوال طوائفه الدينية، ولهذا لم يتوان الفرنسيون عن تزويده بصلاحيات دبلوماسية كبيرة، فمنح منصب قنصل فرنسا في العراق، كما حصل في نفس الوقت على منصب رئيس أساقفة، في دليل على أن الأهداف السياسية والدينية أصبحت تخدم أغراضاً واحدة، ولهذا رأيناه يضحى بأساليب الديمقراطية عندما تعارضت مع أهدافه وأطماع بلاده فسعى لاستصدار قرار بتولية مطران من قبل روما ضارباً بذلك عرض الحائط برغبات الكلدان، إذا كانت ستقف حجر عثرة أمام مشروعاته، الأمر الذي أدى إلى أن يثور عليه الكلدان فرأى المسئولون عن النشاط التبشيري الكاثوليكي في العراق أن بقاءه

(١) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٣٠٢-٣٠٤، إلهام محمد علي ذهني: مرجع سابق، ص ١٠٠، ١٠١.

سيزيد من تدهور الكاثوليك، ولهذا نجده يغادر العراق في سنة ١٨٥٠ م^(١). وبعد رحيل تريوش عن العراق تولى المبشرون الإيطاليون الدومنيكان في الموصل مهمة نشر المذهب الكاثوليكي فعملوا بحرية تامة في العراق، وحرصوا على تحويل أكبر عدد ممكن من مسيحي العراق إلى المذهب الكاثوليكي، وكان مرساي Merciai من أنشط أولئك المبشرين الناجحين خلال فترة ما بين عامي ١٨٤٠ - ١٨٥٦ م من حيث نجاحه في إدخال عدد كبير من اليعاقبة في الكاثوليكية، لكن مجهودات مرساي وجدت مقاومة عنيفة من المسلمين والمسيحيين، في الوقت الذي كسب فيه البروتستانت أنصارًا بين اليعاقبة، ولهذا لم يستطع الاستمرار في عمله لأجل تنصيرهم، وفشلت مجهوداته في النهاية بارتداد بعضهم مرة أخرى أو تحوله إلى البروتستانتية.

أدى ذلك إلى أن تُعيد الكنيسة الكاثوليكية في روما النظر في وسائل نشر الكاثوليكية في الشرق، فأصدر البابا بيوس التاسع (١٧٩٢-١٨٧٨) قرارًا بنقل قيادة البعثة التبشيرية الدومينيكانية إلى دومنيكان فرنسيين في ١٨٥٦ م، كذلك تنبّهت الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية إلى الكرملين في العراق بعد أن ظلت قيادتهم مهملة من جانب سلطات فرنسا الدينية حتى ١٨٥٨ م عندما عين فرنسي لقيادتهم بعدما كان يتولاها من قبل رؤساء دينيون غير فرنسيين.

(١) عبد العزيز سليمان نوار: «العراق وصراع بعثات التبشير»، مجلة الهلال، السنة ٧٣، العدد ٥، (١٩٦٥) ص ٢٩-٣٢.

البعثات التبشيرية التنصيرية البريطانية في العراق

بالرغم مما شهده العراق منذ القرن التاسع عشر من منافسة قوية بين المبشرين البروتستانت البريطانيين والأمريكان من ناحية، والمبشرين الكاثوليك الفرنسيين من ناحية أخرى، إلا أنه لم يشهد من النشاط التبشيري ما شهدته بلاد الشام في ظل الحكم المصري وما تلاه، ذلك أنه لم يحدث تنافس بريطاني فرنسي حول العراق بالدرجة التي كان عليها في مصر وإلى حد ما في بلاد الشام^(١)، إذ تركز النفوذ البريطاني حول خطوط المواصلات البخارية في أنهار العراق، مثلما سبق أن وضحنا، لأجل تسهيل الاتصال بالهند عبر بلاد الشام.

وجدير بالذكر أن العمل على جذب مسيحي العراق لم يقتصر على الفرنسيين والبريطانيين والأمريكان بل شاركهم العديد من الجنسيات الأخرى من الدومنيكان وإيطاليا، الأمر الذي شكل عقبة كبيرة أمام التبشير الكاثوليكي الفرنسي فلم يعمل بحرية تامة لجذب طوائف العراق المتعددة ما بين يعاقبة وسريان ونساطرة وكلدان وأرمن، فقد حرص الفرنسيون على الاتصال بهم وجذبهم، في الوقت الذي لم تتبهِ السلطات في العراق إلى هذا النشاط التنصيري الذي استمر مجالاً للتنافس بين المنصرين الإيطاليين والبريطانيين والفرنسيين والأمريكان^(٢).

إلا أن الحركة الكاثوليكية بدأت تصادف مقاومة فعالة بعدما التفتت السلطات الدينية الإنجليزية والأمريكية إلى أهمية تحويل مسيحي الشرق إلى المذهب البروتستانتي، وبدأ وصول المبشرين البروتستانت الإنجليز إلى العراق في نهاية

(١) عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون، (دمشق: ١٩٧٤)، ص ٥٥٣.

(٢) خالد حمود عبد الله السعدون: "المبشرون الأجانب وأنشطتهم في العراق"، مجلة الخليج العربي، المجلد ٣٥، العدد ١-٢، (٢٠٠٧)، ص ٩-٢٦.

العشرينيات من القرن التاسع عشر منذ نهاية حكم المماليك، وكانت قد أحرزت مقاومة كاثوليكية عنيفة في الشام لدرجة أزعجت السلطات البابوية في روما وطالبت مبشرها هناك بضرورة مضاعفة المجهودات لمقاومة النشاط البروتستانتي الأنجلو - أمريكي.

وقد ترتب على اهتمام البريطانيين بالملاحة البخارية أن ترك المجال للتبشير الكاثوليكي الفرنسي لينمو في العراق، ولما رأي الإنجليز أن النفوذ الفرنسي الديني هو المتبقي في العراق، فقد اتجهوا إلى أن يقوضوا هذه الدعامة الأخيرة فعملوا على أن يواجهوا هذا النفوذ الفرنسي الديني بنفوذ إنجليزي أيضاً، ولهذا أرسلوا المبشر جروفر وزوجته إلى العراق، وكلاهما بروتستانتي، ليقوما بحركة تبشيرية تعليمية واسعة النطاق في العراق وخارجه إن أمكن^(١)، فأسس جروفر مدرسة لتعليم الإنجليزية والعربية، وقام هو شخصياً بالتدريس فيها، وكان جروفر مضطراً لاستيراد الكتب المطبوعة باللغة العربية من مالطة^(٢)، ولكن هذه الكتب الأجنبية لقيت مقاومة في أوساط بغداد، ومن الكاثوليك أيضاً، فقام جروفر بإحضار آلة طباعة ليتخلص من هذه المشكلة، ووصلت البصرة فعلاً في ١٨٣٠ م، ولكن ظروف القتال بين داوود باشا والي بغداد وعلي رضا والي حلب الذي تولى مهمة القضاء على المماليك من العراق حالت دون إرسال المطبعة إلى بغداد^(٣).

وكان جروفر Groves أول مبشر بروتستانتي يصل إلى العراق ١٨٢٩ م^(٤) في

(١) عبد العزيز محمد الشناوي: مرجع سابق، ج ٢، ص ٨١٦.

(٢) جزيرة صغيرة لا يزيد طولها عن ٢٨ كيلومتر، وعرضها عن ١٦ كيلومتر، وهي ذات أهمية حربية عظيمة لوقوعها في منتصف البحر المتوسط بين جبل طارق والإسكندرية، ولأهمية مركزها تنازعها الأمم منذ التاريخ القديم، إلى أن وهبها إمبراطور ألمانيا شارلكان وملك أسبانيا في القرن السادس عشر لإحدى طوائف الرهبان وبقيت معهم حتى سنة ١٧٩٨ م إذ احتلها بونابرت أثناء حملته على مصر ثم دخلها الإنجليز ١٨٠٠ م وثبتت معاهدة فيينا ١٨١٥ م أقدامهم فيها، حتى أصبحت أهم نقطتهم الحربية الواقعة على طريق الهند. محمد فريد بك: البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية، تحرير ودراسة: أحمد زكريا الشلق، (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٥)، ص ٢٣٦.

(٣) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٣٠٤ - ٣٠٩.

(٤) عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق، ص ٣٩٦.

نهاية حكم داوود باشا في العراق، فلم يُقابل وصوله بأي اعتراض من قبل السلطات الحاكمة ولا من جانب الهيئات الشيعية، فقام بمجهودات واسعة شملت البصرة وبغداد والموصل، وهي معاقل الكاثوليكية في العراق، ووجد من السلطات العثمانية الحاكمة في العراق تسامحاً دينياً، إذ سمحت له بفتح مدرسة بروتستانتية في بغداد، وأخرى في الموصل، كما سمحت له ببيع الإنجيل، وعقد اجتماعات دينية في حرية تامة، ولكن سرعان ما اشتبك جروفز مع رجال الدين الكاثوليكي في العراق متهمًا إياهم بالتعاون مع بعض الشيوخ المسلمين في عرقلة نشاطه، وأخذ يشوه سمعة الكاثوليك فكان يردد أن الفرنسيين هم أعداء المسلمين الحقيقيين، ولكنه لم يستطع أن يتابع نشاطه حيث داهمته حروب داوود مع السلطان وكوارث ١٨٣٠ - ١٨٣١ م من الطاعون والفيضان اللذين دمرتا البلاد فاضطر إلى مغادرة العراق إلى الهند في ١٨٣٢ م^(١).

جاءت مغادرة جروفز العراق في وقت كان يتطلب إرسال المزيد من المبشرين البروتستانت لخلق جماعات بروتستانتية تعتمد عليها بريطانيا في الدفاع عن مشروعاتها الاستعمارية، بعدما أصبح العراق على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لبريطانيا في أعقاب سيطرة القوات المصرية على الشام، فعملت بريطانيا طبقاً لهذه الأوضاع الجديدة على أن تضع يدها على خط المواصلات الثاني الذي يربط الشرق بالغرب عبر العراق، وذلك قبل أن يجمع العراق كلمته بالانضمام إلى مصر، بل عملت بريطانيا على جعل العراق قاعدة لتقويض تلك الوحدة التي قامت بين مصر والشام والسودان وشبه الجزيرة العربية، ولذلك أرسلت، مثلما سبق أن أوضحنا، بقطع من أسطولها مسلحة إلى أنهار العراق تحت ستار نقل البريد والتجارة والمسافرين، بينما كان هدفها الأسمى هو منع الاتصال بين مصر والعراق والحيلولة دون امتداد السيطرة المصرية إلى العراق.

وبينما كانت بعثة تشيزني تهبط الفرات صوب البصرة كان المبشر الإنجليزي البروتستانتي صموئيل Samuel ينزل في البصرة من الباخرة البريطانية الهالاند

(١) عبد العزيز سليمان نوار: «التبشير البروتستانتي في العراق»، مجلة الهلال، السنة ٧٣، العدد ٦، (١٩٦٥) ص ١٤

ساي Hugh Lindsay، وبدأ نشاطه أولاً في البصرة ثم انتقل إلى بغداد، وقام بتوزيع كتبه المسيحية في الأسواق والطرق على المسلمين والمسيحيين واليهود، وأخذ يحدث ويجادل في العقائد في صلف وبدون لياقة، فاستشاط المسلمون غضباً، واكفهر الجو في بغداد في ظروف حرجة، الأمر الذي دفع السلطات البريطانية إلى أن تسارع في إخراجه بسرعة من العراق حتى لا يثير فتنه هناك في الوقت الذي كانت فيه بعثة الفرات تباشر نشاطها، وتمخر بواخرها عُباب الفرات، وتصوب مدافعها إلى بعض العشائر العربية.

ولهذا من الممكن أن نربط بين الصعوبات التي تعرضت لها بعثة الفرات في جنوب العراق، وبين مجيء المبشر صموئيل الذي تسبب تحمسه الزائد في وقت وصول البعثة إلى اعتقاد الناس أنه جزء من خطة عامة لاحتلال البلاد الإسلامية وتحويل المسلمين إلى مسيحيين^(١).

وهنا أدرك المسئولون الإنجليز في العراق خطورة هذا الاتجاه الذي ربما يؤدي إلى حركة عامة في العراق ضدهم، قد تؤدي إلى انهيار الخطط البريطانية في المنطقة جملة وتفصيلاً، وهنا عمل الإنجليز على جعل المشكلة عبارة عن مشكلة فردية تتعلق بشخص صموئيل وسلوكه، وألقوا عليه اللوم وأسرعوا بإخراجه من البلاد، ولكن رحيل صموئيل لم يؤد إلى توقف النشاط التبشيري البريطاني البروتستانتي، ذلك أن مخاوف بريطانيا من امتداد السيطرة المصرية إلى العراق جعلها تسعى جاهدة لبذر الخلاف بين المسيحيين في العراق؛ لأجل أن تجد قوة تعتمد عليها؛ إذا ما اضطرتها الظروف لاستخدام القوة ضد محمد علي؛ إذا ما فكر في ضم العراق، فلم يكدر يحل صموئيل حتى أرسل مبشراً آخر ليبدأ من حيث انتهى، وليصحح بعض أخطائه، وليقوم بمجهودات أكثر خطورة على كيان البلاد في زمن تسابق فيه المبشرون البروتستانت والكاثوليك لأجل تحقيق الأطماع الاستعمارية لكل من فرنسا وبريطانيا.

وفي الوقت الذي كان المبشر الإنجليزي البروتستانتي صموئيل يقوم بمجهوداته

(١) عبد العزيز سليمان نوار: التبشير البروتستانتي في العراق، ص ١٥.

في العراق، كان المبشر الأمريكي البروتستانتي جرانت Grant في طريقه إلى العراق من الولايات المتحدة الأمريكية فوصل العراق في صيف ١٨٣٩ م وفي برنامجته تحويل نساطرة العراق إلى البروتستانتية، وعندما وصل جرانت إلى ماردين في شمال العراق وجد أن أهلها قد ضاقوا ذرعًا بأعمال بعثة التبشير الأمريكية التي كانت مستقرة هناك وهاجموا مقرها، ففضل أن يذهب إلى ديار بكر فوجد روح العداء فيها للأوروبيين لا تقل عنها في ماردين، ويرجع ذلك على حد قول جرانت نفسه إلى أن المسلمين كانوا يعتقدون أن كارثة نصيبين، يرجع سببها إلى النظم الأوروبية التي سار عليها العثمانيون في تنظيم جيوشهم، وساد الاعتقاد بأن الأوروبيين لا يسعون إلا لأن يُفني المسلمون بعضهم بعضًا حتى يسود الأوروبيون بلاد الشرق الإسلامي. فاضطر جرانت إلى أن يغادر ديار بكر إلى الموصل التي وجد أن النساطرة فيها قد تحولوا إلى المذهب الكاثوليكي، فانتقل إلى نساطرة الجبال الكردية في بلاد تباري وتكوما الذين لم يتحولوا إلى المذهب الكاثوليكي لأجل تحويلهم إلى المذهب البروتستانتي، فقام بينهم واعظًا وطبيبًا يداوي مرضاهم، وربطت بينه وبين بطريكرهم صداقة قوية خاصة بعدما أخبره جرانت بقرب احتلال الدول الأوروبية للدولة العثمانية، لأنه شعر بأن النساطرة يتطلعون إلى اليوم الذي تستولي فيه الدول الأوروبية على ممتلكات الدولة العثمانية^(١).

كذلك اهتمت بعثات التبشير الأمريكية بالكلدان وفتحت مدارس لتعليمهم، وأحضرت مطبعة طبعت كتب تعليمية دينية بلغتهم الكلدية، كما اهتمت بعثات التبشير الأمريكية بالموصل فأقام بها المبشر الأمريكي الدكتور حزقيل وزوجته حيث شيد بها مدرسة، ثم غادرها في ديسمبر ١٨٦٤ م^(٢).

ونظرًا لأن الإنجليز كانوا في حاجة إلى قوى بروتستانتية متعددة لمواجهة النشاط الكاثوليكي المتزايد في العراق ولمواجهة الدعاية المصرية بين أهله، كانوا يرحبون بمقدم المبشرين البروتستانت سواء بريطانيين أو أمريكيين، وكانوا يُعينونهم

(١) عبد العزيز محمد الشناوي: مرجع سابق، ج ٢، ص ٨١٧.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٣٠٩ - ٣١٤، إلهام محمد علي ذهني: مرجع سابق، ص ١٠٢، ١٠٣.

على القيام بأعمالهم ويحمونهم، خاصة أنهم لم يجدوا في النشاط الأمريكي أي خطورة على مصالحهم، فسعوا إلى الاستفادة منه إلى درجة بعيدة؛ حيث رأت فيه السلطات البريطانية نشاط تبشيري بروتستانتى يعينها على وقف نمو النشاط التبشيري الكاثوليكي الفرنسي^(١).

ولا شك أن البعثات التنصيرية كانت تقوم بجانب العملية التنصيرية بتقديم خدمات طبية إلى السكان، وفتحت بعض المدارس وأحضرت مطابع طبعت كتب تعليمية قيمة باللغة العربية، وأوجدت مؤسسات دينية مسيحية تعليمية يديرها المنصرون، وكانت رسالتها في الظاهر تعليم اللغة العربية، وإحدى اللغتين الفرنسية أو الإنجليزية، وقلة من المواد الثقافية، ولكنها كانت في الحقيقة ركيزة للتنصير.

ولقد كان موقف السلطات العثمانية، عندما اشتدت الأزمة في الشام بين السلطان ومحمد علي، من المسيحيين ذي دلالات كبيرة، فقد تمتع مسيحيو العراق بمعاملة أحسن بكثير من أي معاملة عوملوا بها في أية ولاية من ولايات الدولة العثمانية فيما عدا مصر، فقد تمتع المسيحيون واليهود في العراق^(٢) بامتيازات لم يتمتع بها إخوانهم في الدين في الولايات العثمانية الأخرى، فلم تفرض عليهم سوى ضريبة واحدة، هي ضريبة الخراج السنوية التي لم يدفعها إلا الذكور البالغون، كما أعفوا من الجندية، وغيرها من الأعباء، الأمر الذي يدفعنا إلى القول بأن الأعباء التي كانت

(١) عبد العزيز سليمان نوار: التبشير البروتستانتى في العراق، ص ١٦.

(٢) كان اليهود في العراق في العهد العثماني يتشرون في كافة مدنه، وبلغ عددهم في مطلع القرن التاسع عشر ببغداد حوالي ٢٥٠٠ أسرة يهودية تبلغ زهاء ٨٠ ألف نسمة، وبالسليمانية حوالي ١٨٠٠ نسمة، وماردين حوالي ٨٠٠ نسمة، وكانوا يعيشون في أحياء خاصة بهم شأنهم في ذلك شأن كافة اليهود في الشرق وفي أوروبا، وكانت أحيائهم تنتهى القذارة، حتى إنه ليقال إن أول إصابة بالطاعون عام ١٨٣٠م ظهرت في حيهم القذر، وكانوا يتحدثون العربية، ويكتبون العبرية، واشتغلوا في العمليات المصرفية والتجارية ولكن تصرفاتهم لم تكن مثالا للأمانة، فدبروا المؤامرات السياسية، وقاموا بغش النقود، وتعاونوا مع المقيمين البريطانيين فأمدوهم بالإحصائيات عن دخول المدن الهامة في العراق. عبد العزيز محمد الشناوي: مرجع سابق، ج ٢، ص ٨١٩. ولكنهم رغم ذلك تمتعوا بحرية دينية حتى تعرضوا لجهود تبشيرية في القرن التاسع عشر يقصد تحويلهم إلى المسيحية، ولكن دون جدوى، وظلوا يعيشون حياتهم دون أزمات كبيرة حتى جاء الأوروبيون بفكرة حمايتهم، وحتى ظهرت الحركة الصهيونية. عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العرب، ص ٢٣.

ملقاة على كاهل المسلمين كانت أضعاف ما كان ملقى على كاهل المسيحيين، فقد عاش المسيحي إلى جوار المسلم في العراق في هدوء، هذا فضلاً عن النشاط التجاري الكبير الذي كان يقوم به المسيحيون، كذلك أسهم مسيحيو العراق على اختلاف طوائفهم في النهضة الأدبية في العراق وبرز منهم البطريك السرياني أغناطيوس ميخائيل المتوفي ١٨٠٠م، والبطريك الكلداني يوحنا هرمزد المتوفي ١٨٣٨م، والأب الكلداني دنبو المتوفي ١٨٣٢م^(١)، وغيرهم.

ويبدو أن السبب الذي جعل الحكومة العثمانية تتساهل تجاه طوائف العراق غير المسلمة، وتجاه شيعة العراق، هو خشيتها من الدعاية التي كان يثبها محمد علي في أوساطهم، وبصفة خاصة بين الشيعة والمسيحيين، فكانت رسائل محمد علي تأتي تباعاً إلى بغداد والبصرة وكربلاء والنجف، وبعض العشائر العراقية؛ في الوقت الذي تؤكد الوثائق أن الشعب العراقي قد توفر لديه الميل لتقبل الإدارة المصرية^(٢)، ومعنى هذا أن الحكومة العثمانية لم تعد تحذر من الدعاية الفارسية أو المبشرين الأوروبيين بمقدار ما كانت تحذر من الدعاية المصرية، وعندما زال الخطر المصري، بدأت تستشعر خطورة موقفها السلبي من بعثات التبشير الأوروبية على المجتمع العراقي، وما ترتب عليها من تفكك أواصر الروابط الاجتماعية بين طوائفه فعملت على التصدي لها، ولكن بعد فوات الأوان.

كذلك مثل يهود العراق مجالاً للتنافس البريطاني الفرنسي السياسي والتبشيري على السواء، وكان ذلك نتيجة لما لا قوه من ضغط عليهم بسبب سوء سلوكهم وكثرة تآمراتهم على الولاة، خاصة في عهد المماليك، فقد دبروا مؤامرة أظهرت سعيد باشا والي بغداد (١٨١٣-١٨١٦) على أنه خارج على السلطان، وتحالفوا مع الوكيل السياسي البريطاني في بغداد ريج، ضد داوود باشا والي بغداد (١٨١٧-١٨٣١)، وكان اليهود يرحبون بأن يكونوا تحت حماية أية دولة أوروبية حتى يحصلوا على امتيازات أكثر، لذلك كان من السهل على فونتانييه القنصل الفرنسي أن يجد بين

(١) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٣١٥ - ٣١٦.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الشام: محفظة ٦٨، وثيقة ١٩٨، غاية المحرم ١٢٤٨هـ / ٢٩ يونيو

اليهود من يدخل تحت حمايته ليثبت للإنجليز أن الفرنسيين مرغوب فيهم في العراق مثلهم مثل الإنجليز تمامًا.

وبعد رحيل فونتانييه عن العراق هدأت المنافسة الفرنسية في ميدان كسب الأعداء، بينما نشطت المجهودات البريطانية بصورة قوية، فقد بدأت عملية تبشير بين اليهود تولتها جمعيات بروتستانتية، وأسندت هذه المهمة في البداية إلى المبشر البروتستانتي صموئيل الذي تحول عن اليهودية إلى المسيحية، فقدم إلى البصرة سنة ١٨٣٦م وفيها اصطدم مع كبار رجال الدين اليهودي في المعهد اليهودي، فاضطر إلى ترك البصرة إلى بغداد وفيها لقي أذى من اليهود أكثر مما لقي منهم في البصرة، وقامت فتنة شديدة في بغداد بسبب نشاطه المحموم بين اليهود والمسلمين، فاجتمعت عليه نقمة المسلمين واليهود معًا، وعلم باشا بغداد أن اليهود يبيتون خطة لاغتياله ففضل الباشا إبعاد صموئيل عن العراق بسرعة.

ولم يحل فشل مجهودات صموئيل بين يهود العراق دون استمرار المحاولات لأجل تحويلهم إلى المسيحية على يد عدد من المبشرين البولنديين كانوا قد تحولوا من اليهودية إلى المسيحية، وعلى أيديهم أحرز التبشير بين اليهود بعض النجاح^(١) بفضل الجمعية التي كونوها لتشرف على عمليات تنصير اليهود وأطلق عليها «جمعية هداية اليهود إلى المسيحية Society of the conversion of the Jews»^(٢).

كذلك كانت طائفة الصابئة^(٣) مجالاً للتنافس البريطاني الفرنسي السياسي

(١) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٣١٧.

(٢) عبد العزيز محمد الشناوي: مرجع سابق، ج ٢، ص ٨٢٠، ٨٢١.

(٣) يرى رأي أنهم طائفة أقرب إلى المسيحية، حيث يعتقدون أن عيسى عليه السلام خليفة ليوحنا المعمدان نبهم، ومن المعتقد أنهم طائفة من اليهودية وتبعوا يوحنا المعمدان، ثم هاجروا إلى الأردن، ثم إلى العراق، ولهم عادات وتقاليد خاصة بهم كالسكنى على ضفاف الأنهار للتعتمد في الماء الجاري. عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٣١٨. بينما يذهب رأي آخر إلى أنهم يعبدون الكواكب والنجوم، وكان مقرهم في العصر العثماني «سوق الشيخ» على نهر الفرات والناصرية والعمارة وقلعة صالح، ويقيم رئيسهم الديني الذي يطلق عليه القارئ عادة في سوق الشيخ، ولغتهم العربية ضعيفة، ويطبق رجالهم لحاهم حتى تطول، وهم بارعون في تشكيل الذهب والفضة، وبناء القوارب وأعمال التجارة، والتعميد هو أحد طقوسهم الدينية، ويدخل الماء في جميع شعائهم الدينية، وليس من عاداتهم الختان، ولا يتزوج الزوج إلا إذا ثبت أن زوجته الأولى عاقر. عبد العزيز محمد الشناوي: مرجع سابق، ج ٢، ص ٨١٨.

والتبشيري على السواء، فحاولت كلتا الدولتين أن تبسط حمايتها عليهما، وكان تشيزني أول من نبه أذهان الأوروبيين إلى الصابئة، حينما كتب عنهم في مؤلفاته، ومن ثم بدأ يتوافد عليهم الرحالة والمبشرون لدراسة أحوالهم، وأخذت السياسة البريطانية تهتم بهم وتسعى لكسبهم إلى جانبها، وقامت منافسة بين كل من تيلور وفونتاينييه لأجل بسط الحماية عليهما، ولكنها على أية حال كانت منافسة مؤقتة، إذ نجح الإنجليز في استصدار فرمان بحمايتهم، وازدادت علاقة الصابئة بالإنجليز بمرور الوقت، وخاصة عندما ظهرت شخصية يحيى شيخ الصابئة الميال للأوروبيين عامة، والإنجليز خاصة في منتصف القرن التاسع عشر، وسافر من العراق إلى الهند ثم عاد ليوطد صلاته برجال الدين والمنصرين الإنجليكان والكاثوليك، الأمر الذي أدى إلى تصدع بين الصابئة، فانتقد مسلكه الشيخ داموق واستعان بالعثمانيين، الذين كانوا في ذلك الوقت يرحبون بأي تدخل في شئون الطوائف الدينية للعمل على كبح جماح التدخل البريطاني المتزايد بينهم، ولكن رغم المجهودات السياسية والتبشيرية التي قام بها المبشرون البروتستانت بين الصابئة خلال القرن التاسع عشر إلا أنهم ظلوا متمسكين بمذهبهم إلى وقتنا هذا^(١).

وهكذا كان النشاط التبشيري في العراق يرتفع عندما ترتفع قيمة العراق في مجال التنافس الاستعماري، ويضعف إذا ما ضعفت قيمة العراق، وكانت هذه هي صورة النشاط التبشيري في العراق، فإذا كان النشاط التبشيري الكاثوليكي الفرنسي يتأرجح حسب أهمية العراق في المجال الدولي، فإن النشاط التبشيري البروتستانتي البريطاني قد أخذ صورة دموية لأنه سار جنباً إلى جنب مع نمو النفوذ الاستعماري البريطاني، إلا أن العراق لم يكتسب من وراء هذا التدخل التبشيري

وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم في موطنين الأول في سورة البقرة «إن الذين آمنوا والذين هادوا وال نصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (البقرة: الآية ٦٣)، والثاني في سورة الحج «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد» (الحج: الآية ١٨).

(١) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٣١٩؛ عبد العزيز محمد الشناوي: مرجع سابق، ج ٢، ص ٨١٩.

الأجنبي إلا التفسخ الاجتماعي، ولم يتوقف إلا بعد أن تخلص العراق من الحكم العثماني ومن الاحتلال البريطاني، خاصة بعدما بدأت البابوية في القرن العشرين تتخلى تدريجيًا عن إتباع الأساليب السياسية في توسيع نطاق عملياتها التبشيرية الكاثوليكية، واحترمت قومية المسيحيين في كل بلد ينزلون فيه.

ولكن يثور سؤال هام جدًا عن الأسباب التي جعلت مصر لا تشهد مثل هذا النشاط التنصيري الواسع مثلما شهدته العراق وبلاد الشام؟ يحاول أحد الباحثين الإجابة على هذا السؤال مؤكدًا أن الأزهر كان بمثابة القلعة الحصينة للغة العربية والدين الإسلامي في مصر، ولهذا لم تجد هذه البعثات في مصر مجالاً خصبًا كما وجدت في العراق، أو في الشام، ويضيف إلى ذلك سببًا آخر يتمثل في أن مصر لم تشهد التنوع البشري والديني واللغوي الذي يراه «من أبرز سمات تاريخ الشام والعراق»، ويؤكد كذلك أن أقباط مصر قد عرف عنهم تمسكهم الشديد بالمذهب الأرثوذكسي ورفضهم إتباع غيره من المذاهب، فيقول إن أقباط مصر «كانوا محافظين ومتعصبين فلم يرض معظمهم عن المذهب الأرثوذكسي بديلًا»^(١).

ونحن نميل إلى ما ذهب إليه، ونضيف أن الأقباط في مصر قد تمتعوا بحس وطني قومي مصري منذ الحملة الفرنسية على مصر، وعرف عنهم تمسكهم بعقيدتهم ومذهبهم لا يحيدون عنه، ولهذا لم تنجح بينهم أي محاولات للتبشير، إضافة إلى توزعهم على كامل رقعة مصر من شمالها إلى جنوبها، داخل نسيج المجتمع المصري لا ينفصلون عنه، فإذا كان المسلمون هم لحمته، فإن الأقباط هم سده، في نسيج واحد متكامل.

(١) عبد العزيز محمد الشناوي: مرجع سابق، ج ٢، ص ٨٢١، ٨٢٢.

الصراع المصري العثماني وبعثات التنقيب عن الآثار في العراق

كان هناك مجالاً آخر للمنافسة الأجنبية في العراق لا يقل أهمية عن مجال التنافس في التبشير، وهو مجال الكشف عن الحضارات القديمة، ومع أن الكشف عن الحضارات القديمة من أنبل المهام العلمية هدفاً، خاصة وقد وصف القرن التاسع عشر بأنه قرن المعرفة، إلا أن هذه المعرفة أصبحت في بعض الأحيان ستاراً لأهداف استعمارية، فقد منحت بعثات التنقيب بعض الدول الأوروبية، وبصفة خاصة إنجلترا وفرنسا، فرصة كبيرة للتدخل في أمور العراق، ونهب ثرواتها الاقتصادية، والاستيلاء على كنوزها الأثرية، ورغم أن هدف نابليون من حملته على مصر كان تأسيس مستعمرة فرنسية في الشرق؛ إلا أننا نراه يصطحب معه مجموعة من العلماء في مختلف فروع العلوم ومنهم عدد كبير من علماء الآثار.

والحقيقة التاريخية التي لا يمكن إنكارها أن اكتشاف الأبجدية الهيروغليفية المصرية يرجع إلى العلماء الفرنسيين، واكتشاف الأبجدية الآشورية يرجع إلى العلماء الإنجليز، ولكن هذان الاكتشافان العظيمان جاء نتيجة لنقل الآثار المهمة من مصر والعراق إلى أوروبا، وقصة هذه النقل تبدأ بظهور التنافس البريطاني الفرنسي على العراق.

وكان العالم الأثري الفرنسي بوشان أول من قام بدراسة آثار العراق، وقام بالتنقيب عنها في منطقة الحلة بحثاً عن آثار بابل التي جاء ذكرها في الأناجيل المختلفة^(١).

وقد كانت فترة وجود ريج ممثلاً سياسياً لبريطانيا في بغداد فترة جمع لآثار

(١) إلهام محمد علي ذهني: مرجع سابق، ص ١٠٣.

العراق، فقد قام بعدة رحلات في شمال العراق وجنوبه، واستخدم نفوذه في جمع كميات كبيرة من الآثار المهمة، ونقلت مجموعته الأثرية بعد وفاته إلى لندن وحفظت بالمتحف البريطاني، فكانت هذه أول عملية نُقلت فيها آثار العراق إلى أوروبا^(١).

وإلى مجموعة ريج يعود الفضل في اكتشاف الأبجدية الآشورية، وإليها يعود الفضل كذلك في توجيه أنظار المهتمين بالآثار والتاريخ إلى كنوز العراق المدفونة تحت رمالها، وكان هذا في أعقاب نقله لها إلى المتحف البريطاني عام ١٨٢٥ م، فكانت السبب في ذبوع شهرة العراق كموطن للآثار القديمة التي تحتاج إلى من يكشف كنوزها، وتطلع المولعون بالآثار والباحثون عن الشهرة إلى العمل في العراق.

في الوقت الذي التفت فيه الممثلون السياسيون في العراق إلى أهمية تلك الآثار، فقام خليفة كلوديوس جيمس ريج المستر روبرت تيلور القنصل البريطاني في بغداد (١٨٢١-١٨٤٢ م) بجمع ما تيسر له من آثار.

ولكي يضع ستراتفورد كانبينج، السفير البريطاني في الأستانة، أمور العراق تحت عينيه بكل وضوح، خاصة بعدما تبين له خلال أزمة الصراع المصري العثماني في الشام والجزيرة العربية أن شعب العراق على استعداد لأن يضع يده في يد المصريين، الأمر الذي سيؤدي إلى أن يفقد الإنجليز سيطرتهم على طريقي الملاحة إلى الشرق الأقصى، فلأجل أن يخلق مصالح بريطانية فيه قام بالإيعاز إلى هنري لايارد Henry Layard أن يذهب للكشف عن آثار نينوي في شمال العراق، ولاقت هذه المهمة رضا واستحسان الأخير الذي اعتقد تمامًا أنه تحت تلال "كويونجك Kuyunjik" توجد آثار نينوي العظمى^(٢).

ومما هو جدير بالذكر أن فريقًا من ضباط الأسطول البريطاني في الهند قد قاموا خلال وجود بعثة تشيزني في العراق بدراسات ميدانية لأنهار ومدن العراق الأثرية،

(١) عبد العزيز سليمان نوار: «آثار العراق والصراع الاستعماري في القرن التاسع عشر»، مجلة الهلال، السنة ٧٣، العدد ٣، (١٩٦٥) ص ١٣٧.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار: آثار العراق والصراع الاستعماري، ص ١٣٩.

وكان من بينهم فيلكس جونز Felix Jones الذي قام بأعمال مهمة تناولت بغداد وضواحيها، والمكانين الأثرين بابل ونيوى، ولما عين ذلك الضابط مقيمًا بريطانيًا في بوشهر الفارسية في عام ١٨٥٥م خلفه القائد سلبى Selpy في ميدان الدراسات الميدانية والأثرية إلى عام ١٨٦٢م.

وكانت العقود الثلاثة من القرن التاسع عشر (١٨٣٠-١٨٦٠) من أخطر فترات تاريخ العراق الحديث في مجال الكشف عن الآثار ونقلها إلى المتاحف الأوروبية في غياب الوعي العثماني، والحاجة إلى تأييد الدول الأوروبية، وخاصة إنجلترا، خلال أزمة الباب العالي أمام واليه محمد علي في الشام والأناضول، خاصة بعد هزيمة نصيين ١٨٣٩م.

ولكن أهم ما يمكن ملاحظته على عمليات التنقيب عن الآثار في العراق خلال الفترة التي نحن بصددتها أنها قد تمت بطريقة علمية، لأنها تمت لأغراض تجارية أو إستراتيجية وسياسية لخلق مصالح فرنسية أو بريطانية، ومن ثم شكلت بعثات التنقيب عن الآثار مجالاً من مجالات المنافسة البريطانية الفرنسية مثلها مثل المنافسة على بعثات التبشير وعلى الملاحة البخارية لأجل أهداف إستراتيجية.

فقد تمكن هنري رولنسون من متابعة الدراسة أثناء عمله مع القوات المسلحة البريطانية في الخليج، حيث قام بدراسة آثار برسيبوليس في صيف ١٨٤٠م، وخلفه هنري لايارد الذي أرسل للكشف عن آثار نينوي في شمال العراق، وهناك التقى ببعثة فرنسية تضم الفنان الفرنسي المصور فلاندين Flandin ومساعدته كوستا Costa حيث كانت البعثة تقوم بدراسات أثرية بتكليف من الحكومة الفرنسية، وهناك بدأ أول صدام بين رجال الآثار الفرنسيين والإنجليز^(١).

ولا شك أن أهداف كل من فرنسا وبريطانيا من الكشف عن آثار العراق لم تكن أهداف حضارية وتاريخية؛ بقدر ما كانت أهداف سياسية وإستراتيجية؛ تهدف لخلق مصالح في العراق، وأدى هذا التنافس بين الأثرين البريطانيين والفرنسيين إلى أن تجد فرنسا في ميدان الآثار والكشف عنها مجالاً جديداً للمنافسة العلمية لبريطانيا،

(١) إلهام محمد علي ذهني: مرجع سابق، ص ١٠٤.

وهذا في حقيقة الأمر صورة من الصراع السياسي بينهما، ولهذا أخذ كل طرف يدس المكائد للآخر فاضطر لايارد إلى أن يترك المكان للفرنسيين ويعود إلى بغداد في صيف ١٨٤١م.

وقد رت هيثات فرنسا العلمية والسياسية أهمية التوسع في عمليات التنقيب عن الآثار في العراق فأنشأت الحكومة الفرنسية قنصلية لها في الموصل واختارت لها بول أميل بوتا Poul Emile Botta العالم الأثري المعروف ١٨٤٢م، الذي نشط في دراسة آثار العراق بتكليف من الجمعية الآسيوية الفرنسية، ونصب اهتمامه في التنقيب عن آثار الدولة الآشورية، الأمر الذي أدى إلى أن يقع الصدام بينه وبين العالم الأثري البريطاني أوستن لايارد Austin layard، وأخذ يدس كل منهما المكائد للآخر لدى السلطات العثمانية، واحتدم الخلاف بينهما للدرجة التي وصلت فيها المنازعات بينهما إلى محاكم الموصل في ١٨٤٧م حول تحديد المنطقة التي يجب أن يعمل فيها كل منهما^(١)، وزاد نشاط لايارد في عمليات التنقيب عندما قرر المتحف البريطاني أن يعطيه منحة تساعد على التنقيب.

وفي أوائل الخمسينات من القرن التاسع عشر ظهر نشاط بريطاني في ميدان التنقيب عن الآثار في جنوب العراق في منطقة بابل، وتولى العمل فيها لوفتس Loftus وكير لنش Kerr Lynch أحد أصحاب شركة لينش للملاحة البخارية، وعمل الفرنسيون على منافسة الإنجليز في البحث عن الآثار في جنوب العراق بأشهر علماء الآثار الفرنسيين نخص منهم «أوبير» الذي بدأ عمله منذ عام ١٨٥١م وأحدث حفائره واكتشافاته دويًا كبيرًا في فرنسا، ونافسه الأثري البريطاني هنري رولنسون الذي نالت أبحاثه عن الكتابة الآرامية والحضارة الآشورية شهرة واسعة إلا أن أعماله لم تكن في مستوى اكتشافات «أوبير»^(٢).

واستمرت جهود الفرنسيين في هذا المجال فأرسلوا بعثة برئاسة «بالاس»، وكان عالمًا أثريًا ومهندسًا معماريًا، ولكن بعثته صادفت متاعب جمّة، ولم تتمكن من القيام بمهمتها في جنوب العراق بسبب الثورات الجامحة التي اجتاحت وسط

(١) إلهام محمد علي ذهني: مرجع سابق، ص ١٠٤، ١٠٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٥.

وجنوب العراق، وبعد عودة هذه البعثة هدأت حركة التنقيب الفرنسية هي الأخرى، ولم تنشط مرة أخرى إلا في سبعينيات القرن نفسه.

وعندما بدأت السلطات العثمانية تفتيق من ثباتها وتفكر في وسيلة للكشف عن كنوز العراق الأثرية والمحافظة عليها من أيدي البعثات والطامعين، فأرسلت بعثة لتدلي بدلوها هي الأخرى في هذا الميدان إلى جانب البعثات الفرنسية والبريطانية للتنقيب عن آثار العراق، فدارت حول بعض المواقع الأثرية وعادت دون أن تقوم بما يستحق الذكر، الأمر الذي يؤكد لنا أن الفكرة كانت سطحية ومظهرية نتيجة لعدم وجود وعي حقيقي لدى السلطات العثمانية التي أرسلت البعثة، فضلاً عن قلة الخبراء والإمكانات العثمانية في هذا المجال، فقد كان هدف البعثة الأساسي هو المحافظة ما أمكن على هذه الثروة الأثرية العراقية.

ولكن نظراً لعدم وجود عناية منظمة لتحقيق هذه الأهداف أصبح لدى الأوروبيين فرص واسعة للاستيلاء على هذه الثروات، وإرسالها إلى متاحفهم حتى غصت بها، وأصبح من العسير على دارس تاريخ بابل أو آشور أن يتم بحوثه إن لم يرجع إلى الآثار العديدة عن هاتين الإمبراطوريتين القديمتين المحفوظة في المتاحف البريطانية والفرنسية، وخاصة المتحف البريطاني، وتمخضت الدراسات العثمانية عن صدور قانون في ١٨٧١م باسم «قانون الآثار» بهدف المحافظة على الآثار، ولكنه تضمن بنداً خطيراً يسمح للشخص الذي يكتشف أثراً قديماً بأن يحصل على ثلث قيمته^(١)، واستمر هذا القانون حتى سقط العراق في يد الإنجليز خلال الحرب العالمية الأولى، فتعرضت بذلك كثير من آثار العراق للضياع.

فالسُّلطات العثمانية مسئولة مسئولية واضحة عن ضياع آثار العراق، فالمكتشفون الأوروبيون خلال القرن التاسع عشر معظمهم كانوا تجاراً ومغامرين وباحثين عن الشهرة، وأقحموا السياسة في تلك المجالات العلمية السامية فاکتشفوا دون أمانة، ونقلوا الآثار تحت سمع وبصر الحكام العثمانيين؛ الذين كانوا يهزءون من أولئك الأوروبيين؛ الذين يبذلون الجهد والمال من أجل تمثال محطم، أو قطعة نقود متأكلة، أو كسرة من أناء فخاري.

(١) عبد العزيز سليمان نوار: آثار العراق والصراع الاستعماري، ص ١٤٤.

الصراع المصري العثماني والدراسات الطبوغرافية والجغرافية

هناك نوع آخر من النشاط في العراق احتدمت المنافسة فيه بين الفرنسيين والبريطانيين، وهو الدراسات الطبوغرافية والجغرافية للبلاد، وكانوا يكسبون من وراء تلك الدراسات نفوذاً له قيمته، فخلال موقعة نصيبين تبين أن ثلاثة من العلماء الإنجليز كانوا في معسكر حافظ باشا - قائد الجيش العثماني - وفروا بعد الهزيمة تاركين أمتعتهم ومعداتهم^(١)، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أن هؤلاء العلماء مثل غيرهم من الإنجليز كانوا يمزجون بين المهام الموفدين إليها والمصالح البريطانية السياسية والعسكرية، وقد استمرت عمليات مسح العراق وبلاد الخليج التابعة للدولة العثمانية، دون أن تدرك الأخيرة خطورة أهداف هذه العمليات.

ومما لاشك فيه أن الصراع المصري العثماني قد لعب دوراً كبيراً في نمو الدراسات الطبوغرافية والجغرافية الخاصة بالعراق، ذلك أن استقرار الحكم المصري في الشام، كما ذكرنا، قد خلق المناخ المناسب للعلماء الأجانب والرحالة الأوروبيون لزيارة العراق، ودراسة أوضاعه الاجتماعية، والثقافية، والدينية، والجغرافية، وغيرها، وكتابة دراسات تنوعت في أهدافها طبقاً لاتجاهاتهم، فبعضها كانت لأهداف إستراتيجية استعمارية، وبعضها كان لأهداف اقتصادية، والبعض الآخر كان لأهداف علمية بحتة، إلا أن الأمر المؤكد أن أزمة الباب العالي أمام واليه محمد علي جعلته يَغُضُّ الطرف عن نشاط هؤلاء، خاصة أن البعض منهم، كما سبقت الإشارة، كان يعمل على مساعدة جيشه في استعداداته للمواجهة النهائية التي كان يرغب فيها في صراعه مع والي مصر المتمرد عليه.

ولا شك أن إنشاء الوكالة البريطانية في الموصل في أعقاب موقعة نصيبين كان

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٨٢، وثيقة ٩٧-٦، في ١٨ رجب ١٢٥٥هـ / ٢٧ سبتمبر ١٨٣٩م، ووثيقة ٩٧-١٢، في ٢٨ رجب ١٢٥٥هـ / ٢٧ سبتمبر ١٨٣٩م.

مرتبطًا كل الارتباط بأحداث الشام وخطط الإنجليز ضد المصريين هناك، فقد أصبح الإنجليز في حاجة إلى عين تراقب لهم النشاط المصري صوب الموصل بدقة، وأغلب الظن أن سقوط الموصل بسرعة في يد يحيى الجليلي في أعقاب استيلاء الجيش المصري على حلب في ١٨٣٢م كان درسًا وعاء الإنجليز جيدًا، وخشوا من أن تتكرر المسألة بعد نصيين فعملوا على أن يكون لهم تمثيل دبلوماسي في الموصل ضمن حلقة اتصال بين قناصل بريطانيا في الشام وقناصلها في العراق والأناضول.

وكان كريستيان رسام Christain Rassam أول من تولى وكالة الموصل في ديسمبر ١٨٣٩م، وكانت مواهب رسام^(١)، قد أعدته للقيام بالمسؤوليات السياسية والثقافية والتبشيرية التي أوكلت إليه، وكذلك كان مواطنًا عثمانيًا كلدانيًا من أهل حلب، وأصبح مصطبغًا بالصبغة الإنجليزية من حيث التفكير السياسي والعاطفي والديني إذ تحول إلى المذهب البروتستانتي، كل هذه الأسباب أدت إلى نجاح رسام في مهمته كوكيل سياسي بريطاني، ولهذا ظل يشغل منصبه لفترة طويلة امتدت من ١٨٣٩م وحتى توفي وهو في منصبه في مايو ١٨٧٢م، وبعد وفاته طلب هربرت - القنصل البريطاني العام في بغداد - من حكومته أن تسند المنصب الشاغر إلى موظف بريطاني الأصل حتى لا يتفوق القنصل الفرنسي على الممثل البريطاني في الموصل، كما قام الإنجليز برفع التمثيل السياسي لهم في بغداد إلى قنصلية عامة Consul General عام ١٨٤٧م واستمر على هذا النحو حتى الحرب العالمية الأولى^(٢).

كما أظهرت فرنسا اهتمامًا خاصًا بشئون العراق الداخلية في أعقاب أزمة الصراع المصري العثماني في الشام، ولكن اقتصر أهدافها على تنمية مصالحها

(١) تعلم رسام في الأزهر، ثم أخذه المبشرون إلى مالطة ليقوم بترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية، ثم عاد مع بعثة تشيزني إلى العراق، وساهم في عمليات نقل باخري بعثة الفرات، وكان له دور كبير في تسهيل أعمال البعثة نظرًا لإتقانه اللغة العربية والإنجليزية، وقد كوفي في مقابل ذلك بتعيينه في وكالة الموصل في ديسمبر ١٨٣٩م، وظل يشغل منصبه إلى أن توفي في مايو ١٨٧٢م. عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٢٩٥.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار: مصر والعراق، ص ٨٤.

السياسية والتجارية، وقد كان موقف فرنسا من الصراع المصري العثماني سبباً في تأخير تعاون الباب العالي مع القنصل الفرنسي في بغداد، وربما كان ذلك هو السبب في أن تُقدم فرنسا عام ١٨٤٨ م على إلغاء قنصليتها في الموصل، وتولى مصالح الفرنسيين في العراق وكيل سياسي لم يكن في وسعه مراقبة النشاط البريطاني هناك، فقررت الحكومة الفرنسية إعادة افتتاح قنصليتها في الموصل عام ١٨٥١ م وعين بها بالاس V. palace أحد علماء الآثار قنصلاً لفرنسا^(١)، الأمر الذي يؤكد أن اهتمام الفرنسيين بالعراق ظل في مرتبة أقل، مما مكن الإنجليز من تحقيق مشاريعهم الاستعمارية فيه.

(١) إلهام محمد علي ذهني: مرجع سابق، ص ١٠٩.

اتصالات فيصل بن تركي بوالي بغداد وموقف محمد علي منها

بدأت العلاقة بين محمد علي والدولة العثمانية تأخذ منعطفًا جديدًا بتأزم العلاقة بينهما بدءًا من عام ١٨٣٧م على إثر فشل المفاوضات العثمانية - المصرية التي تولاها صارم أفندي، فقد بلغت الحروب الدبلوماسية فيها ذروتها، وغدت الحرب بين العدوين موكولة للسيف، ولهذا سعى الباب العالي إلى أن يخضد شوكة القوات المصرية في أي جبهة من الجبهات، ومن ثم فقد سعت الدولة العلية لوضع العراقيل أمام تحركات محمد علي وخططه التوسعية في الجزيرة العربية، ولذا فقد أوجت إلى علي رضا باشا والي بغداد (١٨٣١ - ١٨٤١) بالاتصال بفيصل بن تركي وحثه على الاستمرار في مقاومته لتقدم قوات محمد علي في نجد، فاستغل الوالي العراقي فرصة وجوده في جنوب العراق للقيام ببعض الأعمال التأديبية ضد الخارجين من أهل المحمرة وعربان أطراف البصرة في ٢٣ رجب ١٢٥٣هـ / أكتوبر ١٨٣٧م^(١)؛ فأرسل إلى فيصل بن تركي يلومه أولاً على عدم مراسلته ويحثه على إعلان ولائه للدولة العثمانية حتى يحفظ إمارته، ويؤكد استعداداه لتقديم العون له إذا ما فعل ذلك «فما يتصور القصور عن مساعدة مقاصدك ومساعدة مآربك بالكلية»^(٢).

وقد بينت تلك المراسلات مدى الخلاف الذي اتسعت هوته بين محمد علي باشا والولاة العثمانيين، ووضح ذلك بصورة جلية من خلال الرسالة التي بعث بها علي رضا باشا إلى فيصل بن تركي في ٢٢ شعبان ١٢٥٣هـ / ٢١ نوفمبر ١٨٣٧م

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠١، صورة الوثيقة العربية ١٣٨ هـ، من حافظ سليمان صدقي إلى باشمعاون الخديوي، بتاريخ ٩ صفر ١٢٥٤هـ / ٤ مايو ١٨٣٨م.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، المرقق العربي (هـ) للوثيقة التركية ٢٦١ هـ، من علي محافظ بغداد وبصرة إلى الأمير فيصل التركي، بتاريخ ٢٢ شعبان ١٢٥٣هـ / ٢١ نوفمبر ١٨٣٧م.

وجه فيها اللوم له لعدم اتصاله به خلال تلك الفترة التي شهدت قدوم خالد بن سعود، وبين له رغبته بالمساعدة لإعادة تنصيبه حاكمًا في بلاده، وتمنى له النصر على قوات محمد علي، وطلب منه الرد برسالة يوضح فيها الطريقة المثلى للمساعدة التي يمكن له أن يقدمها^(١).

وبذلك دخل الولاة العثمانيون في العراق ميدان الحرب ضد قوات محمد علي في نجد بصورة غير مباشرة^(٢)، وبالوسائل الدبلوماسية، حيث قام علي رضا باستغلال نشاط قوافل العقيلات النجدية التجارية في العراق مستفيدًا من علاقتهم الحسنة معه وكلف زعيمهم سليمان بن غنام^(٣)؛ بتوجيه رسالة إلى فيصل بن تركي يحثه فيها على مكتابة حكومة بغداد وإعلان الطاعة للسلطان العثماني ويبلغه استعداد علي رضا باشا لتقديم ما يحتاجه من مساعدات ويصدر لكم «شقة سامية تعتمدون على مضمونها» في حكم نجد وتوابعها^(٤)، كما أوحى إلى عبد الله الفداغ - أحد شيوخ العرب - بأن يبعث برسالة إلى فيصل بن تركي جاء فيها «إن أفندينا (علي رضا باشا) يود النصر وأرسل لك طارشًا عن طريق الكويت»، ووعده الفداغ «بفرامانات تقرأ بين الحضر والبدو ومكة والمدينة... بأنكم طوارف الدولة حتى ترتفع عنكم مواد محمد علي باشا»^(٥)، غير أن فيصل بن تركي لم يرد على أي من تلك الرسائل

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، المرفق العربي (هـ) للوثيقة التركية ٢٦١ هراء، الوثيقة السابقة.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٢٠٩.

(٣) هو شيخ العقيل اعتمد عليه علي رضا باشا والي بغداد (١٨١٧-١٨٤٢) في الاتصال بفيصل بن تركي لحثه على الاستمرار في مقاومة حملة خورشيد باشا على نجد (١٨٣٧-١٨٣٩)، غير إن عدم إخلاصه للعثمانيين خلال أزمة التوسع المصري في الشام والجزيرة العربية وظهور ميله إلى جانب المصريين خاصة عندما فكر خورشيد باشا في غزو البصرة، قد جعل نجيب باشا والي بغداد (١٨٤٢-١٨٤٧) يُقدم على إعدامه، الأمر الذي أدى إلى تدهور قوة العقيل، عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٦٧.

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٢، صورة المرفق العربي للوثيقة التركية ٢٦١ هراء، من سليمان الغنام إلى الشيخ فيصل السعود، المؤرخ في ٢٢ شعبان ١٢٥٣هـ / ٢١ نوفمبر ١٨٣٧م.

(٥) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، وثيقة ٦٦ هراء، من عبد الله الفداغ إلى فيصل بن تركي، بتاريخ ١٦ رمضان ١٢٥٣هـ / ١٥ ديسمبر ١٨٣٧م.

لإدراكه عدم جدية الوالي العراقي في تقديم مساعدات ملموسة.

ورغم ذلك لم يتوقف علي رضا باشا عن محاولته لتحريض فيصل بن تركي على مواجهة تقدم حملة إسماعيل بك، حيث طلب من أحد كبار التجار النجديين المقيمين في الكويت أن يكتب للإمام فيصل بن تركي ليلبغته تمنياته له بالنصر في الحروب التي يخوضها، وفي الوقت نفسه يبدي الاستعداد لإرسال بعض الجنود إلى حين يتم النصر له، ويحثه على أن يكتب لوالي بغداد يطلب منه تزويده بأمر من السلطان العثماني يؤكد فيه تبعيته للدولة العثمانية، فإذا ما أعلن ذلك سترغم قوات محمد علي على الانسحاب من المنطقة لكونه لا يزال واليًا خاضعًا للسلطان العثماني، مخبرًا إياه بالخشود التركية التي يقودها في المحمرة استعدادًا لغزو الحجاز^(١).

غير أن تلك الرسالة لم تصل إلى فيصل بن تركي ووقعت في يد قادة محمد علي ووصلت إلى خورشيد باشا^(٢)، الذي أرسلها بدوره إلى محمد علي معتبرًا إياها أول

-
- (١) غيور غي بواندر يسفكي: الكويت وعلاقتها الدولية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ماهر سلامة ترجمة، (الكويت: مركز البحوث والدراسات الكويتية، ١٩٩٤) ص ٧٠.
- (٢) هو محمد خورشيد باشا (خورشيد كلمة تركية تعني الشمس) قائد ألباني مستعرب جاء إلى مصر صغيرًا وتعلم في مدارسها المدنية والعسكرية، عين محافظًا للمدينة المنورة بدلًا من عابدين بك المتوفى في محرم ١٢٤٧هـ / ١٨٣١م (دار الوثائق القومية: دفاتر ديوان المعية سنبة تركي، دفتر ٤٠، وثيقة ٧١٢، من الجناح العالي إلى خورشيد باشا محافظ مكة المكرمة، ٢٠ محرم ١٢٤٧هـ / ١ يوليو ١٨٣١م)، ثم استدعي إلى مصر على إثر ثورة تركي بلماز، ثم عاد قائدًا لحملة عسكرية على نجد بعد أن منح لقب حكمدار الدرعية سر عسكر نجد، وكانت رتبته العسكرية مير ميران التي شعارها ثلاث نجوم داخل هلال مصنوعة من الذهب المرصع بالألماس، وبعد انسحابه من الجزيرة العربية استجابة لأوامر محمد علي ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م عاد إلى مصر، ليعين وكيلًا للجهادية ثم مديرًا للدقهلية، إلى أن توفي ١٢٦٥هـ / ١٨٥١م بالمنصورة عثمان بن عبد الله بن بشر النجدي الحنبلي: عنوان المجد في تاريخ نجد، جزآن، عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ (تحقيق)، (الرياض: دار الملك عبد العزيز، ٣٨٩١)، الجزء الثاني، ص ٧٥١؛ حصة بنت جهمان الهلالي الزهراني: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الدولة السعودية الثانية ١٢٨١-١٩٨١م، (الرياض: دار الملك عبد العزيز، ٤٠٠٢)، ص ٧٢؛ خليفة بن عبد الرحمن السعدي: موقف القوى المناوئة من الدولة السعودية الثانية ١٨١١-١٦٨١م دراسة تاريخية وثائقية، (الرياض: دار الملك عبد العزيز، ٥٠٠٢)، ص ٧٠٢. وكان خورشيد باشا شغوفًا محبًا للخيول العربية الأصيلة، وليس أدل على ذلك من جمعه إياها خلال حملته على نجد لدرجة أن بلغ ما كان يصرفه لها من شونة المدينة المنورة «أربعة أرباب في اليوم، ومائة وعشرين أردب في

تخطيط عثماني سعودي ضد قوات محمد علي في الجزيرة العربية بدافع المصالح المشتركة بين الطرفين.

ولما علم خورشيد باشا بذلك الاتصال الذي تم بين فيصل بن تركي وعلي باشا والي بغداد أسرع بإرسال الشريف عبد الله إلى فيصل بن تركي حاملاً رسالة تتعلق بهذا الاتصال طالباً منه إيضاح الهدف منه والقصد من ورائه، ولما وصل إلى فيصل الذي كان قد قرر الانسحاب إلى الإحساء أسرع بإرسال أخيه جلوي بن تركي مع رسالة علي باشا ورسالة أخرى أوضح له فيها أن هذا الاتصال لم يكن إلا وليد الصداقة والمعرفة التي كانت بينهما^(١)، نظراً لموقف علي باشا السابق من العربان الذين كانوا يُغيرون على أطراف بلاده من بني خالد والصفير والمتفق وردعه إياهم عن أعمالهم العدوانية، ثم أراد أن يبرئ نفسه من أي شبهة من وراء هذا الاتصال فطلب من خورشيد باشا أن يقف على حقيقة الأمر ممن «بحضرتك من مشايخ العرب»^(٢)، إلا أن خورشيد باشا لم يطمئن لهذا الرد وداخله الشك لعلمه بأساليب الدولة العثمانية في حروبها ضد محمد علي واستخدامها لأسلوب الاتصال بالقوى المناوئة لنفوذه في الجزيرة العربية.

الشهر وألف وأربعمائة وأربعين أردباً في السنة...» (دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٢، وثيقة ٢٤ أصلي، ١١٠ حمراء، من سليم باشا أوتوزير مير ميران الطوبجية مأمور الجديدة إلى كتخدا جناب الخديوي، بتاريخ ١٢ ذي القعدة ١٢٥٤هـ/ ٢٨ يناير ١٨٣٩م)، الأمر الذي دفع محمد علي ليكتب إليه مستفسراً عن كونها تابعة للحكومة، فأكد له خورشيد باشا أنه اشتراها من ماله الخاص (دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٢، المرفق الأول للوثيقة ٢٤ أصلي، ١١٠ حمراء، بتاريخ ١٢ ذي القعدة ١٢٥٤هـ/ ٢٨ يناير ١٨٣٩م، صورة الكتاب الذي جاء من لدن حضرة خورشيد باشا سر عسكر نجد مكتوباً في ٨ شوال ١٢٥٤هـ/ ٢٦ ديسمبر ١٨٣٨م) فصدرت إرادة محمد علي «بنقل الدواب المذكورة إلى أبعادته في القاهرة أو بتسوية مسائلها بحل آخر على أن يقطع ما صرف من قبل من راتبه ولا يصرف له شيئاً بعد ذلك» (دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٢، المرفق الثاني للوثيقة ٢٤ أصلي، ١١٠ حمراء، بتاريخ ١٢ ذي القعدة ١٢٥٤هـ/ ٢٨ يناير ١٨٣٩م، الرد على مكاتبة سليم باشا في ١٧ ذي الحجة ١٢٥٤هـ/ ٤ مارس ١٨٣٩م).

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، ترجمة الوثيقة ٢٦٥، من خورشيد باشا إلى صاحب الدولة، ٢٤ ذي القعدة ١٢٥٣هـ/ ٢٠ فبراير ١٨٣٨م.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠١، المرفق العربي (ج) للوثيقة التركية ٢٦١ حمراء، من فيصل بن تركي آل سعود إلى خورشيد باشا، بتاريخ ١٩ محرم ١٢٥٤هـ/ ١٤ أبريل ١٨٣٨م.

حملة خورشيد باشا على الإحساء ونجد (١٨٣٧-١٨٣٩)

تبين الوثائق أن التخطيط لإنفاذ حملة خورشيد باشا بدأ منذ هزيمة حملة إسماعيل بك وخالد بن سعود في معركة «الحلوة» حيث أرسل حاكم الحجاز أحمد باشا رسالة إلى خالد بن سعود بتاريخ ١٣ جمادى الأولى ١٢٥٣هـ/ ١٥ أغسطس ١٨٣٧م يبلغه بقرب إرسال حملة عسكرية جديدة^(١)، وفي الوقت نفسه صدرت الأوامر إلى خورشيد باشا محافظ المدينة المنورة بالاستعداد للقيام بحملة عسكرية إلى نجد^(٢)، وإلى الشيخ هزاع أحد مشايخ العربان في مصر بالسفر لدعم حملة خورشيد بعد أن أنعم عليه بخمسة آلاف قرش^(٣).

وعلى الرغم من صدور الأوامر إلى خورشيد باشا مبكراً^(٤)؛ لإنفاذ الحملة إلا أنه تأخر في السير إلى نجد ما يقارب ستة أشهر، وذلك لرغبته بالاستعداد التام، وإعطاء الحملة كل احتياجاتها، خاصة أن القوات التي أرسلت إلى القصيم لنجدة إسماعيل بك في ٨ رجب/ ٩ أكتوبر من العام نفسه قد استنفدت المؤن الموجودة في

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، وثيقة ٦٩ هراء، من أحمد باشا إلى خالد بن سعود، ١٣ جمادى الأولى ١٢٥٣هـ/ ١٥ أغسطس ١٨٣٧م.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، وثيقة ٤ هراء، رسالة من أحمد باشا شكري إلى باشمعاون جناب داوري، ٣ شعبان ١٢٥٣هـ/ ٢ نوفمبر ١٨٣٧م.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ٩٩، ترجمة الأمر رقم ٦٠٧، من الجناب العالي إلى باقي بك، بتاريخ ٢٥ جمادى الأولى ١٢٥١هـ/ ١٩ سبتمبر ١٨٣٥م.

(٤) حيث أكدت الوثائق أن خورشيد باشا قد تولي جهات نجد أواخر رجب ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م (دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، وثيقة ٦٩ هراء، من خورشيد باشا إلى صاحب الرحمة، بتاريخ ٢٧ شعبان ١٢٥٣هـ/ ٢٦ نوفمبر ١٨٣٧م)، وأنه بدأ تحركه من ينبع البحر بتاريخ ١٤ رمضان ١٢٥٣هـ قاصداً نجد بمعاونة حسين أفندي. دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، وثيقة ١٠٩ هراء، من المير ميران محمد خورشيد إلى صاحب الدولة، في ١٤ رمضان ١٢٥٣هـ/ ١٣ ديسمبر ١٨٣٧م.

خزينة المدينة المنورة^(١)، لذا رأى خورشيد باشا أن يتزود جنود الحملة بمئونة ستة أشهر^(٢)، كما حرص على تزويد الحملة بخزينة خاصة للمصاريف وتعيين إبراهيم أدهم أفندي أمير شونة المدينة المنورة أميناً لها، لأنه يجيد اللغتين العربية والعثمانية مع إرسال شخص آخر لتسلم عهدة شونة المدينة المنورة وتعيين مساعداً لإبراهيم أفندي بمنصب كاتب خزينة^(٣)، ثم بدأ خورشيد بالتحرك من المدينة المنورة تجاه نجد بقوة تزيد عن ألفين وخمسمئة مقاتل هي قوة الآلاي الخامس عشر إضافة إلى أعداد أخرى من الفرسان والمشاة، على أن يلحق به الآلاي الواحد والعشرين في غضون يومين أو ثلاثة^(٤) لأنه قد أوغل في التدريب العسكري حتى بلغ تعليم الآلاي وصار مستعداً^(٥).

وقبل أن يتحرك خورشيد باشا من المدينة المنورة وفد عليه أحد رجال فيصل بن تركي عارضاً الصلح وطالباً الأمان، ويرفع حصاره عن الرياض، ورغم إدراك خورشيد أن إرسال ذلك الموفد ليس إلا محاولة من فيصل كي يتمكن من إعادة ترتيب أوراقه وقوته من جديد، إلا أن خورشيد قبل مبدأ التفاوض فأرسل عبد الله بن عبد المعين أمير ينبع إلى الرياض يوم ٢٨ رمضان ١٢٥٣هـ / ٢٥ ديسمبر ١٨٣٧م للتفاوض مع فيصل لرفع الحصار عن الرياض^(٦)، ونجح ابن عبد المعين في الاتفاق مع فيصل على الانسحاب إلى الأحساء وإرسال أخيه جلوي رهينة لدى خورشيد باشا وفي ٢٢ شوال التالي بدأ فيصل بالفعل الاستعداد لمغادرة الرياض^(٧).

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، وثيقة ١٨٦ حمراء، رسالة من خورشيد باشا إلى باشمعاون جناب داوري، ١٥ رجب ١٢٥٣هـ / ١٦ أكتوبر ١٨٣٧م.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠١، وثيقة ٦١ حمراء، رسالة من درويش علي بري محافظ ينبع إلى ولي النعم حول تحرك خورشيد إلى نجد، ٢٢ ذي الحجة ١٢٥٣هـ / ١٩ مارس ١٨٣٨م.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، وثيقة ٣٠١ حمراء، من خورشيد باشا إلى صاحب الدولة والمرحمة، ٣ ذي الحجة ١٢٥٣هـ / ٢٨ فبراير ١٨٣٨م.

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، وثيقة ٩٩، من الجناب العالي إلى الباشا السر عسكر، دون تاريخ.

(٥) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، وثيقة ٩٠ حمراء، تقرير من خورشيد باشا عن الحوادث بين فيصل بن تركي وخالد بن سعود، ٣٠ رمضان ١٢٥٣هـ / ٢٩ ديسمبر ١٨٣٧م.

(٦) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، وثيقة ٢٧١ زرقاء، رسالة من خورشيد باشا

وتبين الوثائق أن تصرف خورشيد باشا هذا كان بإيعاز من محمد علي، وذلك بهدف تجنب القتال، أما لو فشلت المفاوضات فإن الفرصة سانحة لخورشيد باشا لترتيب الأوراق واستكمال الاستعداد حتى يتمكن من الزحف بنفسه لقتال فيصل بن تركي^(١). وتختلف رواية ابن بشر عن رواية الوثائق حيث أكد أن مهمة عبد الله بن عبد المعين كانت وعدًا بإبقائه «في ملكه ولا عليه فيه منازع»^(٢)، ويمكن الجمع بين الروایتين بأن الاتفاق كان يقضي بمغادرة فيصل بن تركي إلى الإحساء ليحكمها بموافقة خورشيد، وهو ما دفع فيصل بن تركي إلى قبول ذلك لإدراكه مدى قوة الحملة القادمة، في الوقت الذي أرسل أخاه جلوي إلى المدينة المنورة محملاً بالهدايا لخورشيد باشا^(٣)، وأطلعه على رسائل والي العراق علي رضا باشا إلى فيصل بن تركي التي يحرضه فيها على مقاومة إسماعيل بك، فأرسل خورشيد إلى فيصل بن تركي يطلب منه إرسال رسائل علي رضا باشا وأمير عسير عايض بن مرعي التي وصلت إليه مؤخرًا، فرد عليه فيصل بتاريخ ١٩ محرم ١٢٥٤هـ / ١٤ أبريل ١٨٣٨م نافيًا تلقيه أية رسائل من عسير، ثم برر رسالة علي رضا باشا بأنها كانت تعبيرًا عن صداقة بينهما بسبب حمايته لأطراف دولته من هجمات القبائل في حدودها الشمالية الشرقية، كما سبقت الإشارة، وأكد أنه لم يرد عليها والدليل على ذلك أن مندوب علي رضا باشا لا يزال حتى تاريخه قائمًا عنده منتظرًا الرد^(٤)، ونتيجة لنجاح ابن عبد المعين في مهمته فقد حاول خورشيد باشا مكافأته فأرسل إلى محمد علي باشا شارحًا الجهود التي بذلها، موضحة قلة دخله المادي وكثرة

إلى جناب الخديوي حول المفاوضات مع الإمام فيصل، ٢٤ ذي القعدة ١٢٥٣هـ / ٢٠ فبراير ١٨٣٨م.

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، مرفق بالوثيقة ٢٧١ زرقاء، رسالة من خورشيد باشا إلى الباشمعاون الخديوي، ٩ ذي القعدة ١٢٥٣هـ / ٥ فبراير ١٨٣٨م.

(٢) عثمان بن عبد الله بن بشر: الجزء الثاني، ص ١٥٧.

(٣) عثمان بن عبد الله بن بشر: الجزء الثاني، ص ١٥٨.

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠١، المرفق العربي (ج) للوثيقة ٢٦١ حمراء، رسالة من فيصل بن تركي آل سعود إلى خورشيد باشا حول مراسلاته مع والي بغداد وأمير عسير، بتاريخ ١٩ محرم ١٢٥٤هـ / ١٤ أبريل ١٨٣٨م.

جماعته وعبيده، طالبًا ترتيب معاش شهري يصرف له من قبل الحكومة^(١).

ويتضح من رد فيصل بن تركي على خورشيد باشا أنه أدرك أن إمدادات علي رضا لن تنجده ولا تستطيع الوقوف في وجه قوات خورشيد باشا لعلمه بسوء أحوال ولاية بغداد وتخرج موقف علي رضا باشا الداخلي، ومن ثم عمل على مهادنة خورشيد باشا وحاول إقناعه بأن هذا الاتصال تم بناءً على صداقة سابقة، وليؤكد على أنه ليس هناك هدف عدائي ضده وراء هذا الاتصال أرسل خطاب علي باشا ليطلع عليه^(٢).

وقد كان إطلاع خورشيد باشا على مراسلات فيصل بن تركي سببًا رئيسيًا لنقض الصلح مع فيصل بن تركي، وليس كما يذكر أحد الباحثين من أن السبب كان هجوم خورشيد على جمال لفصل بن تركي^(٣)، ولكن من الواضح أن موضوع الصلح هذا لم يكن إلا مخادعة من خورشيد باشا ليرفع فيصل بن تركي الحصار عن الرياض، ذلك أنه كان عاقدًا العزم على التقدم إلى نجد لمواجهة فيصل بن تركي دون التقيد ببند الصلح^(٤)، وذلك لأجل تحقيق أهداف الحملة من السيطرة على ما تبقى من أراضي نجد والتقدم إلى الإحساء وساحل عمان، ومن وراء البحرين والبصرة.

بدأ خورشيد باشا عملية التحرك من المدينة المنورة إلى الحناكية منذ ٢٤ ذي القعدة ١٢٥٣هـ / ٢٠ فبراير ١٨٣٨م حين كلف حسين اليازجي أحد قادته بالتقدم إليها ليكون طليعة الحملة، وفي غرة ذي الحجة / ٢٥ فبراير تحرك خورشيد بنفسه^(٥)، وفي الحناكية وفد عليه كثير من زعماء قبائل شمر وعتيبة وعنزة معلنين

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠١، وثيقة ٣٧ حمراء، رسالة من خورشيد باشا إلى صاحب الدولة حول جهود عبد الله بن عبد المعين، ٩ محرم ١٢٥٤هـ / ٤ أبريل ١٨٣٨م.

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: محمد علي وشبه الجزيرة العربية ١٨١٩ - ١٨٤٠، (القاهرة: دار الكتاب الجامعي، ١٩٨٦)، ص ٧٠، ٧١.

(٣) خليفة بن عبد الرحمن المسعود: مرجع سابق، ص ٢٧٣.

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، وثيقة ٢٧١ زرقاء، رسالة من خورشيد باشا إلى جناب الخديوي حول المفاوضات مع الإمام فيصل، ٢٤ ذي القعدة ١٢٥٣هـ / ٢٠ فبراير ١٨٣٨م.

(٥) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، وثيقة ٣٠١ حمراء، من خورشيد باشا إلى صاحب الدولة والمرحمة، ٣ ذي الحجة ١٢٥٣هـ / ٢٨ فبراير ١٨٣٨م.

الولاء^(١) فطلب منهم خورشيد باشا تزويده بالجمال اللازمة لنقل قواته قبل يوم ١٥ محرم ١٢٥٤هـ / ١٠ أبريل ١٨٣٨م^(٢)، واستجاب زعماء القبائل فوصلت الجمال المطلوبة يوم ١٨ محرم / ١٣ أبريل، بعد الموعد المحدد بثلاثة أيام^(٣)، وفي ٢١ محرم / ١٦ أبريل أرسل خورشيد ألف جمل إلى المدينة المنورة لنقل بقية القوات إلى نجد^(٤).

ولما اكتملت قوات خورشيد أسرع بالتقدم إلى نجد متحرّكاً من الحناكية في الثالث من صفر بصحبة حسن اليازجي رئيس الأدلاء فمر على قرية «كورية» ثم «الروضة»، إلى «الشبيبة» وأخيراً وصل عنيزة في ٢٠ صفر ١٢٥٤هـ / ١٥ مايو ١٨٣٨م، ونصب معسكره خارج البلدة، فأسرع أهلها بطلب الأمان فصالحهم وأجابهم إلى طلبهم^(٥). غير أن حادثة وقعت آنذاك بين جندي ويدوي أدت إلى توتر العلاقات، ونشوب قتال شديد بين أهل عنيزة وقوات خورشيد باشا، اضطرت القوات على أثره إلى محاصرة البلدة وتهديم أبراجها وأسوارها، فما كان من أهلها إلا أن طلبوا الأمان من جديد وإعلان الولاء، وقام خورشيد باشا بدخول البلدة واستقر بها خمسة أشهر، وفد عليه أثناءها عدد من مشايخ العربان يطلبون الأمان والدخول في الطاعة، كما راسل حاكم عام الحجاز أحمد باشا يكن ومحافظة المدينة المنورة طالباً منهم

-
- (١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠١، ترجمة الوثيقة التركية ٢٠٨ زرقاء، من محمد خورشيد إلى صاحب الدولة، بتاريخ ٤ شوال ١٢٥٤هـ / ٢٢ ديسمبر ١٨٣٨م.
- (٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، وثيقة ٣٧٢ حمراء، ٣ أصلية، رسالة من المير ميران محمد خورشيد باشا إلى صاحب الدولة، ٢٣ ذي الحجة ١٢٥٣هـ / ٢٠ مارس ١٨٣٨م.
- (٣) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، وثيقة ٣٧٢ حمراء، ٣ أصلية، رسالة من المير ميران محمد خورشيد باشا إلى صاحب الدولة، ٢٣ ذي الحجة ١٢٥٣هـ / ٢٠ مارس ١٨٣٨م، محافظ الحجاز: محفظة ١٠٢، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٩٤ حمراء، من محمد خورشيد باشا إلى صاحب الدولة، ٢٤ محرم ١٢٥٤هـ / ١٩ أبريل ١٨٣٨م.
- (٤) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠١، وثيقة ١٤٥ حمراء، رسالة من محافظ المدينة المنورة محرم بك إلى باشمعاون جناب داوري، بتاريخ ١١ صفر ١٢٥٤هـ / ٦ مايو ١٨٣٨م، محافظ الحجاز: محفظة ١٠١، ترجمة الوثيقة رقم ٩٤ حمراء، من محمد خورشيد باشا إلى صاحب الدولة، ٢٤ محرم ١٢٥٤هـ / ١٩ أبريل ١٨٣٨م.
- (٥) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠١، ترجمة الوثيقة التركية ٢٠٨ زرقاء، من محمد خورشيد إلى صاحب الدولة، بتاريخ ٤ شوال ١٢٥٤هـ / ٢٢ ديسمبر ١٨٣٨م.

تزويده بالإمدادات لإكمال مهمته، وفي نفس الوقت عمل على إعادة بناء قصر الصفا لاتخاذها قلعة له ولجنوده^(١).

وكان من أبرز الأحداث أثناء إقامة خورشيد باشا في عنيزة هو هروب جلوي إلى أخيه فيصل بن تركي في الخرج، وكان لا يزال بصحبته منذ ذهابه إليه في المدينة المنورة بصحبة عبد الله بن عبد المعين، كما ذكرنا، حيث استأذن من خورشيد الذهاب إلى بريدة^(٢)؛ لقضاء بعض حاجاته وحين وصلها هرب منها إلى الخرج^(٣) في ربيع الأول ١٢٥٤هـ / ١٨٣٨م، وحين أرسل خورشيد لفيصل بن تركي يستفسر منه عن أسباب هروب جلوي لم يوضح له شيئاً فاعتبر خورشيد ذلك دليلاً على سوء مقصده^(٤).

وقد استغل فيصل بن تركي طول فترة إقامة خورشيد باشا في عنيزة والتي بلغت خمسة أشهر، كما بينا، في مراسلة علي رضا باشا والي بغداد طالباً منه الدعم والمساعدة، وبدا التقارب واضحاً بين نجد والعراق، ولكن والي العراق أحجم عن تقديم المساعدات المطلوبة لفيصل بن تركي رغم اتحاد رغبتيهما بهزيمة خورشيد باشا والقضاء عليه، مرجعاً سبب ذلك إلى خوفه من إشاعة الخبر بين الناس.

غير أن الوثائق تبين أن السبب الرئيسي في ذلك هو ما وصل على رضا من مكاتبات من السيد عبد الجليل طبطبائي زادة^(٥) أحد أعيان البحرين يحذره فيها من دعم فيصل ومساعدته، لأن ذلك الدعم سيؤدي إلى تقويته بشكل تصعب معه السيطرة عليه، ولذلك يجب «أن تكون مساعدته بأشياء صغيرة...» غير أن علي رضا

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠١، نفس الوثيقة السابقة.

(٢) من أهم الواحات الزراعية بمنطقة القصيم، تشتهر بالزراعة لوقوعها على الحافة اليسرى لوادي الرمة الأدنى. حصة بنت جمان الملالي الزهراني: مرجع سابق، ص ٢٦.

(٣) عثمان بن عبد الله بن بشر: الجزء الثاني، ص ١٦٥.

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٢، ترجمة الوثيقة التركية ٢٢٠ حراء، رسالة من خورشيد باشا إلى سر عسكر الحجاز، ٢٥ جمادى الأولى ١٢٥٤هـ / ١٦ أغسطس ١٨٣٨م.

(٥) هو السيد عبد الجليل بن ياسين بن إبراهيم بن طه، يتصل نسبه بإبراهيم طباطباء. ولد بالبصرة ١١٩٠هـ / ١٧٧٦م، وتوفي بالكويت ١٢٧٠هـ / ١٨٥٣م. السيد عبد الجليل: روض الخل والخليل، (دمشق: منشورات المكتب الإسلامي، ١٩٦٤)، ص د؛ "السيد عبد الجليل الطباطبائي"، صحيفة الوسط البحرينية، العدد ١٢٠، (٤ يناير ٢٠٠٣).

لم يقدّم مساعدات صغيرة ولا كبيرة لدعم فيصل بن تركي الذي أصبح الخطر يحيط به أكثر من ذي قبل خاصة عندما بدأ خورشيد تحركاته من عنيزة في اتجاه الرياض تمهيداً لمواجهة القوات السعودية في الدلم.

وهنا حاول فيصل بن تركي الاستنجاد بزعيم آخر من زعماء العراق العثمانية، وهو قبطان البصرة محمد أغا تركي بلماز العدو اللدود لخورشيد باشا محذراً إياه من أن التقاعس عن نجدته سيترتب عليه سقوط الدلم مما سيفتح الطريق أمام قوات محمد علي إلى الإحساء ومن ثم البصرة ذاتها، وكان رد محمد أغا تركي بلماز في رسالة بعث بها إلى فيصل بن تركي يبلغه فيها أنه يستبعد أن يكون خورشيد باشا يخطط للاستيلاء على البصرة^(١)، وأنه يعتقد أن هذه مجرد إشاعات لا صحة لها لأن «الدولة العلية حفظها الله وقعت صلحاً مع محمد علي بشروط وروابط بوسائط جميع الدول، وإذا خالف محمد علي فتحاربه جميع الدول فكيف يتحرك محمد علي إلى البصرة؟ ويتحارب مع جميع الدول؟...»^(٢)، كما بين أن هدف الحملة هو الاستيلاء على نجد، وأخذ الأموال والأسلحة والرجال وإرسالها إلى مصر، وأوضح أن هدفه من نصحه هو تحذيره من خورشيد «لأنه يسري في الإنسان كما يسري الدم في الجسد... وإياك أن تأمنه...»^(٣)، ولم يعد فيصل بن تركي بأية مساعدة، واكتفى بزيادة الاستعدادات العسكرية في البصرة لمواجهة محتملة مع قوات محمد علي

(١) حيث كان لموقع البصرة الجغرافي على رأس الخليج العربي أهمية استراتيجية وثقافية واقتصادية مهمة جعلتها عطف أنظار القوى الأوروبية المختلفة التي لعبت دوراً في تاريخ الخليج الحديث، الأمر الذي جعل خورشيد باشا بمجرد استقراره في القطيف يفكر في فتحها، حيث نظر إليها على أنها مفتاح العراق الجنوبي، ولولا تردد محمد علي في منحه الإذن بذلك لتحقق ذلك بالفعل ودانت لمحمد علي. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: «دور البصرة في أحداث نجد وشرقي شبه الجزيرة العربية في عهد محمد علي ١٨١٩-١٨٤٠ من خلال الوثائق المصرية»، حولية كلية الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد ٤، (١٩٨١) ص ٦١؛ عماد أحمد الجواهري: «الدور التاريخي للبصرة على الخليج ١٥٠٠-١٦٠٠»، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ١٣، السنة ٤ (١٩٧٨)، ص ٨٣.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، وثيقة ١٢١ أصلية، رسالة من تركي بلماز إلى الإمام فيصل بن تركي، بدون تاريخ.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، وثيقة ١٢١ أصلية.

فيما لو واصلت تقدمها إلى أطراف العراق^(١).

وفي أواخر رجب ١٢٥٤هـ / ٢٠ أكتوبر ١٨٣٨م زحف خورشيد باشا بقواته^(٢) إلى الوشم^(٣)، حيث انضم إليه بعض الجنود من القويعة، ومنها إلى الرياض لاصطحاب خالد بن سعود معه إلى الدلم حيث يوجد فيصل بن تركي، وذلك ليعطي عمله في نظر القبائل شرعية تقوم على أساس استرداد حكم خالد على المناطق الخاضعة لفيصل بن تركي، كما انضم إليه أهل العارض وتحرك خورشيد من الرياض مارًا بمنفوحة إلى الدلم قاعدة إقليم الخرج، ورتب خورشيد القوات «وذلك خوفا من الهزيمة»^(٤).

ورغم الظروف الاقتصادية السيئة والصعوبات الكثيرة التي واجهت خورشيد باشا كنقص المؤن، وهروب البدو، ورفضهم تقديم جمالهم لنقل المعدات الضرورية، وارتفاع الأسعار بصورة غير مقبولة، إلا أنه استطاع إحراز الانتصار على قوات فيصل في وقعة عرفت بمعركة الخراب نسبة إلى المباني الخربة التي دارت

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٧ همراء، من مير ميران خورشيد باشا إلى صاحب الدولة والعاطفة، بتاريخ ٣ ربيع الآخر ١٢٥٥هـ / ١٥ يونيو ١٨٣٩م، المرفق العربي تقرير محمود أغا المورة، بتاريخ ٣ ربيع الآخر ١٢٥٥هـ / ١٥ يونيو ١٨٣٩م.

(٢) قدر خورشيد باشا عدد قواته حين كان في عنيزة بستة آلاف مقاتل (دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ٩٨، وثيقة ٢٣٦ زرقاء، رسالة إلى أحمد باشا حول توفير طبيب للحملة، ربيع الآخر ١٢٥٢هـ / يوليو ١٨٣٦م) ترك منها قرابة الألف هم قوام أورطتي الألاي الخامس عشر في عنيزة وسبار بالبقية (دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، وثيقة ٢٢ زرقاء، من خورشيد باشا إلى الباشمعاون الخديوي، ٧ شوال ١٢٥٤هـ / ٢٥ ديسمبر ١٨٣٨م) وقد عقد قيادتهم لعلي بك الشركسي (دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، وثيقة ٢٩ همراء، من خورشيد باشا إلى الباشمعاون الخديوي، ٨ شوال ١٢٥٤هـ / ٢٦ ديسمبر ١٨٣٨م)، وكان تحركه من عنيزة في بداية العشر الآخر من شهر رجب (عثمان بن عبد الله بن بشر النجدي الحنبلي: الجزء الثاني، ص ١٦٥) وكانت أولى محطاته بعد التحرك هي بلدة المذنب جنوب عنيزة على بعد مسيرة يوم واحد منها حيث وصلها ٢١ رجب دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ٩٩، وثيقة ٦٣ همراء، من خورشيد باشا إلى صاحب الدولة، ٢٣ رجب ١٢٥٤هـ / ١٣ أكتوبر ١٨٣٨م.

(٣) ناحية من نواحي نجد، تشتمل على عدة قرى أشهرها شقراء وهي قاعدة الوشم، وثرمداء. عثمان بن عبد الله بن بشر: الجزء الثاني، ص ٢١١.

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٢، وثيقة ٢٢٠ زرقاء، إلى الباشا السر عسكر، بتاريخ ٢٥ جمادى الأولى ١٢٥٤هـ / ١٦ أغسطس ١٨٣٨م.

بها وهي قرية قريبة من الدلم^(١).

وترتب على المعركة تراجع فيصل بن تركي إلى الدلم^(٢)، وصمم أن يخوض من وراء أسوارها المعركة الأخيرة، حيث تقدم خورشيد لحصارها فور نهاية المعركة، في الوقت الذي عانى فيه من نقص في الذخائر الحربية مما جعله يرسل إلى مصر طالبًا المزيد منها^(٣).

وفي أعقاب تلك الهزيمة القاسية التي لقيها فيصل بن تركي توالى عليه النجيدات من الأمراء والعربان المواليين له، فوصل إلى معسكره أمير الإحساء عمر بن عفيصان^(٤) على رأس قوة لنجدته، واغتنم خورشيد تلك الفرصة وأرسل قوة كبيرة أغارت على «زميقة» واستولت على ما بها من بُر وشعير وتمر وأمتعة، الأمر الذي حسن من وضع قواته بالرغم من فقدته بعض كبار قادة الحملة^(٥)، وعلى إثر ذلك النصر الذي أحرزه خورشيد في معركة «زميقة» تشجع على مواصلة الحصار للدلم، في الوقت الذي لم يجد فيصل بن تركي أمامه مغيث سوى «تركي بلماز» قبطان البصرة وعدو خورشيد اللدود، فبعث إليه طالبًا النجدة مُحذِّراً له من مغبة التقاعس عن نجدته في هذه الأزمة لأن سقوط الدلم سيفتح الطريق أمام القوات المصرية إلى الإحساء والبصرة.

ولكن تركي بلماز لم يجد ما يرسله لفيصل بن تركي، لأن علي رضا باشا لم يكن يدرك أن موقف فيصل بن تركي سيتدهور بهذه السرعة أمام خورشيد باشا،

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٢، وثيقة ٦ أصلية، إلى سر عسكر أقطار الحجاز، بتاريخ غاية رمضان ١٢٥٤هـ / ١٨ ديسمبر ١٨٣٨م.

(٢) عثمان بن عبد الله بن بشر: الجزء الثاني، ص ١٦٧.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٢، وثيقة ٧٩ حمراء، رسالة من خورشيد باشا إلى حسين باشا كبير معاوني الجناح العالي، ٢ ذي القعدة ١٢٥٤هـ / ١٨ يناير ١٨٣٩م.

(٤) كان عمر بن عفيصان أمير الإحساء من أشد مؤيدي فيصل بن تركي، وشاركه في أكثر حروبه ضد خورشيد باشا، ولما استسلم فيصل بن تركي عام ١٢٥٤هـ / ١٨٣٨م عفا عنه خورشيد باشا، ولكنه لم يبق في عقوه فهرب إلى البحرين ثم الكويت، وبعد عامين عاد إلى الرياض ودخل في خدمة خالد بن سعود، فلما ظهر ابن ثنيان أيده فكافأه بأن أعاده أميراً على الإحساء حصنة بنت جمعان الهلالي الزهراني: مرجع سابق، ص ٣٢.

(٥) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٢، وثيقة ٥ حمراء مكررة، رسالة من خورشيد باشا إلى الباشمعاون الخديوي، ٤ شوال ١٢٥٤هـ / ٢٢ ديسمبر ١٨٣٨م.

فلم يترك من القوات في البصرة أو في بغداد ما يكفي لإرساله إلى نجد على وجه السرعة لنجدة فيصل قبل معركة الدلم الفاصلة، وذلك لأن القوات العثمانية في العراق كانت تحتشد في ديار بكر ونزيب استعدادًا لخوض المعركة الفاصلة، فلم يجد تركي بلماز غير كلمات التشجيع^(١)؛ ليرك فيصل بن تركي لمصيره أمام خورشيد باشا، إذ لم يلبث فيصل أن أدرك أنه لا جدوى من متابعة القتال، واستسلم لخورشيد باشا، وطلب الصلح، وأرسل مندوبًا عنه هو إبراهيم بن عبد الله أبو ظهير إلى خورشيد للتفاوض معه في العشر الأخير من رمضان^(٢)، حيث تم الاتفاق بينهما على استسلام فيصل بن تركي وإلقائه السلاح وأن يسافر وأخوه جلوي وولده عبد الله ومحمد وابن أخيه عبد الله بن إبراهيم إلى مصر للإقامة فيها، على أن يقوم خورشيد باشا بحقن دماء أهل الدلم وأموالهم وجميع من مع فيصل من أهل العارض وغيرهم^(٣).

وعلى هذين الشرطين تم الصلح، وسلم فيصل بن تركي نفسه في العشر الأخير من رمضان ١٢٥٤هـ/ ديسمبر ١٨٣٨م، الأمر الذي سر محمد على كثيرًا، وعد خبر القبض على فيصل بن تركي وإقصائه بشارة كبرى^(٤)، ورغم رغبة فيصل بن تركي في البقاء في المدينة المنورة إلا أن طلبه قوبل بالرفض^(٥) خشية أن يتمكن من جمع قواه من جديد، وخرج فيصل بن تركي أسيرًا في يد القوات المصرية، وبقي في معسكر خورشيد باشا أربعة أيام، ثم رحل ومعه أخوه جلوي في ٢ شوال ١٢٥٤هـ/ ٢٠ ديسمبر ١٨٣٨م بصحبة حسن اليازجي إلى القاهرة^(٦)، وظل بها

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٢، المرفق العربي للوثيقة التركية رقم ٩ أصلية، ٤٨ حمراء، من الحاج محمد قيودان «تركي بلماز» إلى الشيخ فيصل بن تركي، رجب ١٢٥٤هـ/ سبتمبر ١٨٣٨م.

(٢) عثمان بن عبد الله بن بشر: الجزء الثاني، ص ١٧٢.

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: محمد علي وشبه الجزيرة العربية، ص ٣٠٩.

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ١٥٧ حمراء، رسالة من خورشيد باشا إلى الباشمعاون الخديوي، غرة ربيع الأول ١٢٥٥هـ/ ١٥ مايو ١٨٣٩م.

(٥) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٨ أصلية، ٤٤ حمراء، رسالة من خورشيد باشا إلى صاحب الدولة، ٢١ محرم ١٢٥٥هـ/ ٦ أبريل ١٨٣٩م.

(٦) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٢ أصلية، صورة خطاب وارد من

إلى أن ساعده عباس حلمي الأول على الهرب فعاد مرة أخرى إلى الرياض في ١٢٥٩هـ / ١٨٤٣م، ولبت أميراً عليها إلى أن توفي في سنة ١٨٦٦م.

وحكم خالد بن سعود ستين إلى أن أكره على الرحيل في أعقاب رحيل قوات محمد علي من الجزيرة العربية على إثر معاهدة لندن ١٨٤٠م ليخلفه عبد الله بن ثيان^(١) حتى عام ١٨٤٣م عندما عاد فيصل بن تركي من مصر ليتسلم مقاليد الإمارة إلى أن وافاه الأجل، ووصلت الدولة السعودية في عهده أوجها^(٢)، وأصبحت أكثر اتساعاً عن ذي قبل في أيام الدولة السعودية الأولى.

وما أن علمت بريطانيا بتسليم فيصل بن تركي إلا وأسرعت تحت تأثير تقارير مبعوثيها - وبصفة خاصة التقرير الذي كتبه الكابتن جيمس ماكينزي في ٦ يناير ١٨٣٧م موضعاً أنه «أثناء مروره بجدة لمس من خلال أحاديثه مع كبار ضباط الجيش المصري أن محمد علي بعد أن يتمكن من فتح عسير بالقوة والرشوة فإنه سيقبض قواته إلى عدن ومن بعدها حضرموت ومنها إلى عمان ومسقط، وبعد ذلك يصبح فتح العراق سهلاً»^(٣) - بالكتابة إلى محمد علي محذرة إياه من التقدم إلى الخليج، ولم يشأ محمد علي أن يصطدم بالمصالح البريطانية فسعى لإقناع السلطات البريطانية برغبته في المحافظة على مصالحها في الجزيرة العربية والبحر الأحمر، ونجح في ذلك بدليل تسليم القنصل البريطاني في القاهرة خطاباً له من الحاكم البريطاني في بومباي جاء فيه «إن الحكومة البريطانية في الهند ترغب في

حاكم عام الحجاز، بتاريخ ٧ ربيع الأول ١٢٥٥هـ / ٢١ مايو ١٨٣٩م، ووثيقة أصلية ٤٨ هراء، رسالة من خورشيد باشا إلى صاحب الدولة حول مرافقة حسن اليازجي لفصل بن تركي، ٢١ محرم ١٢٥٥هـ / ٦ أبريل ١٨٣٩م.

(١) هو عبد الله بن ثيان بن إبراهيم بن محمد بن ثيان بن سعود بن محمد بن مقرن، استغل رحيل قوات محمد علي من الجزيرة العربية ليطالب بإمارة نجد، وتمكن من الانتصار على خالد بن سعود سنة ١٢٥٧هـ / ١٨٤١م، واستمر منافساً له حتى عودة فيصل بن تركي من مصر ليستعيد منه الإمارة على نجد، وقد توفي يوم الجمعة ١٥ جمادى الآخرة ١٢٥٩هـ / ١٣ يوليو ١٨٤٣م. عثمان بن عبد الله بن بشر: الجزء الثاني، ص ١٩١، ٢١٤، حصة بنت جعان الهلالي الزهراني: مرجع سابق، ص ٢٨.

(٢) علي سلطان: تاريخ العرب الحديث ٦١٥١-٨١٩١، (طرابلس: منشورات مكتبة طرابلس العلمية، ٨٩٩١)، ص ١٦٢.

(3) F. O: 78 / 318, Report of captain Mackenzie 6. Jan. 1837.

تدعيم الصداقة والشعور الطيب بينها وبين الحكومة المصرية وأن يزداد التبادل التجاري بين البلدين بما يعود بالفائدة على رعايا الحكومتين»^(١).

وتضمنت الرسالة طلب الحاكم البريطاني من محمد علي السماح للإنجليز بأن يُقيموا محطة للفحم في جزيرة قمران^(٢) الواقعة تحت حكمه آنذاك لتزويد البواخر البريطانية بالوقود والفحم، وقبل محمد علي على الفور التماسه، وأصدر لحاكم اليمن أحمد باشا يكن تعليماته بالسماح بإقامة هذه المحطة وطلب منه تسهيل مهمة السفن البريطانية في مياه اليمن، وفي الوقت نفسه وافق على بناء الإنجليز مخزنًا «لوضع الفحم الخاص بالبواخر الإنجليزية التي تتردد على القصير» في جنوب مصر^(٣).

ورداً على تلك الخطوة أبلغ الممثل البريطاني في القاهرة شكر وزير خارجيته، فأعلن محمد علي أن فتوحاته في الجزيرة العربية سواء في اليمن أو في الخليج لن تبلغ أكثر من إخضاع السعوديين وحماية الحرمين الشريفين، كما أعلن عن استعداده لتقديم الضمانات الكافية لتسهيل الاتصال البحري بين مصر والهند.

غير أن بريطانيا لم تُسلم بذلك وسارعت لتوطيد علاقاتها مع أمراء الخليج، وفي الوقت نفسه كلفت بعثة تشيزني للقيام بمسح لنهري دجلة والفرات لاختبار صلاحيتهما للملاحة البخارية في سنة ١٨٣٤ م لكي تفتح طريقاً آخر بديلاً لطريق

(1) F. O: 78 / 318. from Government of Bombay to Moh. Ali, enclosure in Campbell's of 23. February, 1837.

(٢) جزيرة على بعد مائتي ميل شمال مضيق باب المندب، بالقرب من الساحل اليمني إذ لا تبعد عنه سوى ثلاثة أميال، وهي جزيرة كبيرة وسط مجموعة من الجزر الصغيرة، غير أن الأماكن الضحلة حولها تشكل مرسى، يمكن أي عدد من السفن من أن ترسو فيه لأن المياه هادئة في جميع المواسم، لوقوعها على خط عرض تتلاقى فيه الرياح الموسمية، فلا تهب أبداً بالقوة التي تهب بها جنوبها وشمالها، ويوجد بها عدد من الآبار تغذيها بالمياه العذبة، الأمر الذي منح الجزيرة أهمية خاصة كمحطة تزويد للسفن البريطانية، وجعل محمد علي ما أن استقر في اليمن إلا وبدأ التطلع إليها: أحمد محمد عبيد بطي: الصراع البرتغالي العثماني في القرن السادس عشر، (دبي: ندوة الثقافة والعلوم، ١٩٩١) ص ١٠٣؛ سلطان بن محمد القاسمي: الاحتلال البريطاني لعدن، ص ٧٢.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، وثيقة ١٢١ حمراء، ١، أصلية، من حسين شريف محافظ القصير إلى المعية السنية، في ٢٠ رمضان ١٢٥٣ هـ / ١٩ ديسمبر ١٨٣٧ م.

مصر البحر الأحمر^(١)، الذي أصبح تحت السيطرة المصرية حتى احتلال بريطانيا لعدن عام ١٨٣٩م^(٢)، كما أرسلت قواتها إلى البصرة، واحتلت جزيرة خرج عام ١٨٣٨م التي تقع بالقرب من البصرة بهدف مراقبة التحركات المصرية في الأجزاء الشمالية من الخليج.

ولا شك أن إرسال بعثة تشيزني في التوقيت الذي نجحت فيه حملة خورشيد في الوصول إلى الخليج والتفكير في تقدمها لجنوب العراق يؤكد أن أهداف هذه البعثة كانت أبعد من دراسة مدى صلاحية نهري دجلة والفرات للملاحة البخارية، بل إنها أرسلت لهدف أكثر أهمية من ذلك ألا وهو مراقبة النشاط المصري في الخليج وجنوب العراق في الوقت الذي كانت بريطانيا تحول فيه بين المصريين والعراق^(٣).

وعقب سقوط الدولة السعودية الأولى وتدمير الدرعية، سارع حاكم عام الهند البريطانية بإرسال ضابطاً بريطانياً من الكتيبة ٤٤ مشاة، يُدعى جورج فورستر سادلير Captain George Forster Sadlier، أتى من بومباي في الهند، كي ينقل تهاني البريطانيين إلى إبراهيم باشا لإستيلائه على الدرعية وتدميرها، وقد أعطي الصلاحيات لإبرام معاهدة صداقة وتحالف معه بقصد إضعاف الحركة الوهابية وإخمادها، والاستيلاء على رأس الخيمة لوضع حد لنشاطات القواسم الوهابيين في الخليج العربي. إذ من مهامه التي كلف بها كانت الاتصال بإبراهيم باشا، نجل محمد علي باشا والي مصر، في محاولة لتنسيق المواقف تجاه القواسم في الخليج، في وقت كانت السفن العربية تسبب الكثير من المتاعب للتجارة البريطانية، مما حدا بالإنجليز لأن يرسلوا للبasha بهدف أن يتعاون معهم للقضاء "القراصنة" في الخليج العربي، حسب توصيف البريطانيين لهم. وكان سادلير يتوقع أن يلتقي بإبراهيم باشا في الدرعية، ولكنه عندما وصل القطيف لم يجد أحداً يعرف مكان البasha، وأنه خرج منها في طريق عودته إلى مصر، وإن كان الأرجح أنه كان في الهفوف، على مسيرة بضعة أيام، وابتدأ سادلير رحلته من القطيف في شهر يونيو سنة ١٨١٩م، مصطحباً

(1) Zaki Saleh: Mesopotamia (Iraq) A study in British foreign affairs, (Baghdad, al - ma-aref press, 1957), p 150, 151.

(٢) سلطان بن محمد القاسمي: الاحتلال البريطاني لعدن، ص ٨، ٧؛ سلطان ناجي: الخلفية التاريخية للاحتلال البريطاني لعدن؛ ص ٣٦.

(٣) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٢١٠.

معه حراسًا عربًا، هم مجموعة من بدو المنطقة، وشد الرحال إلى الهفوف، وبعد جهد جهيد وصلها، ولكن إبراهيم باشا وقتها كان قد قرر الانسحاب من نجد، فتوجه سادليز أولاً إلى الرس، ومنها إلى الإحساء ثم إلى رماح فمفوخة والدرعية. وأجبرته ظروف المهمة التي أرسل من أجل القيام بها على الاتجاه غربًا في اتجاه المدينة المنورة حيث وصل إلى أطرافها بعد ١١ أسبوعًا من مغادرته القطيف، كي يلحق بالقائد المصري حتى التقاه أخيرًا عند آبار علي قرب المدينة المنورة.

ويقول إن إبراهيم باشا أحسن استقباله، وأبدى اغتباطه بالسيف، وهو هدية قدمت إليه من قبل حاكم عام الهند، ولكن الباشا رأى في سادليز أنه مجرد جندي صغير ليس مؤهلًا لمناقشة الجوانب السياسية لمهمته، ولهذا انتهت مهمته نهايةً مأساوية جعلته يعود بخفي حنين، ورد الباشا على هدية حاكم الهند بجوادين مطهمين أرسلهما إلى سادليز، إلا أن الأخير وبحماسة غير عادية أعاد سرجي الجوادين بزعم أنه لاحظ أنهما مستعملين، فما كان من إبراهيم باشا إلا أن ألغى الهدية، وأمر بطرد الضابط الوقح في الحال، وبعد أن مر سادليز قرب المدينة المنورة التي لا يُسمح أن يدوس على أرضها وشوارعها غير مسلم، وصل أخيرًا إلى شواطئ البحر الأحمر قرب ينبع، وعلى الرغم من مقدرة على الاحتمال ونشاطه إلا أنه لم يكن كفؤًا لإبراهيم باشا دبلوماسيًا، وذلك لأن إبراهيم لم يكن بحاجة إلى البريطانيين، وهكذا فقد فشلت البعثة في أهدافها الرئيسية، ولم يحدث أي تقارب أو اتفاق بين محمد علي والبريطانيين.

وانتظر سادليز في جدة بضعة أشهر وجد لوصول سفينة بريطانية، وأخير وصلت فاستقلها إلى الهند. والنتيجة الأبرز لرحلته هي تقديمه لوصف شامل لكافة مناطق شبه الجزيرة العربية التي مر بها، إذا كان أوائل الأوروبيين الذين وصلوا إلى المناطق الشرقية والشمالية من الجزيرة العربية. ولكن ظلت تفاصيل رحلته لحوالي خمسين عامًا رهن أرشيف حكومة الهند البريطانية دون أن يفرج عنها، وقبل أن تُنشر نتائج تلك الرحلة، وأصبحت معروفة لدى مجموعة واسعة من المجموعات الأدبية والدوائر العلمية في بومباي. ومن ذلك الحين فصاعدًا بدت بلاد العرب، وكأنها لغزًا أو حصنًا محصنًا أمام الغربيين، ولم يتجرأ أحد على اقتحامها سوى بعض الرحالة الذين جلبهم طالعهم إلى تلك المناطق. وأصبح سادليز واحدًا من الرواد

المستكشفين المتطوعين لبلاد العرب، وقد عبر شبه الجزيرة من الشرق إلى الغرب، وربما كان أول أوروبي يقوم بهذا العمل، وذلك بحماية من جيش إبراهيم باشا، قائد قوات محمد علي في شبه الجزيرة العربية، ومع أن رحلته كانت في شهري يونيو ويوليو، أي أشهر الحر القائن، إلا أنه يذكر أنه قد نجا من ويلات الصيف في الصحراء بعد سقوط الأمطار غير الموسمية^(١).

(١) جورج فورستر سادلير: رحلة عبر الجزيرة العربية خلال عام ١٨١٩م، سعود بن غانم العود بن غانم الجمران العجمي (تحقيق)، (الكويت: مطابع القبس، ٢٠٠٥)، ص ١١-١٣.

دور خورشيد باشا في بسط النفوذ المصري في الخليج

بعد أن استتب الأمر لخورشيد باشا في نجد، أسند إدارة الأمور في الرياض إلى خالد بن سعود^(١)، واتخذ من ثرمداء قاعدة لحكمه، بعدما قرر الإقامة فيها في مطلع شهر ربيع الأول ١٢٥٥هـ/ مايو ١٨٣٩م، وقام ببناء قصر فيها ليكون مقر لحكومته^(٢)، بدأ يدرك أهمية الإحساء لمد الجيش بالحبوب من العراق^(٣)، بالإضافة لأهميتها الاستراتيجية لأنها ستفتح إمارات الخليج^(٤)، ولكنه عندما كتب إلى محمد علي في مصر طالباً منه السماح له بالتقدم إلى الإحساء والقطيف «قبل فوات موسم الشتاء»^(٥)، لأن «وجود سفيتين مسلحتين هناك (القطيف) مفيد للمصلحة من جهة، ومفيد في جلب الذخيرة من جهتي البصرة والكويت»^(٦)، إضافة إلى هجرة كثير من العشائر النجدية والإحسانية إلى العراق وعلى رأس تلك العشائر عشائر المطير

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: محمد علي وشبه الجزيرة العربية، ص ٣١١.
(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٩٨، رسالة من محرم أغا كبير معاوني الجتاب العالي حول سيطرة خورشيد على نجد والإحساء، ٩ صفر ١٢٥٥هـ/ ٢٣ أبريل ١٨٣٩م.

(٣) خاصة بعدما أدرك أن نجد «ليست على شيء من الزراعة فإن لم ننظم فلاحتها بعد مدة وجيزة على أسلوب آخر فلن نفني بمعيشة العساكر» دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٢، ترجمة الوثيقة التركية ٢٠٨ زرقاء، من محمد خورشيد إلى صاحب الدولة، بتاريخ ٤ شوال ١٢٥٤هـ/ ٢٢ ديسمبر ١٨٣٨م.

(٤) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٢١٤.
(٥) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٢، وثيقة ٥٠ أصلية، ٦٦ همراء، من خورشيد باشا إلى صاحب الدولة، ٢٣ رجب ١٢٥٤هـ/ ١٣ أكتوبر ١٨٣٨م.

(٦) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٢، وثيقة ٥٨ أصلية، ١١ همراء، من مير ميران خورشيد باشا من دلم إلى الباشمعاون الخديوي، ٤ شوال ١٢٥٤هـ/ ٢٢ ديسمبر ١٨٣٨م.

الكبيرة بزعامة الدويش^(١)، فجاءه رد محمد علي بأنه لا يشجع ذلك في هذه الظروف التي تتفرق فيها قواته، وإذا أراد ذلك يكون بالتقدم السلمي عن طريق منح «أهل الإحساء الأمان لأنه ليس من الجائز إرسال حملة عليهم والتقدم إلى الأمام بهذا القدر والقوات في حالة تفرق»^(٢).

فعمل خورشيد باشا بعد أن تم الصلح بينه وبين فيصل بن تركي على مراسلة رؤساء أهل الإحساء مانحاً إياهم الأمان، طالباً منهم القدوم إليه فخرجوا جميعاً قاصدين خورشيد باشا في أواخر شوال ١٢٥٤هـ / يناير ١٨٣٩م، إلا عمر بن عفيصان حاكم الإحساء من قبل آل سعود الذي قصد البحرين فاستقر بها بعض الوقت^(٣)، إلى أن أرسل خالد بن سعود يطلب تسليمه فغادرها إلى الكويت، أما عربان الإحساء فبالرغم من خضوعهم للقائد المصري خورشيد إلا أنهم ظلوا يثيرون المتاعب والإضطرابات حتى انسحاب قوات محمد علي من الجزيرة العربية.

ولما كان مخطط محمد علي يهدف إلى السيطرة على كل مناطق شبه الجزيرة العربية التي كانت تابعة لآل سعود، فضلاً عن الكويت والعراق لتلتحم هذه المناطق مع بلاد الشام لتصبح وحدة واحدة تحت نفوذه، وتحقيقاً لهذا الهدف قام خورشيد باشا في ٣ ذي القعدة ١٢٥٤هـ / ١٩ يناير ١٨٣٩م بتعيين نائب عنه لحكم الإحساء وهو محمد أفندي رفعت^(٤)، الذي لعب دوراً مهماً في تاريخ الإحساء والمنطقة

(١) حيث جاءت الدعوة إلى تلك العشائر من خلال المكاتبات التي بعث بها والي بغداد علي رضا باشا وقبطان البصرة تركي بلماز إليهم يدعونهم إلى الهجرة للعراق. دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٥ أصلي، ٩٨ حمراء، في ٩ صفر ١٢٥٥هـ / ٢٣ أبريل ١٨٣٩م. ولم يكن ذلك بجديد على ولاية بغداد فقد نفذ تلك الخطة من قبل سليمان باشا الكبير والي بغداد (١٧٧٩-١٨٠٢) عندما استدعى إلى العراق عشائر شمر الجربا والصفير خلال أزمة الضغط الوهابي على العراق ليستخدمهم في هجمات مضادة على نفس الأسس الإستراتيجية التي تعتمد عليها عشائر نجد. عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٢١٦.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٢، وثيقة ٥٨ أصلي، ١١ حمراء، من المير ميران خورشيد باشا من دلم إلى الباشمعاون الخديوي، في ٤ شوال ١٢٥٤هـ / ٢٢ ديسمبر ١٨٣٨م، إرادة مزيلة إفادة من عباس باشا رقم ١٧، في ١٢ ذي القعدة ١٢٥٤هـ / ٢٨ يناير ١٨٣٩م.

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: «البحرين والقوى المتنافسة في الخليج ١٨٠٠ - ١٨٤٣»، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد السادس (١٩٨٣) ص ٤١.

(٤) عثمان بن عبد الله بن بشر: الجزء الثاني، ص ١٧٧.

المجاورة إبان هذه الفترة، فبعد أن أقر الأمن وضمن خضوع الإقليم لسلطته، توجه إلى ميناء القطيف لأهميته وصلاحيته للملاحة، وفي تلك المرحلة أدرك خورشيد أنه لكي يتم فرض سيطرته على منطقة الخليج لابد من وصول إمدادات بحرية له من جدة^(١) إلى القطيف فأرسل إلى حاكم عام الحجاز يطلب منه هذه الإمدادات، ولكن الرد جاء من القاهرة بالرفض بسبب «أن إرسال السفن من جدة إلى ميناء القطيف لا يوافق بسبب بعض المحذورات»، ولاشك أن المقصود بتلك المحذورات هو الوجود البريطاني في الخليج^(٢).

وقد حاول خورشيد باشا الوقوف على إيضاح لعبارة «بعض المحذورات» من عباس باشا معللاً طلبه هذا بأنه «ولكوننا من خمسة أشهر لا علم لنا بأحوال تلك الجهات فإننا لا نعلم ما هي المحذورات التي جاء ذكرها في كتاب حضرة المشار إليه، وبما أننا مربوطون بكل شيء بذلك الطرف كما هو معلوم للجميع فإننا نرجو منكم أن تتفضلوا وتوضحوا لنا تلك المحذورات حتى نأخذ حذرنا منها...»^(٣)، ولكن سلطات القاهرة لم تُجب طلبه.

وبدأ خورشيد يتفهم حقيقة الموقف حينما بدأ تنفيذ مخططة معتمداً على قوته الذاتية، فبعد دراسة متأنية من محمد رفعت^(٤) أدرك أن آل خليفة لا يهتمون بالإحساء

(١) ميناء على ساحل البحر الأحمر مزدهر اقتصادياً بسبب اتصاله بمصر واليمن وغيرها الأمر الذي أحدث له رواجاً تجارياً. حصّة بنت جمعان الهلالي الزهراني: مرجع سابق، ص ٦٧٧.

(٢) حيث يذهب أحد الباحثين إلى أن عباس باشا كتب محمد علي، الذي كان في ذلك الوقت في السودان، قد وافق على إرسال سفينتين إلى القطيف، وأصدر أوامره إلى خورشيد باشا معتقداً أن السلطات البريطانية لن تعارض ذلك، غير أنهم بمجرد أن عرفوا بأمر تلك السفينتين إلا وبدأوا يُمارسون الضغط على عباس باشا لإلغاء أوامره السابقة، ومن ثم كتب إلى خورشيد باشا ذاكراً أن «إرسال السفن من جدة إلى القطيف أمر لا يوافق بسبب بعض المحذورات...» دون أن يشير إلى أن الإنجليز هم من وراء العدول عن تلك الأوامر. عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٢١٧.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٢ أصلية، ٣٧ هـ، رسالة من خورشيد باشا إلى عباس باشا يستفسر عن المحذورات التي تمنع إرسال السفن إليه، ١٩ محرم ١٢٥٥ هـ/ ٤ أبريل ١٨٣٩ م.

(٤) هو محمد رفعت أفندي الكولمن زادة، كان يوزباشياً في أورطة البلطة جي من البلوك الحادي عشر الذي كان بالشام، وأصيب في اشتعال لغم أثناء حصار مدينة عكا فنقل للعلاج في القاهرة،

قدر اهتمامهم بالقطيف، فراح يُفكر في عقد صلح بينه وبين شيخ البحرين عبد الله بن أحمد آل خليفة الذي كان في مأزق كبير نتيجة محاولات الإنجليز والفرس ضم بلاده لسيطرتهم وبدأ هذا الحاكم المصري بالمبادرة فزار البحرين وعرض وجهة نظره على شيخها، وهي أن تدخل البحرين في دائرة النفوذ المصري بموجب معاهدة صلح ويقدم بموجبها الزكاة التي ستفرض على بلاده.

وبعد أن استقر خورشيد باشا في الإحساء حاول إغراء شيوخ القطيف بالانضواء تحت سيادة مصر ليتخذ منها مركزاً للاتصال بعمان وساحل عمان والكويت، ولما كانت بريطانيا قد حققت أهدافها في المنطقة بتوقيع اتفاقية ١٨٢٠م^(١) مع مشيخات الساحل في أعقاب حملتها على رأس الخيمة ١٨١٩م^(٢)، فإنها قد عارضت التوسع المصري بشدة خوفاً من ظهور قوة جديدة تنازعها النفوذ في الخليج، إذ قدرت أن وصول القوات المصرية إلى سواحل شرقي شبه الجزيرة العربية يمكن مصر من السيطرة على الخطوط الملاحية التي تصل أوروبا بالهند^(٣).

وقد كان لامتداد سيطرة خورشيد باشا على الإحساء تأثيره البالغ في البصرة حيث «شاع بين الناس أن خورشيد باشا يزحف على البصرة» فطلب محمد أغا تركي بلماز من علي باشا والي بغداد أن يبعث إليه بوجه السرعة عسكرياً وأسلحة و«جبة خانة بقدر ما يكفي للمحافظة على البصرة»^(٤) للوقوف في وجه هجوم خورشيد

وبعد تلقيه العلاج قيد معاوناً بديوان الجهادية في ربيع الأول ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م، ولما كلف خورشيد باشا بحملة الحجاز اصطحبه معه، وظل على رتبة اليوزباشية، وكان مرتبه ستانة قرش دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، وثيقة ٣٨٧، من خورشيد باشا بالحناكية إلى حسين باشا باشمعاون الخديوي، ٢٩ ذي الحجة ١٢٥٣هـ / ٢٦ مارس ١٨٣٨م.

(١) Hurewitz. J.C: op – cit , pp 88 – 90.

(٢) وإلى هذه الحملة أشار ابن بشر فكتب يقول «وفي... منتصف صفر سار النصاري على أهل رأس الخيمة المعروفة في عمان وأقبلوا في مراكب عظيمة ومدافع هائلة وعساكر لا تحصى وكيد هائل فيندروا في البلد وحاربوها براً وبحراً فهربوا منها أهلها وتركوها لهم ودخلها النصاري ودمروها» عثمان بن عبد الله بن بشر النجدي الحنبلي: الجزء الأول، ص ٤٥٠، وقد تعاون سلطان مسقط مع الإنجليز إبان حملتهم تلك. أحمد عبيدي: الحملة العسكرية على رأس الخيمة ١٨١٩، ص ١٦٩.

(٣) محمد حسن العيدروس: تاريخ شبه الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، ص ٢٨٢.

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٧، من خورشيد باشا إلى صاحب

باشا المرتقب على العراق.

ولكن يبدو أن سوء الوضع في بغداد والبصرة جعل سكان العراق متشوقين إلى التغيير والانضواء تحت لواء حكم محمد علي فقد أفاد أعوان خورشيد باشا الذين كانوا يجمعون المعلومات، «وينشرون الدعاية لمحمد علي في العراق بين السكان الناقمين على الحكم العثماني»، وعلى رأسهم الشيخ حمود بن جसार العالم النجدي الذي كان يعمل قاضيًا في الزبير أن أهل العراق «إذا تحقق لديهم أن خورشيد باشا قاصدًا البصرة ثم العراق فالجميع راغبون ومشتاقون إلى خدمة سعادة أفندينا محمد علي»^(١).

وليس أدل على رغبة أهل العراق في التغيير والخضوع لمحمد علي باشا من تلك الإشاعات التي كانت تعكس آمالهم في الخلاص من الحكم العثماني، والتي كانت تجوب العراق من شماله إلى جنوبه من أن «إبراهيم باشا يكن قد خرج من الدرعية وأتى البصرة حيث استولى على البصرة»^(٢)، وفي طريقه إلى بغداد^(٣)، كما انتشرت حالة القلق والاضطراب في العراق نتيجة لسيطرة المصريين على نجد والإحساء والقطيف وتطلعهم إلى الخليج وتخوم العراق الجنوبية^(٤)، فضلاً عن إمساكهم بمنافذ العراق الشمالية في منطقة الجزيرة.

ليس هذا فقط بل إن نقيب الأشراف بالبصرة عبد الرحمن أفندي^(٥) واثنين من

الدولة، ٣ ربيع الآخر ١٢٥٥ هـ / ١٥ يونيو ١٨٣٩ م.

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، صورة الوثيقة العربية رقم ٤ هراء، من خورشيد باشا إلى باشمعاون جناب داوري، غرة جمادى الثانية ١٢٥٥ هـ / ١١ أغسطس ١٨٣٩ م.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٨١، وثيقة ١٨٨ / ٢٧-٢، من محمد معجون بك إلى الجناب العالي، في ١٣ جمادى الأولى ١٢٥٥ هـ / ٢٤ يوليو ١٨٣٩ م.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٨١، صورة الوثيقة العربية ١١٥ / ٢٧-٤٥، من الشيخ محسن إلى محمد بك، دون تاريخ، ووثيقة ١١٥ / ٢٧-٤٣، بتاريخ جمادى الأولى ١٢٥٥ هـ / يوليو ١٨٣٩ م.

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٨١، ترجمة الوثيقة ٢٠٦ / ٢٧، من محمد معجون بك إلى الجناب العالي، في ٢٤ جمادى الأولى ١٢٥٥ هـ / ٤ أغسطس ١٨٣٩ م.

(٥) الأفندي كلمة تركية من أصل يوناني تطلق على السيد أو الأديب أو الفاضل. يوسف عز الدين: داوود باشا ونهاية المماليك في العراق، (بغداد: مطبعة الشعب، ١٩٧٦)، ص ٢٢، واستعملها

رجال الإفتاء وبعض الأعيان أبدوا استعدادهم لتمهيد السبيل لخورشيد باشا وأنه إذا توجه لطرفهم سلموا «له البصرة بغير نزاع»^(١)، كما أن كثير من شيوخ القبائل كتبوا إلى خورشيد باشا معلنين أنه «إذا تحقق أنه قادم إلى هذا الطرف وثبت عندنا أنه متوجه إلى محروسة البصرة فنحن خدام ومطيعين لأمره واقفين في خدمته»^(٢)، كما أن بعضهم هرب إلى نجد وقابل خورشيد باشا، وطلبوا إليه أن يسمح لهم بالإقامة في كنفه إلى أن يحين الوقت لمصاحبة قواته إلى العراق، ولم يقتصر هذا الموقف على الأهالي بل إن بعضاً من جنود البصرة هربوا إلى الكويت فالإحساء والتحقوا بجيوش خورشيد باشا وحاربوا في صفوف قواته، وقد عملت سلطات البصرة على إعادتهم فأجرت اتصالاً مع أمير الكويت طالبة منه القبض عليهم وإعادتهم إلى البصرة، غير أنه رفض ذلك وقدم لهم العون للحاق بالإحساء.

وبمجرد وصولهم عين لهم خورشيد المرتبات بعد أن قيد أسماءهم في الدفاتر من تاريخ وصولهم في الأول من ربيع الآخر ١٢٥٥هـ / ١٣ يونيو ١٨٣٩م، وكتب إلى القاهرة يخبرها بأمر هؤلاء الجنود والكيفية التي يعاملون بها، وهل يعطي أمراً لمحمود أغا المورة ليستدعي بقية الجند المتمردين، فصدرت الإرادة من القاهرة بالموافقة على ترتيباته وعلى استدعاء العسكر الذين اتفق معهم^(٣).

وإزاء هذا الموقف المتدهور في البصرة فقد أجرى علي باشا رضا والي بغداد بعض التعديلات الإدارية فيها فعزل تركي بلماز ومحمد أغا متسلم البصرة^(٤)،

العثمانيون لقباً للرجل الذي يقرأ ويكتب ولقباً لبعض كبار الموظفين وألغي هذا اللقب في تركيا في ٢٦ نوفمبر ١٩٣٤م، وبطل استعماله في مصر بعد عام ١٩٥٢م. محمد رفعت الامام: تاريخ الجالية الأرمنية في مصر، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١)، ص ٣٩٥.

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٤ حمراء، البند الخامس، من خورشيد باشا إلى باشمعاون جناب داوري، غرة جمادى الثانية ١٢٥٥هـ / ١١ أغسطس ١٨٣٩م.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٤ حمراء، البند السادس، من خورشيد باشا إلى باشمعاون جناب داوري، غرة جمادى الثانية ١٢٥٥هـ / ١١ أغسطس ١٨٣٩م.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٧ حمراء، من مير ميران خورشيد باشا إلى صاحب الدولة والعاطفة، بتاريخ ٣ ربيع الآخر ١٢٥٥هـ / ١٥ يونيو ١٨٣٩م، إرادة مزيلة رقم ١٧، بتاريخ ٢٩ جمادى الأولى ١٢٥٥هـ / ١٠ أغسطس ١٨٣٩م، وتقرير محمود أغا المورة المرفق بالوثيقة، بتاريخ ٣ ربيع الآخر ١٢٥٥هـ / ١٥ يونيو ١٨٣٩م.

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٤، ترجمة الوثيقة التركية ٤٧ أصلية، ١٧٤ حمراء، من محافظ المدينة المنورة إلى كبير معاوني الجناح العالي، في ٢٥ ذي القعدة ١٢٥٥هـ / ٣١ يناير ١٨٤٠م.

ولكن هذه التعديلات جاءت بنتيجة عكسية ذلك أن تركي بلماز الذي انتقل للإقامة في بغداد بدأ يتصل بخورشيد باشا يطلب منه العفو عمّا سلف، وذكر الشيخ حمود بن جसार أنه «أقر على نفسه إذا عفا سعادة أفندينا عمّا مضى فإنني خادم مطيع مملوك إلى الأبد نظير الذنب الذي تقدم فعله»^(١).

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٤ حمراء، البند الثالث، من خورشيد باشا إلى باشمعاون جناب داوري، غرة جمادى الثانية ١٢٥٥هـ / ١١ أغسطس ١٨٣٩م.

مبعوث خورشيد إلى البحرين والموقف البريطاني

على الرغم من الضمانات التي قدمها محمد علي لممثلي بريطانيا في القاهرة بأن توسعته في الجزيرة العربية لن تصل إلى الخليج فإنه في أعقاب استقرار خورشيد باشا سر عسكر نجد في الأحساء والقطيف بدأ والي مصر، أو على الأقل خورشيد باشا قائد القوات المصرية في الأحساء، يتطلع إلى ضم البحرين وجعلها تابعة للسيادة المصرية، مؤكدًا لسلطات القاهرة أنها مفتاح الجزيرة العربية الشرقي وأنها ستُصبح مالطة أخرى لو تركت بيد الإنجليز^(١)، خاصة أن بها ميناءً صالحًا للملاحة على الخليج يُمكن أن يُساعد في تحرك قواته بالسرعة اللازمة في هذه المنطقة.

وحين كلف محمد علي خورشيد باشا بالإعداد لهذا الأمر، قام بدراسة الطرق المتعددة لتحقيق ذلك، واستقر رأيه على أن الطريق الأمثل لتحقيق ذلك هو التفاوض مع شيخ البحرين عبد الله بن أحمد آل خليفة، ومن هنا كلف معاونه محمد رفعت لكي يكون وكيلًا مفوضًا من طرفه لهذا الغرض^(٢)، وعلى ذلك قام محمد رفعت بزيارة سريعة للبحرين في غرة ذي الحجة ١٢٥٤هـ / ١٦ فبراير ١٨٣٩م للوقوف على أمورها وكتابة تقرير عنها^(٣)، وعاد من رحلته هذه إلى القطيف يوم ٨ ذي الحجة ١٢٥٤هـ / ٢٣ فبراير ١٨٣٩م بعد أن قضى بها أسبوعًا، اطلع خلاله على أحوالها وكتب تقريرًا مطولاً أوضح

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٧ أصلية، ٥٠ حمراء، من خورشيد باشا إلى الباشمعاون الخديوي، بتاريخ ٢١ محرم ١٢٥٥هـ / ٦ أبريل ١٨٣٩م.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، المرفق العربي للوثيقة ١٣٧ حمراء، صورة الجرنال المحضر من طرف محمد أفندي متضمن بيان الأحوال الصادرة من جهات مادة البحرين وغيرها.

(٣) Kelly J. B.: Britain and the Persian Gulf 1795 - 1880, (Oxford: Oxford Clarendon press, 1991), p. 305.

فيه الضرورة الحيوية لضم البحرين خاصة لما تتمتع به من رواج اقتصادي يتوقف عليه استقرار الأمور في الإحساء والقطيف، ذلك أن دخولها تحت الطاعة سوف يكون سبباً لحصول الحركة في مينائي الإحساء والقطيف، فضلاً على أنها سوف تكون مصدرًا لتزويد الجيش في نجد بالإمدادات التموينية من العراق^(١).

والأمر الذي جعل خورشيد باشا يُقدِّم على تحقيق المقترحات التي تضمنها تقرير محمد رفعت هو إرسال شيخ البحرين رسالة إلى خورشيد باشا يطلب فيها مساعدته ضد أبناء أسرته الثائرين عليه، وكان رد خورشيد باشا بتاريخ ٢٠ ذي الحجة ١٢٥٤هـ / ٧ مارس ١٨٣٩م أن دخوله في طاعة محمد علي سيساعده على درء الأخطار التي تهدده، مؤكداً أن هدفه ليس جمع المال، بل إن كل ما يهمله هو تأمين الطرق والوقوف صفًا واحدًا معه ضد الفرس والإنجليز الطامعين في بلاده، كما أن خورشيد باشا أوضح له أن دخوله في الطاعة سوف يؤدي إلى ابتعاد الخطر الذي يهدده من جانب سلطان مسقط السيد سعيد لكون أنه صديق لمحمد علي، وأرسل له محمد رفعت للاتفاق معه على ما يمكن التوصل إليه من أمور «والواصل إليكم محمد أفندي معاوننا لأجل يصير الاتفاق بينكم وبينه على ما ذكرناه وما زال أنكم مساعدون لنا في الأشغال فهذا عهد الله والسلام»^(٢).

ولكن أشيع في هذه الفترة أن هناك اتصالات بين عبد الله بن أحمد شيخ البحرين والإنجليز من جهة، وبينه وبين فارس من جهة ثانية، وأن كل طرف يرغب في أن تكون البحرين له، وأن الإنجليز أرسلوا إلى البحرين سفينة حمولتها «خمسة وثمانون مدفعًا، وأنه حصل الاتفاق مع عبد الله بن أحمد على أن البحرين رعية للإنجليز وأنهم سوف يظلون لمدة خمسة وعشرين سنة لا يطلبون من أهل البحرين إيرادًا ولا شيئًا»^(٣)، فكلف خورشيد باشا محمد رفعت بتقصي الحقائق، ليحسم

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٧ أصلية، ٥٠ حمراء، من خورشيد باشا إلى الباشمعاون الخديوي، بتاريخ ٢١ محرم ١٢٥٥هـ / ٦ أبريل ١٨٣٩م.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣ حمراء، المرفق العربي للوثيقة ١٣٧ حمراء، الجواب المرسل من خورشيد باشا إلى عبد الله بن أحمد آل خليفة، بتاريخ ٢٠ ذي الحجة ١٢٥٤هـ / ٧ مارس ١٨٣٩م؛ جمال زكريا قاسم: دولة البوسعيد، ص ١٧٩، ١٨٠.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، المرفق العربي للوثيقة ١٣٧ حمراء، صورة

الأمر مع شيخ البحرين، وتم اللقاء بينهم في يوم السبت ٢٣ صفر ١٢٥٥هـ / ٧ مايو ١٨٣٩م بخور حسان إحدى بلدان ساحل قطر^(١).

غير أن محمد رفعت ما أن التقى بالشيخ إلا وجد أفكاره قد تغيرت تجاه تعاونه معه نتيجة لعاملين الأول: إغواء حكومة بغداد العثمانية التي كانت تسعى بكافة السبل لعرقلة مشروعات محمد علي التوسعية في شبه الجزيرة العربية، والثاني: معارضة المقيم البريطاني في الخليج لأي اتفاق يعقده شيخ البحرين مع مندوب محمد علي، الأمر الذي دفع خورشيد باشا لإرسال رسالة مطولة إلى القاهرة موضحة فيها أهمية البحرين لإحكام السيطرة على الإحساء والقطيف حيث إن تلك الجزيرة لازمة لنا مؤكداً أنه لن يتراجع عن بسط سيطرته عليها مهما كانت الظروف^(٢)، في الوقت الذي بدأت بريطانيا تعارض فيه وصول قوات محمد علي للخليج، وأرسلت بعض قواتها إلى البصرة استعداداً للقيام بعمل مضاد ضد هذه القوات ولو أدى ذلك إلى التدخل العسكري^(٣).

إلا أن محمد رفعت بعد جهود بذلها في مفاوضة الشيخ عبد الله بن أحمد أوضح فيها كل الأمور والأوضاع السياسية التي ستترتب على هذه المعاهدة، قد تمكن من إقناع شيخ البحرين بتوقيع اتفاق في ٢٣ صفر ١٢٥٥هـ / ٧ مايو ١٨٣٩م يقضي بأن يكون شيخ البحرين حليفاً لمحمد علي على أن يقدم كافة المساعدات التي يطلبها كلما لزم الأمر و«إذا أراد خورشيد باشا إرسال عساكر إلى جهات مثل عمان

الجنرال المحضر من طرف محمد أفندي متضمن بيان الأحوال الصادرة من جهات مادة البحرين وغيرها.

(١) هي شبه جزيرة تقع وسط الخليج العربي، تتصل بالسعودية وأبو ظبي من الجنوب، سكانها من القبائل العربية نزحوا العتوب فرع الجلاهمة سنة ١٧١٦م، احتلها البرتغاليون ١٥١٧م إلى أن استردها العثمانيون مع البحرين ١٦٥٥م، ودخلها القائد السعودي إبراهيم ابن عفيصان سنة ١٧٩٢م واستردها نهائياً آل خليفة ١٨١٠م، وقطر فقيرة وأمطارها قليلة، إلا أنها لها مكانة تجارية وزراعية كانت هي السبب وراء اهتمام القوى الأوروبية بها واهتمام خورشيد باشا بها أيضاً، علي سلطان: مرجع سابق، ص ٢٣٨.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة أصلية، ٥٠ حمراء، من خورشيد باشا إلى الباشمعاون الخديوي، بتاريخ ٢١ محرم ١٢٥٥هـ / ٦ أبريل ١٨٣٩م.

(3) F. O: 78 / 318, Palmerston to Campbell , 4 , August , 1837

وغيرها فيلزم منه (شيخ البحرين) المساعدة بإرسال المراكب من طرفه لحمولة العساكر^(١)، وأن يتعهد بدفع مبلغ ثلاثة آلاف فرانسة كزكاة سنوية مقابل أن تتعهد الحكومة المصرية بتأمين إمارته وأمواله وأملاكه ومساعدته ضد أعدائه^(٢)، وحرصاً على أن تحقق هذه المعاهدة أهدافها فقد تبعها بروتوكول على هيئة شروط تنظم العلاقة بين الطرفين المتعاهدين^(٣).

وما أن وقع شيخ البحرين الاتفاق إلا وأسرع يكتب لخورشيد باشا في ٢٣ صفر ١٢٥٥ هـ / ٨ مايو ١٨٣٩ م ليخبره بالاتفاق الذي تم بينه وبين محمد رفعت مؤكداً له أن الاتفاق تم «بيننا وبينكم على يد محمد أفندي كما ذكر جنابه بنبأته من طرف جنابك وعلى أن نحن نعادي من عاداكم ونوالي من والاكم وأنتم كذلك، ونؤدي لجنابكم الزكاة كما هو مذكور في الورقة التي كتبناها لجنابكم واصلتكم معه، وأخذنا منه ورقة مقابلها باسمك وورقة أخرى من جنابه على ربط الجواب بالعهد وصار حالنا معكم حال واحد»^(٤).

وما كادت أنباء هذا الاتفاق تُذاع حتى أزعجت كلا الجانبين الإنجليزي والفراسي، في الوقت الذي عانت فيه بريطانيا في الخليج، لدرجة اضطرتها لنقل مقر المقيم البريطاني من بوشهر Bushire إلى جزيرة خراج Kharag، إلا أن تلك الأحداث لم تشغل المقيم - بإيعاز من حكومته - عن مقاومة امتداد نفوذ محمد علي إلى الخليج عامةً والبحرين خاصةً، ومن ثم أوعزت إلى عدد من شيوخ الساحل لكي يعترضوا على الاتفاق معلنين أن بريطانيا أكثر قوة من مصر، وأن الإنجليز

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، المرفق العربي للوثيقة ١٣٧ حمراء، شروط المصالحة التي عقدها محمد رفعت أفندي مع الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة، في ٢٣ صفر ١٢٥٥ هـ / ٧ مايو ١٨٣٩ م.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، المرفق العربي للوثيقة ١٣٧ حمراء، صورة الجرنال المحضر من طرف محمد أفندي متضمن بيان الأحوال الصادرة من جهات مادة البحرين وغيرها.

(٣) محمد حسن العيدروس: تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، (الكويت: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٨)، ١٥٠.

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، المرفق العربي للوثيقة ١٣٧ حمراء، من عبد الله ابن أحمد آل خليفة إلى خورشيد باشا، بتاريخ ٢٣ صفر ١٢٥٥ هـ / ٧ مايو ١٨٣٩ م.

سوف يتدخلون بالقوة ضد البحرين حتى يفصلوها عن مصر، ولكن رد شيخ البحرين عليهم كان «إن أنسب حكومة لنا هي الحكومة المصرية»^(١).

وعلى الرغم من ذلك فإن الوثائق توضح أن هذه الاتفاقية لم تستمر طويلاً ولم تنفذ بنودها^(٢)، لأن بريطانيا قد عملت على مواجهتها لأنها رأت أن أي توسع مصري في الخليج يهدد مصالحها في المحيط الهندي، فنجاح محمد علي في السيطرة على سواحل جنوب وشرق الجزيرة العربية سوف يجعله متحكماً في كل من البحر الأحمر والخليج، وهما المنفذان الحيويان الموصولان إلى المستعمرات البريطانية في الهند^(٣).

ومن هنا عملت بريطانيا على مواجهة مشروعات محمد علي في منطقة الخليج إما بالتهديد والوعيد عن طريق إرسال القائد العام لأساطيلها في الشرق لمنطقة الخليج لإيقاف تقدم النفوذ المصري هناك، وتركت له مطلق الحرية في استخدام القوة خاصة إذا ما أقدم خورشيد باشا على إنزال قوات مصرية إلى البحرين، وإلى جانب ذلك أرسلت إلى محمد علي تحذره بأنه إذا ما حاول السيطرة على البحرين أو مد سلطانه على الخليج فإنها لن تقف مكتوفة الأيدي بل ستمنع هذه المحاولة بكل الوسائل، وأكد بامستون على أنه «يجب منع قوات محمد علي من الاستيلاء على البحرين نظراً لأهميتها حتى ولو أدى ذلك إلى قيام شركة الهند البريطانية باختلالها»^(٤).

كما سعت بريطانيا من جهة أخرى لإقناع عبد الله بن حمد آل خليفة بإلغاء هذا الاتفاق لأنه يخالف ما بينهما من ارتباطات، وأسرعت بإرسال الكولونيل هينل لمقابلته ويعرض عليه الحماية البريطانية في حالة أي عدوان من جانب خورشيد

(١) وهذه هي العبارة باللغة الإنجليزية «the Egyptian government is the best for us»، مقتبس عن عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٢٢١؛ عبد العزيز سليمان نوار: «مصر والخليج العربي في القرن التاسع عشر»، مجلة الهلال، السنة ٧٢، العدد ١١ (١٩٦٤) ص ١٦٦.
(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٣٩ أصلية، ٦ حمراء، من خورشيد باشا إلى الباشمعاون الخديوي، بتاريخ ٣ شعبان ١٢٥٥ هـ / ١٢ أكتوبر ١٨٣٩ م.

(3) Hoskins. H.L: op.cit., p 269

(4) F. O: 78/318, Palmerton to Campbell, No 25, 8. December, 1837.

باشا^(١)، وأنها لن تأخذ منه أموالاً ولا تفرض عليه جمارك لمدة ٢٥ سنة^(٢)، مع ضمان توارث الحكم في أسرته، وعلى الرغم من تلك الضغوط التي استخدمها هينل إلا أن الشيخ عبد الله امتنع عن قبول الحماية البريطانية.

وما أن علم خورشيد باشا بنشاط هينل المضاد للاتفاق مع البحرين إلا وأسرع بإرسال الخواجة يوسف عزاز رسولاً إليه حاملاً رسالة شرح فيها خورشيد كيف أخضع البحرين لحكومته^(٣)؛ فرد عليه المقيم البريطاني برسالة بتاريخ ٣ ذي الحجة ١٢٥٤هـ / ١٧ فبراير ١٨٣٩م، محتجاً بأن «البحرين تتبع فارس ولا يجوز الاستيلاء عليها» مذكراً بما كان قد سبق أن صرح به محمد علي للسلطات البريطانية في مصر بأن «قواته لن تتعدى على بلاد العرب المتصلة بخليج فارس» محملاً خورشيد باشا أي ضرر يحدث للرعايا البريطانيين في البحرين^(٤)، وأجاب خورشيد باشا على هذا الاحتجاج البريطاني بأن ما قام به لا يستوجب أي اعتراض لأن المناطق التي يعمل على الاستيلاء عليها كانت فيما مضى خاضعة للسعوديين^(٥)، ومن ثم فإن محمد علي أولى هذه البلاد لأحد أفراد البيت السعودي وهو خالد بن سعود فليس هناك مبرر للاعتراض على الاتفاق مع البحرين لأنه في نطاق ما كان جارياً في السابق، ولن يؤثر على العلاقات بين بريطانيا ومحمد علي.

ولكن هينل لم يقتنع بمنطق خورشيد باشا وأرسل بإنذار لشيوخ المنطقة يحذرهم من مغبة الوقوع في مثل هذا الاتفاق الذي يُعد مخالفاً «للقول المتأني من جانب محمد علي في جواب مطلب أمناء الدولة العلية الإنجليزية فيما أظهره له، من عدم رضاهم بحركات خورشيد باشا بأطراف وينادر بر العرب المتصلة بخليج

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٤٠ أصلية، ١٠ حراء، من خورشيد باشا إلى محمد علي بتاريخ ٣ شعبان ١٢٥٥هـ / ١٢ أكتوبر ١٨٣٩م.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٣٩ أصلية، ٦ حراء، من خورشيد باشا إلى الباشمعاون الخديوي، بتاريخ ٣ شعبان ١٢٥٥هـ / ١٢ أكتوبر ١٨٣٩م.

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: البحرين والقوى المتصارعة في الخليج، ص ٥٤.

(٤) F. O: 78/386, political department, no 140, Hennel to Willoughby, 17. February 1839.

(٥) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، صورة المرفق العربي للوثيقة ١٣٧ حراء، رد خورشيد باشا على اعتراض هينل، بتاريخ ١٣ ربيع الثاني ١٢٥٥هـ / ٢٥ يونيو ١٨٣٩م.

فارس»^(١)، ومخالفتها للمعاهدة؛ التي سبق أن وقعها شيوخ البحرين مع الحكومة البريطانية ١٨٢٤م^(٢).

ولم يقتصر الأمر على مجرد الاحتجاج، وإنما ذهب الكولونيل هينل بنفسه إلى البحرين في محاولة لإقناع الشيخ عبد الله بالعدول عن هذا الاتفاق وطرحه جانباً، وطلب منه تسليمه وثيقة الصلح ليمزقها مهدداً إياه إن لم يمثل فسوف يلحقه الضرر، ولكن الشيخ عبد الله لم يرضخ لتلك التهديدات، وذهبت محاولات المقيم البريطاني التهديدية أدراج الرياح، وأصر على اتفاقه، وذكر لهينل «أنني وإن كنت قد طلبت منكم الحماية، ولكن ما قلت لكم أن أكون من رعايا الإنجليز، وإنما كان طلب الحماية من الخوف من عساكر محمد علي باشا، وأما اليوم فقد تصالحنا وربطنا الصلح بشروط، وإنما منذ القديم مشتركون مع أهل نجد جيراننا في التجارة فلا يمكن أن نفترق عن مالنا وملكننا»^(٣)، واضطر لمغادرة البحرين إلى الساحل العماني ليحذر ويهدد في الوقت نفسه شيوخه من الانضمام لخورشيد باشا حيث كان سعد بن مطلق المطيري قد ذهب إلى هناك لإخضاع الساحل لحكومة نجد^(٤)، وأخذ يوزع منشورات في الخليج مردداً أن خورشيد باشا إنما يعمل من وحي تفكيره هو، وأن محمد علي لا يرضى عن تحركات خورشيد تلك، واضطر خورشيد باشا تحت الضغط البريطاني أن يقف ساكناً بعض الوقت^(٥).

ولإزاء تمسك خورشيد باشا بالبحرين التي رأى أنها مثل مالطة في البحر المتوسط بالنسبة لأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية، فرأى أنه في حالة فشله في السيطرة عليها «فلا أقل من أن تبقى لا لنا ولا للإنجليز والأولى أن تترك مستقلة لآل

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: البحرين والقوى المتصارعة في الخليج، ص ٥٤.

(٢) جمال زكريا قاسم: دولة البوسعيد في عمان وشرقي أفريقيا منذ تأسيسها وحتى نهاية حكمها في زنجبار وبداية عهدها في عمان ١٧٤١ - ١٩٧٠، (أبو ظبي: مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠٠)، ص ١٧١.

(٣) جمال زكريا قاسم: دولة البوسعيد، ص ١٧١.

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٤٠ أصلية، ١٠ حمراء، من خورشيد باشا إلى صاحب الدولة والعاطفة، بتاريخ ٣ شعبان ١٢٥٥هـ / ١٢ أكتوبر ١٨٣٩م.

(٥) عبد العزيز سليمان نوار: مصر والعراق، ص ١٦٧.

خليفة» فقد أرسل رسولاً اسمه الشيخ شافعي للشيخ عبد الله آل خليفة ليستطلع موقفه فأكد صلابة موقفه وأنه لن يستسلم للإنجليز بل أنه سيبدل «ماله وقوته في سبيل ألا يكون رعية للكفار»، وطلب شيخ البحرين من الرسول أن يُبلغ خورشيد باشا «أن لا يمنع عرب نجد من المجيء عندنا بل أرجوه أن يسهل مجيئهم» حتى يتمكن في حالة مهاجمة الإنجليز لبلاده أن يعد قوة لمواجهة هذا الموقف، فاستشار خورشيد حكومة القاهرة في هذا الأمر فأرسلت تعليمات سرية في ١٩ رمضان ١٢٥٥ هـ / ٢٧ نوفمبر ١٨٣٩ م بأن يسمح لمن يريد من العرب الذهاب إلى البحرين وأن «يغض الطرف عن ذلك» حتى يتمكن شيخ البحرين من إعداد القوة اللازمة دون الإفصاح عن ذلك^(١)، وكادت تلك الأزمة أن تؤدي إلى اشتباك مسلح بين محمد علي والإنجليز بعدما طلب خورشيد باشا من المقيم البريطاني عدم تدخله في أمور البحرين أو غيرها من إمارات الخليج^(٢).

ولما كان كل ما يعني شيخ البحرين هو تأمين سلطته ضد منافسيه والطامعين في إمارته فقد تراجع عن الاتفاق الذي وقعه مع محمد رفعت وفضل الاعتماد على الإنجليز، مما أضعف موقف محمد علي الذي كان يخشى تحذيرات بريطانيا له، الأمر الذي جعله يصدر أوامره لخورشيد باشا بالكف عن التدخل في شئون البحرين.

وفي تلك الفترة التي وصلت فيها تهديدات المقيم البريطاني ذروتها لامتداد نفوذ خورشيد باشا إلى البحرين، وبعض مناطق الساحل العماني، أصيب مخطط خورشيد باشا في المنطقة بنكسة شديدة نتيجة لمقتل محمد رفعت وكيله ومنفذ خططه على يد أفراد من قبيلة العوازم^(٣)، وتذكر المصادر المعاصرة أن اغتياله راجع لأسلوبه القاسي في إدارة الأمور وإتباعه لأسلوب العنف والقسوة مع الأهالي فضلاً

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٣٩ أصلية، ٦ هراء، من خورشيد باشا إلى الباشمعاون الخديوي، بتاريخ ٣ شعبان ١٢٥٥ هـ / ١٢ أكتوبر ١٨٣٩ م.

(٢) جمال زكريا قاسم: دولة البوسعيد، ص ١٧٢، عبد العزيز سليمان نوار: مصر والخليج العربي، ص ١٦٥.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٤٤ أصلية، ٧٥ هراء، من خورشيد باشا إلى صاحب الدولة والمأطفة، في ٢٣ شعبان ١٢٥٥ هـ / ١ نوفمبر ١٨٣٩ م.

عن فرضه الضرائب الظالمة التي لم يتعودها الأهالي، ولمعاملته السيئة لبني خالد حكام المنطقة السابقين^(١)، ولم يستطع محمد أفندي شرمي الذي حل محله^(٢)؛ أن يقوم بنفس دوره، وكانت بريطانيا قد عملت على ضرب سياسة محمد علي التوسعية في كل من شبه الجزيرة العربية واليمن والبحرين والشام وأرغمته طبقاً لمعاهدة لندن في ١٥ جمادى الأولى ١٢٥٦هـ / ١٥ يوليو ١٨٤٠م على الانسحاب من كل تلك المناطق ويركز اهتمامه على مصر دون غيرها.

وما كادت قوات محمد علي تنسحب من الجزيرة العربية حتى أخذت بريطانيا تعمل بطريقة غير مباشرة على إنهاء حكم الشيخ عبد الله كعقاب لانفاقه مع خورشيد باشا، وتعمل على استبداله بأخر يكون أكثر استعداداً للتفاهم معها، فسمحت لعيسى بن طريف الذي غادر أبو ظبي واستقر في جزيرة قيس ١٨٣٩ / ١٨٤٠م بمساعدة حمد بن خليفة الذي استغل أيضاً اضطراب علاقة الشيخ عبد الله بآل سعود وتحالف معهم واتصل كذلك برحمة بن جابر الجلاهمة واتحدوا جميعاً في أعمال عسكرية ضد الشيخ عبد الله، وتمكنوا من هزيمته في أبريل ١٨٤٣م وأرغموه على الاستسلام وسمحوا له بمغادرة البحرين إلى الدمام التي ظلت تحت حكم ابنه مبارك، إلى أن وافاه الأجل في مسقط ١٨٤٩م^(٣).

(١) عثمان بن عبد الله بن بشر: الجزء الثاني، ص ١٧٨، ١٧٩.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٤٤ أصلية، ٧٥ حمراء، من خورشيد باشا إلى صاحب الدولة والعاطفة، في ٢٣ شعبان ١٢٥٥هـ / ١ نوفمبر ١٨٣٩م.

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: البحرين والقوى المتصارعة في الخليج، ص ٥٨، ٥٩.

خورشيد باشا وساحل عمان المتصالح (الإمارات العربية المتحدة)

تبين الوثائق مدى القلق الذي كان يتتاب الحكومة البريطانية نتيجة محاولات محمد علي في بسط نفوذه على الخليج بادعائه أحقيته في أن يرث النفوذ السعودي في المناطق التي كان يمتد إليها قبل سقوط الدولة السعودية الأولى، خاصة بعد المحاولات التي قام بها خالد بن سعود الذي عينه محمد علي أميراً على نجد التي نجح في التوغل فيها تجاه البريمي ومشیخات الساحل العماني حتى أنه طالب إمام مسقط بالجزية التي كان يدفعها من قبل لآل سعود^(١)، هذا إلى جانب ترحيب بعض مشیخات الخليج كالشارقة ورأس الخيمة وأبو ظبي والكويت بمبعوثي محمد علي إليهم، بصفته حاكماً مسلحاً بأساليب الحضارة الحديثة، وبصفته أيضاً وريثاً للدولة السعودية، فرأت بريطانيا في تحركات محمد علي تلك محاولة جديدة لتوحيد منطقة الخليج، ومن ثم أسرع بإرسال فريدريك ميتلاند Fredrick Maitland إلى الخليج؛ لإثارة شيوخ القبائل ضد التوسع المصري، ولتقديم كافة المساعدات إلى شيوخ الإمارات للوقوف في وجه التوسع المصري تجاه إماراتهم.

غير أن ميتلاند وصل في الوقت الذي كان فيه خورشيد قد أتم فتح القطيف والعقير، ووجد أن شيوخ البحرين على استعداد للاعتراف بالسيادة المصرية، فرأى أن من الحكمة عدم القيام بأي أعمال عسكرية ضدهم، ونصح الكولونيل هينل، المقيم البريطاني في الخليج، ببذل جهوده لوقف الضغط المصري بالطرق الدبلوماسية، مقررًا أنه وجد الشيوخ الذين زارهم أكثر تقديرًا لعظمة القوات

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، مرفق عربي بالوثيقة ١٨١ هـ، ٤٣: أصلية، رسالة من خالد بن سعود إلى أبناء سلطان مسقط، بتاريخ ١٤ جمادى الأولى ١٢٥٥ هـ / ٢٥ يوليو ١٨٣٩ م.

المصرية^(١)، كما أوفدت حكومة بومباي بعض ضباطها للعمل على إثارة القبائل في منطقة البريمي العمانية ضد التحركات المصرية.

وهنا بدأ الإنجليز اتصالاتهم لوقف تحركات خورشيد باشا في منطقة الساحل العماني، ولذا فإن الشيخ سلطان بن صقر كتب إلى سعد بن مطلق المطيري يوضح له اهتمام الإنجليز بالمنطقة وأن من أهم الأمور «طرح نظر الانقريز على هذي البلدان، وجمعت ها المشايخ لهذا الشأن، وغاياتهم مبعدة، والله الفاعل وقد ذكرت لك صالح والولد صقر والأخ حسن بن رحمة يحضرون عندك ويخبرونك بالحقيقة من الرأس» وأكد له أنه في حالة تفهمه للموقف جيدًا، وتوفير القوة اللازمة لمواجهة الخطر المتوقع من جانب الإنجليز فإنه سوف يقف إلى جانبه توكيدًا لمواقفه السابقة معه^(٢).

وحاول سعد المطيري استخدام أسلوب التهديد مع بعض المشايخ، ولكن هذا الأسلوب لم يحقق النتائج المرجوة منه، فقد ظل بنو نعيم والشيخ حمود بن عزان على موقفهم المعارض لتدخل قوات خورشيد باشا في البريمي، وكذلك التقى شيوخ البريمي بالمقيم البريطاني في الخليج هينل، وعقد معهم اجتماع في عجمان تمكن خلاله من عقد حلف دفاعي بين بني نعيم والطواهر سكان واحة البريمي على أن يقفوا يدًا واحدة ضد كل الأعداء، وتم ذلك في ذي القعدة ١٢٥٥هـ/ يناير ١٨٤٠م، وقام بتوزيع الأرز والنقود والذخائر عليهم تعزيزًا لعلاقتهم ببريطانيا^(٣). وأدرك سعد المطيري الموقف فأرسل لخورشيد يخبره «أن تلك التحرك والفتن الصائره بذلك الطرف فإنها من حركات الإنجليز» وطلب منه إمداده ومساعدته مما

(١) جمال زكريا قاسم: تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، المجلد الأول، إمارات الخليج العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول ١٥٠٧ - ١٨٤٠، (القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠٠١)، ص ٤٠٨، وراجع مقتطفات من تقرير فريدريك ميتلاند في: محمد مرسي عبد الله: تاريخ الإمارات العربية المتحدة، مختارات من أهم الوثائق البريطانية ١٧٩٧-١٩٦٥، المجلد الأول، بريطانيا والإمارات ١٧٩٧-١٩٦٠، (لندن: مركز لندن للدراسات العربية، ١٩٩٦) ص ١٧٩-١٨١.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ١٩٤، المرفق العربي رقم (٤)، من سلطان بن صقر إلى سعد المطيري.

(٣) محمد مرسي عبد الله: مرجع سابق، ص ١٨٨.

جعل خورشيد يكتب إلى وكيله في الإحساء يأمره بإعداد قوة لمساندة سعد بن مطلق في عملياته في البريمي وساحل عمان^(١).

وقام هينل بمراسلة كلاً من سعد المطيري وخورشيد باشا موضحاً أن تحرك تلك القوات مخالف لتأكيدات محمد علي للحكومة البريطانية بأن قواته لن تصل إلى الخليج؛ وبخاصة الإمارات المتصالحة مع بريطانيا بمقتضى اتفاقية ١٨٢٠م، وفي الوقت نفسه هدد شيوخ الساحل العماني «بتدمير سفنهم وتحصيناتهم البحرية إذا لم يبالوا بتحذيرات الإنجليز لهم بالكف عن ذلك خشية من عدم الثقة في تعهداتهم له»^(٢)، ولم تلق مقترحات هينل تلك القبول عند أوكلاند Auckland حاكم عام الهند الذي لم يكن من أنصار التدخل العسكري في شئون القبائل المحلية^(٣).

ولكن يبدو أن سعد المطيري خشى تهديدات المقيم البريطاني له، الذي حذره من الاستمرار في عملياته ضد شيوخ البريمي، وأدرك أن لا قبل له على مواجهة هذا التحالف، فاستجاب لطلب هينل في مغادرة المنطقة فأرسل إلى خورشيد يُخبره بحقيقة الموقف ويُخطرُه بانسحابه إلى الإحساء، ولم ينتظر وصول الإمدادات التي طلبها، والتي كان خورشيد قد أعدها، الأمر الذي أحق عليه خورشيد وأوغر صدره ضده، وطلب منه خورشيد المجيء إلى نجد كي ينال عقابه^(٤)، لكونه لم يصمد وتراجع دون أن يحقق المخطط الذي وضع له.

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ١٩٤، المرفق العربي رقم (١).

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: محمد علي وشبه الجزيرة العربية، ص ٣٦٠، ٣٦١.

(3) Kelly J. B: op - cit , p 312.

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ١٩٤، المرفق العربي رقم (١).

خورشيد باشا وسلطنة مسقط

عندما عاود محمد علي نشاطه في نجد وشرقي الجزيرة العربية كان سعيد بن سلطان - سلطان مسقط - يسعى جادًا في تنفيذ خطته التي لم يتخل عنها بصدد البحرين، ولذا فإنه رغب في تنسيق سياسته مع والي مصر الحليف الجديد، ودارت بينه وبين خورشيد اتصالات استهدفت أن يقدم له القوة البحرية لغزو البحرين على أن يضمها لحكمه مقابل مبلغ من المال يدفعه سنويًا لمحمد علي، وكتب إلى محمد علي ثلاث رسائل في ١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م تناول العلاقة بينهما، ويتضح من رسالته التي أرسلها احتجاجًا على تصرفات خالد بن سعود أن محمد علي تجاهل رسائل سلطان مسقط^(١)، ولم تثمر رسائله من الناحية العملية عن أي نتيجة إيجابية، إذا لم يلبث السيد سعيد أن تخلى عن مشروع اتفاهه مع محمد علي بعدما أدرك أن اتصاله هذا يتعارض مع صداقته لبريطانيا التي كانت تجد في تطلعات محمد علي والي مصر في الخليج واليمن نشاطًا متعارض مع مصالحها في المنطقة، في الوقت الذي لم يكن سلطان مسقط على استعداد لأن يضحى بصداقته لبريطانيا في سبيل تحالفه مع محمد علي^(٢).

وعندما قرر خورشيد باشا التدخل في عمان أوعز إلى خالد بن سعود أن يكتب إلى ثويني وهلال أولاد السلطان سعيد الذي كان آنذاك في زنجبار^(٣)؛ يطلب منهم إعلان الخضوع للرياض ودفع الزكاة مثلما كانوا يدفعونها لفیصل بن تركي، إلا أنهم

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ٩٨، وثيقة ٤٣ أصلية، ١٨١ هـ، صورة الجواب المرسل من أمام مسكت إلى الحضرة العلية، بتاريخ ١٤ جمادى الأولى ١٢٥٤هـ / ٥ أغسطس ١٨٣٨م؛ عبد الرحيم عبد الرحمن: محمد علي وشبه الجزيرة العربية، ص ٥٠٦، ٥٠٧.

(٢) جمال زكريا قاسم: دولة البوسعيد، ص ١٧٠.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ٩٨، مرفق (أ) بالوثيقة ١٨١ هـ، ٤٣ أصلية، رسالة من خالد بن سعود إلى ثويني وهلال أبناء سعيد سلطان مسقط، دون تاريخ.

لم يستجيبوا له وأرسلوا رسالته إلى والدهم في زنجبار، فانزعج من تصرف خالد هذا، وأرسل إلى محمد علي عن طريق حاكم عام الحجاز يذكر أنه سبق وأن عرض من خلال ثلاث مكاتبات أرسلها سابقاً توطيد العلاقة بينه وبين محمد علي ولكنه لم يجد استجابة، حتى كان تصرف خالد ذلك الذي أساءه جداً^(١).

ونتيجة لتدخل بريطانيا لم يتم التعاون بين محمد علي وسultan مسقط فقد عملت بريطانيا على إنهاء الخلافات الداخلية التي كانت قائمة بين السيد سعيد وحمود بن عزان حاكم إقليم صحار للوقوف جبهة واحدة ضد خطر تحرك قوات خورشيد باشا، وتم الصلح بينهما في ١٦ شوال ١٢٥٥هـ / ٢٣ ديسمبر ١٨٣٩م، وفي الوقت نفسه أرسلت الجنرال هامرتون Hamerton ليؤكد مشاعر الصداقة للمستولين في مسقط، ويؤكد استعداد بريطانيا لتقديم أي مساعدات من سلاح ومؤن وحماية بحرية للوقوف في وجه أي هجوم تقوم به قوات خورشيد باشا على مسقط^(٢).

ويبدو أن محمد علي كان يأمل في معاونة سلطان مسقط له، أو على الأقل الحفاظ على علاقات ودية معه، فبادر بالكتابة لحاكم عام الحجاز يأمره بأن يكتب لسلطان مسقط يعتذر له عما بدر من خالد بن سعود مُعللاً ما فعله بصغر سنه وعدم خبرته^(٣)، ثم طلب من حاكم عام الحجاز أن يرسل سلطان مسقط يطلب منه أن يورد له الغلال اللازمة له لسهولة نقلها وقلة نفقاتها عن نفقات إرسالها عن طريق القصير^(٤)، وفي

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، مرفق (ب) بالوثيقة ١٨١ حمراء، ٤٣ أصلية، رسالة من إمام مسكت إلى أحمد باشا، ١٥ جمادى الأولى ١٢٥٥هـ / ٢٦ يوليو ١٨٣٩م

(2) Kelly J. B: op - cit , p.p. 327, 328.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، مرفق (ج) بالوثيقة ١٨١ حمراء، ٤٣ أصلية، إرادة رقم ٢٥ إلى أحمد باشا بالرد على خالد بن سعود بعدم التعرض لإمام مسقط، ٣ ذي القعدة ١٢٥٥هـ / ٩ يناير ١٨٤٠م، حيث أمره بأن يكتب للسيد سعيد بأن «ما كتبه خالد بك لحضرتكم إنما هو من مقتضيات صبوته وخفة مزاجه، وقد كتبنا له بأن يرجع عن مثل هذه الكتابة وأن يراعي خاطركم في كل حال».

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ٩٩، وثيقة ٣٤٨، صحيفة ٦٤، من الجنب العالي إلى سر عسكر الأقطار الحجازية، بتاريخ ١٠ رجب ١٢٥١هـ / ٢ نوفمبر ١٨٣٥م، دفاتر ديوان المعية سنبة تركمي: دفتر ٦٧، وثيقة ٦٤، من الجنب العالي إلى سر عسكر الأقطار الحجازية، ١٠ رجب ١٢٥١هـ / ٢ نوفمبر ١٨٣٥م، ووثيقة ٤٠٠، من الجنب العالي إلى سر عسكر الأقطار الحجازية، في ٢٣ شعبان ١٢٥١هـ / ١٤ ديسمبر ١٨٣٥م.

الوقت نفسه يستفسر عن «مسألة تهيئة الذخائر من جهة مسقط»^(١)، وأرسل إلى خالد بن سعود يطلب منه الابتعاد عن المعاملة التي تغضب سلطان مسقط مشيرًا إلى أنه يجب عليه أن يعمل على تطيب خاطره^(٢)، ولكن محمد علي لم يجن ثمار ذلك لأنه اضطر تحت ضغط من بريطانيا إلى أن يُصدر أوامره لخورشيد باشا بالانسحاب كليةً من المنطقة.

وهنا أدرك خورشيد باشا ما يعنيه رد القاهرة بالمحذورات التي تحدث عنها عباس باشا كتحذره^(٣) محمد علي في رسالته التي بعث بها إليه ردًا على طلبه الخاص بإرسال قوة بحرية عن طريق الخليج لتكون عونًا لقواته التي ذهبت للاستيلاء على القطيف ذاكراً أن «إرسال السفن من جدة إلى ميناء القطيف أمر لا يوافق بسبب بعض المحذورات»^(٤)، حيث أكد له التحذير الذي بعث به إليه المقيم البريطاني في الخليج هينل محتجًا على استيلاءه على القطيف وإرسال مبعوثه محمد أفندي إلى البحرين مذكراً إياه بوعود محمد علي بأن قواته لن تتعدى على المناطق المتصلة بالبحر الملقب بخليج فارس^(٥).

(١) دار الوثائق القومية: دفاتر ديوان المعية سنية تركي، دفتر ٦٧، وثيقة ٣٢٨، من الجناح العالي إلى سر عسكر الحجاز، في ١٦ شعبان ١٢٥١هـ / ٧ ديسمبر ١٨٣٥م.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ١٠٤ حمراء، رسالة من الجناح العالي إلى أحمد باشا وإلى خالد بن سعود، ٣ ذي القعدة ١٢٥٥هـ / ٩ يناير ١٨٤٠م؛ جمال زكريا قاسم: دولة البوسعيد، ص ١٨٣-١٨٥.

(٣) أصل هذه الكلمة «كتخدا» مشتقة من الفارسية «كد خدا» وتعني «رب البيت» ولها دلالات كثيرة، منها أنها تطلق على نائب الوالي ومعاونه، ويقوم بمساعدته في جميع القضايا الإدارية والعسكرية والمالية، وهو سند الوالي الأول، ويعتمد عليه في كل الأمور، ولذلك كان مصيره مرتبط بمصير الوالي، وكان يحكم أثناء غيابه، وله دار خاصة به، ومراسيم خاصة في التشريعات. عمر عبد العزيز عمر: «العلاقات المصرية اللبنانية ١٨٢٠-١٨٤٠»، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، المجلد ٢٦ (١٩٧٢)، ص ١٠٩، يوسف عز الدين: داوود باشا ونهاية المالك في العراق، ص ١٨، طارق عبد العاطي غنيم بيومي: مرجع سابق، ص ١٠١.

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٢ أصلية، ٣٧ حمراء، رسالة من خورشيد باشا إلى عباس باشا يستفسر عن المحذورات التي تمنع إرسال السفن إليه، ١٩ محرم ١٢٥٥هـ / ١٤ أبريل ١٨٣٩م.

(٥) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، صورة المرفق العربي للوثيقة ١٣٧ حمراء، رد خورشيد باشا على اعتراض هينل، بتاريخ ١٣ ربيع الثاني ١٢٥٥هـ / ٢٩ يونيو ١٨٣٩م.

خورشيد باشا والكويت

لم تكن الكويت بعيدة عن تفكير خورشيد باشا، إذ امتد نشاطه إليها، فحينما بدأ تحركه صوب الخليج بعث إليها بوكيل من لدنه يسمى محمد أفندي في سبيل الحصول على الغلال اللازمة لجنده من الكويت والبصرة ومنطقة الساحل الفارسي، واستطاع ذلك المبعوث توطيد علاقته بشيخها جابر الصباح (١٢٢٩-١٢٧٦هـ/ ١٨١٤-١٨٥٩م) وحظي بالمقام الأول في مجلسه^(١)، الأمر الذي أثار بريطانيا، وجعلها تنظر لهذا المبعوث بعين الريبة والحذر.

وقام المقيم السياسي البريطاني في الخليج هينل بإرسال مبعوث للكويت هو «الليفانت آدموندز»، فلم يستقبله الشيخ جابر الصباح شيخ الكويت الاستقبال اللائق كمبعوث لحكومة بريطانيا العظمى، ولم يرد على تحية سفينته التي رست على الشاطئ، ولم يظهر أي من أعيان الكويت أو كبار رجالها لمدة يومين للترحيب بمبعوث ملك بريطانيا، وفي اليوم الثالث سمح لأدموندز بمقابلة شيخ الكويت الذي لم ينهض من على كرسيه للترحيب به، الأمر الذي جعله يؤكد في تقريره الذي رفعه لحكومة الهند أن مهمة المبعوث المصري هي مراقبة النشاط العثماني في البصرة^(٢)، وبغداد، وأنه يعمل لأهداف خورشيد التوسعية الرامية إلى التوسع في

(١) ولا شك أن خورشيد باشا أدرك أهمية الاستفادة من أسطول الكويت المجهز الذي كان بحاجة شديدة للاستعانة به، ولكن نظراً لموقف بريطانيا، فلم يتم الاستفادة منه باستثناء شحنة واحدة من الذخيرة والعتاد نقلها الأسطول الكويتي من ميناء الحديدية اليمني. محمد حسن العيدروس: تاريخ شبه الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، ص ٢٨٨، جمال زكريا قاسم: «موقف الكويت من التوسع السعودي في نجد وسواحل الإحساء»، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ١٧ (١٩٧٠) ص ٩٩.

(٢) ويعود اهتمام خورشيد باشا بالكويت والبصرة إلى أهميتها الاقتصادية لأنها يعتبران مركز تموين نجد بكثير من السلع الغذائية، إضافة إلى أن البصرة وبغداد أصبحتا تمثلان مركزاً لنشاط مضاد لتحركاته في الجزيرة العربية منذ أن توترت العلاقات بين محمد علي والسلطان العثماني، ومن ثم

جنوب العراق^(١)، لأجل تطويق العراق العثماني من الجنوب بقوات الإحساء بعون كويتي، وبالقوات المصرية في الشام من الشمال، وأكد أن مهمة جمع الحبوب هذه لا تُشكّل إلا ستارًا يختفي وراءه هذا المبعوث، ثم أوصى بضرورة عدم وقوع ميناء الكويت المهم في أيدي السلطات المصرية.

وتذكر المصادر البريطانية^(٢)؛ أن حكومة الهند لم تجد في ذلك ثمة ما يلزم لمعاقبة الشيخ على تصرفه هذا مبرره أن الأمر لم يصدر عن نوايا سيئة ولكنه بهدف خداع الوكيل المصري، وإن كنا لا نتفق مع هذا التبرير ذلك أن شيخ الكويت لم يختلف عن غيره من شيوخ الخليج في شدة ترحيبه بالتقدم المصري تخلصًا من الضغط البريطاني من ناحية، وتعاطفًا مع القوات المصرية التي حققت انتصارًا كبيرًا في وسط الجزيرة العربية من ناحية أخرى، وأغلب الظن أن الحكومة البريطانية لم ترغب في توتر علاقتها بشيخ الكويت خاصة أن النشاط المصري في الكويت كان ضئيلًا لذلك لم يؤد هذا التقرير إلى وقوف بريطانيا موقفًا متعنتًا من النشاط المصري فيها كالموقف المتعنت الذي وقفته من التوسع المصري في البحرين.

وعلى الرغم من ذلك فقد استمر تعاون شيخ الكويت مع محمد أفندي مبعوث خورشيد في الكويت، والدليل على ذلك تسهيله لوكيله مهمة شراء الغلال اللازمة^(٣)، وتقديمه لبعض الأموال للحملة المصرية على سبيل القرض؛ حيث إن المسؤولين في القاهرة تأخروا في إرسال الرواتب والمؤن إلى القوات المصرية في شبه الجزيرة العربية لمدة تزيد على نصف العام^(٤)، وكذلك تقديمه التسهيلات والمساعدات اللازمة للقوات العثمانية التي هربت من البصرة تحت قيادة محمود

كان مقرراً أن تلتقي قوات محمد علي من الشام مع قوات الجزيرة العربية على شواطئ الفرات لولا أنها اصطدمت بالأطماع البريطانية. عبد الرحيم عبد الرحمن: محمد علي وشبه الجزيرة العربية، ص ٣٧٣.

(١) غيور غي بواندر يسفكي: مرجع سابق، ص ٦٩، ٧٣.

(٢) Dodwell. H: The Founder of Modern Egypt: A study of Mohammed Ali (Cambridge: England 1967) p. 142.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، ترجمة الرسالة رقم ٣ الواردة من طرف الباشا القائد العام لنجد المؤرخة في ٩ شوال ١٢٥٥ هـ / ١٦ ديسمبر ١٨٣٩ م.

(٤) عبد العزيز سليمان نوار: مصر والخليج العربي، ص ١٦٤.

أغا المورة وأرادت الالتحاق بقوات خورشيد في نجد، حيث أركبهم سفينة كويتية وصلت بهم إلى الإحساء ورفض طلب والي بغداد بإلقاء القبض عليهم وأعادتهم إلى البصرة^(٥).

وأقلق هذا الموقف من جانب شيخ الكويت بريطانيا لدرجة أنه جعل بامستون ينشط بصورة غير عادية ليفكر في اتخاذ الكويت قاعدة للأسطول البريطاني في حالة مغادرة الإنجليز لجزيرة خرج، وبعث بالسفينة الحربية «كوله Coole» لدراسة ميناء الكويت في أعقاب الانسحاب المصري من الكويت، وفي الوقت نفسه حاول إقامة منشآت فيها ولكنه قوبل برفض شيخها لتلك الطلبات^(٦).

كما أن بريطانيا قد خشيت على هيبتها التي بدأت تسقط في نظر سكان الخليج نتيجة لوصول تلك القوات إلى سواحلهم، خاصة بعدما بدأ التوسع المصري يتجه شمالاً وجنوباً في آن واحد، كما سبق أن أوضحنا، إلى جميع إمارات شرقي شبه الجزيرة العربية، الأمر الذي جعله ينذر باتحاد وشيك بين تلك الإمارات، سيعمل على تجميع التيارات الصغيرة في وحدة تحت حكم واحد^(٧)، تشكل عائقاً أمام الهيمنة البريطانية على الخليج.

وقد أتت هذه التهديدات من جانب بريطانيا ثمارها لأن محمد علي لم تكن لديه الإمكانيات للوقوف أمام هذا التحدي السافر، خاصة أنه لم يكن يمتلك القوة البحرية اللازمة القادرة على مواجهة سيدة البحار في ذلك الوقت، هذا بالإضافة إلى رغبته في إرضائها في الوقت الذي كان يحتاج لمآزرتها خلال مشروعاته التوسعية على حساب الدولة العثمانية في الشام، وأدى ذلك إلى توقف التقدم المصري تجاه الخليج، متظاهراً بأنه لا يفكر في الوقت الحاضر في التقدم إلى بغداد، خاصة وأن

(٥) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٧ حراء، من مير مران خورشيد باشا إلى صاحب الدولة والعاطفة، بتاريخ ٣ ربيع الآخر ١٢٥٥ هـ / ١٥ يونيو ١٨٣٩ م؛ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: دور البصرة في أحداث نجد وشرقي شبه الجزيرة العربية، ص ٧٣.

(٦) لجنة من المختصين: الكويت وجوداً وحدوداً الحقائق الموضوعية والادعاءات العراقية، (الكويت: مركز البحوث والدراسات الكويتية، ١٩٩٨) ص ٦٦.

(٧) محمد حسن العيدروس: تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ص ١٤٩؛ جمال زكريا قاسم: تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ص ٣٩٨.

جيوشه مشغولة بعمليات توطيد الأمن في الشام، وإن بقيت تطلعاته تجاه الكويت والعراق قائمة، خاصة أن خورشيد باشا قد أرسل مندوب من طرفه لشيخ الكويت، الذي أبدى استعداداه للتعاون مع هذا المندوب، كما مد يد العون للقائد المصري، غير أنه تحت الضغط البريطاني تراجع عن موقفه الودي تجاه محمد علي.

خورشيد باشا يتطلع لضم البصرة ويطلب الإذن بغزو العراق

أما بالنسبة لطموحات محمد علي لضم العراق التي لم يبق غيره من أقاليم الشرق العربي خارجاً عن نطاق إمبراطوريته، لإبعاد النفوذ العثماني منه فقد حاول ذلك لولا أن بريطانيا وقفت له بالمرصاد نظراً للتأثير المباشر لتلك الخطوة على مصالحها في الهند^(١)، خاصة وأن تقارير قناصلها أكدت أن أهالي العراق «يفضلون حكم باشا مصر، وليس في العراق من يستطيع أن يُقاوم أية محاولة يقوم بها محمد علي لغزو العراق»^(٢)، حيث إن التحذيرات قد توالى على محمد علي محذره إياه بأنها لن تقف مكتوفة الأيدي إذا ما تجاوز حدوده وأقدم على غزو العراق.

كما أرسلت الحكومة البريطانية بعض قواتها إلى البصرة حتى تكون عائقاً أمام تحركات محمد علي تجاه العراق، وبالرغم من ذلك فليس هناك دليل يؤكد وجود تعاون بين تيلور Taylor المقيم السياسي البريطاني في العراق وبين علي رضا باشا والي بغداد ضد تقدم خورشيد باشا وتفكيره في غزو جنوب العراق، بل إنه اكتفى بنصح حكومته للعمل على إثبات عدم أحقية محمد علي في الكويت والقطيف والبحرين لأنها لم تحكم من قبل الوهابيين إلا لفترة قصيرة^(٣).

وفي الوقت الذي فكر فيه خورشيد باشا في ضم البصرة وجنوب العراق^(٤)؛

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ٩٩، وثيقة ٢، بتاريخ ١٦ محرم ١٢٥٠هـ/ ٢٥ مايو ١٨٣٤م.

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن: دور البصرة في أحداث نجد وشرقي شبه الجزيرة العربية، ص ٦٧.

(٣) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٢١٠.

(٤) ويذكر الكاتب السياسي التركي كمال باشا أن خورشيد باشا هو الذي جعل محمد علي يتطلع إلى الاستيلاء على العراق في الوقت الذي كان محمد علي عازماً عن ذلك. عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العرب الحديث، ص ١٣٦، ويذكر الدكتور نوار أن خورشيد باشا بذل جهده في

نتيجة للتقارير التي كان يتلقاها منها، والتي كانت تكشف عن تدهور الأوضاع فيها، وتحثه على التقدم إليها، في الوقت الذي غادرتها بعض القوات العثمانية فرارًا لتلتحق بقوات خورشيد في الإحساء، الأمر الذي أثار بريطانيا فراحت تعزز وجودها باحتلال جزيرة خرج^(١)؛ الواقعة في مدخل الخليج من جهته الشمالية في ١٩ يونيو ١٨٣٨م، وفي العام التالي أقدمت على احتلال عدن لإغلاق مضيق باب المندب أمام القوات المصرية في البحر الأحمر ومنعها من الاتصال بقواتها الموجودة في الخليج.

ونادى فارن Farren القنصل البريطاني بأن تستولي الحكومة البريطانية على الإحساء^(٢)، وكانت هناك نيات لدى السلطات البريطانية نحو اتخاذ الكويت قاعدة للأسطول البريطاني في الخليج في حالة مغادرة الإنجليز لجزيرة خرج التي كانوا يحتلونها آنذاك^(٣)، وبعث بامستون بتعليماته لحكومة الهند لمعارضة أي تقدم يقوم به خورشيد في الخليج والتدخل ولو بالقوة العسكرية إذا ما اقتضت الضرورة^(٤)، وفي الوقت نفسه أرسل بتعليماته إلى القنصل العام البريطاني في القاهرة يطلب منه توجيه إنذار حاسم إلى محمد علي بأن لندن «لا تبارك نواياه الشرقية»^(٥).

وأخذ الموقف يتأزم نتيجة لما كتبه الكولونيل تيلور المقيم البريطاني في بغداد إلى وزير خارجية بريطانيا اللورد بامستون موضحًا العواقب التي سترتب على وصول محمد علي إلى الخليج، وبادر بامستون بالكتابة إلى الكولونيل كامبل ممثل

هذا الشأن، ولكن محمد علي هو الذي أرغمه على الكف عن هذه المساعي ومنعه عن المضي في هذا الطريق». عبد العزيز سليمان نوار: مرجع سابق، ص ١٣٧.

(١) ويذهب أحد الباحثين إلى أن بريطانيا في ذلك الوقت كانت تبني في موانئها ثلاث بواخر مسلحة لإرسالها إلى العراق من جهة البصرة، وفي الوقت نفسه أرسلت بعثة تشيزني لدراسة مدى صلاحية أنهار العراق للملاحة البخارية، لأنها عازمت على أن تستغل أزمة السلطان العثماني بأن تتولى هي مهمة الدفاع عن العراق بما تراه يخدم المصالح البريطانية في المنطقة. عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٢١٨.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العرب الحديث، ص ١٣٥.

(٣) عبد العزيز سليمان نوار: مصر والعراق، ص ١٦٥.

(٤) F. O: 78/318, Palmerston to Campbell, 4, August, 1837.

(٥) F. O: 78/343, Palmerston to Campbell, 29, November 1838.

بريطانيا في القاهرة يبلغه تلك المعلومات وطلب منه استيضاح مدى صحة هذه المعلومات من السلطات المصرية في القاهرة، مؤكداً على أن أي تحرك من قبل الحكومة المصرية صوب الساحل الشرقي للجزيرة العربية سوف يُنظر إليه نظرة غير ودية، لأن «الإقدام على ضم العراق أمر يضر بمصلحته (محمد علي) ويعكر العلاقات الحسنة السائدة بينه وبين الحكومة البريطانية»^(١)، وعندما تسلم بوغوص بك وزير خارجية محمد علي احتجاج بامستون كان محمد علي غائباً في السودان، ومن ثم وعد كامبل بتسليمه له فور عودته، وأنكر أن تكون لدى محمد علي أية أطماع في البحرين أو العراق.

وكان خورشيد باشا بعد أن وصلت قواته إلى الإحساء والقطيف وتمت له السيطرة على هذه المناطق، وعقد عن طريق وكيله محمد رفعت اتفاقاً مع شيخ البحرين يعمل جاهداً على الإعداد لغزو العراق «ويتنظر الأمر لتنفيذ المشروع» مصوراً لمحمد علي أن عيونه وأنصاره بالعراق سوف يجعلون حملته ناجحة مغرباً إياه بأن العراق «ملكاً عظيماً يضاهي ملك مصر وهو الآن كالحسام الجوهر الذي سقط في حفير فبحسب ظني أن أخذه واجب.... وأن الشيء إذا صار وقته فلا ينبغي تركه»^(٢).

وذكر له أنه لتحقيق ذلك ليس بحاجة إلا إلى أن «يرسل مأمور لسعادة سر عسكر الأقطار الحجازية يُسهل جانب من العساكر الخيالة والقراية من الأتراك والمغاربة وغيرهم بحسب الإمكان» حتى تستكمل الحملة عدتها، وعندئذ «يكون التوجه إلى الحسا والقطيف ومنهم إلى ذاك الطرف» يقصد العراق، مؤكداً له أن الحملة سوف تكون بعيدة عن الأخطار أو الاعتراض من جانب الإنجليز، لأنه ليس له «عليهم تعدي كون أن البر في يدنا وممشانا في البر فهو أقرب وأسهل...» فإذا عزم وتوكل سعادة الخديوي نرجو سرعة الإفادة لأجل أن يصير المبادرة فيما هو لازم...»^(٣).

ولكن نداءات وإغراءات خورشيد باشا هذه جاءت في وقت كان الموقف الدولي

(1) Dodwell. H: op – cit , p 145.

(2) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، صورة الوثيقة العربية رقم ٤ حمراء من محمد خورشيد إلى باشمعاون جناب دوري، غرة جمادى الثانية ١٢٥٥هـ / ١١ أغسطس ١٨٣٩م.

(3) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، صورة الوثيقة العربية رقم ٤ حمراء من محمد خورشيد إلى باشمعاون جناب دوري، غرة جمادى الثانية ١٢٥٥هـ / ١١ أغسطس ١٨٣٩م.

في غير صالح محمد علي فقد تأزم في غير صالحه وبدأت السياسة الدولية تتخذ موقفاً مضاداً لسياسته التوسعية، الأمر الذي جعله يتراجع عن تنفيذ هذا المشروع وينصح خورشيد بعدم التفكير فيه أبداً ويأمره بالانسحاب إلى مصر^(١).

والواقع أن اندفاع خورشيد باشا نحو الخليج لم يكن إلا نتيجة حكمه على الأمور على ضوء خبرته بمنطقة الخليج والعراق فقط، أما حكومة محمد علي في القاهرة فكانت تحكم على الأمور بنظرة شاملة تمتد من الخليج ومدخل البحر الأحمر اللذين يسيطر عليهما الإنجليز إلى الجزائر التي نزل فيها الفرنسيون، وهذه النظرة الشاملة هي التي جعلت حكومة القاهرة حذره في الاتجاه نحو العراق حتى لا تثير ثائرة بريطانيا، في الوقت الذي استغل فيه الإنجليز تقاعس محمد علي عن الإلتفات بقوة نحو أهل العراق فعملوا على استخدامه قاعدة ضد توسعات محمد علي، في الوقت الذي تمسك فيه الأخير بوعده بعدم عبور الفرات، فخسر بذلك قوة العراق المؤيدة له، وأعطى الفرصة للإنجليز والعثمانيين لكي يقضوا على القوة العراقية الميالة إلى الجانب المصري.

وكان خورشيد باشا يرى من الاستيلاء على البصرة أمراً ضرورياً إذ لم تعد البصرة مجرد مركز استراتيجي يريد الاستيلاء عليه، فقد أكدت تقارير محمد رفعت التي كتبها إلى خورشيد باشا من الإحساء أهمية البصرة لازدهار واستقرار الأحوال في نجد والخليج، لقربها من منطقة جبل شمر، فأدرك خورشيد أهميتها في تزويد قواته بالغلل وغيرها من الأطعمة المتوفرة فيها بأسعار رخيصة، وبالجمال اللازمة لحمل أمتعة وعتاد قواته، إضافة إلى موقعها الجغرافي الاستراتيجي، وما تتمتع به من هواء طيب، كذلك ازدياد قوة التجارة فيها واتجاه إليها أنظار التجار النجديين للبيع والشراء والاستقرار فيها لمزاولة التجارة، الأمر الذي يدل على أن خورشيد باشا نظر للبصرة على أنها مركز تموين هام لمنطقة نجد وشرقي شبه الجزيرة العربية لتواجد كثير من التجار النجديين فيها، ولرواجها التجاري الذي سيعود على مينائي الإحساء والقطيف برواج الحالة^(٢)، ولذا فقد تحمس خورشيد باشا تحمساً

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: محمد علي وشبه الجزيرة العربية، ص ٣٩٦.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، المرقف العربي للوثيقة ١٣٧ هـ، صورة

شديدًا لضمها لدولة محمد علي باشا.

خاصة بعدما أصبحت البصرة مركز مقاومة مضادة لنشاط محمد علي في شرقي شبه الجزيرة العربية بحكم تبعيتها للدولة العثمانية التي أصبح محمد علي عدوها اللدود منذ بداية ثلاثينيات القرن التاسع عشر، والملجأ لكل الهاريين من وجه نفوذ محمد علي فاستقبلت الثائرين ضد نظام محمد علي مثلما حدث مع تركي بلماز قائد ثورة الجند غير النظاميين في الحجاز، والذي ذكر البعض أنه تلقى وعدًا من قبل الدولة العثمانية عبر والي بغداد بأن يكون واليًا على الحجاز^(١)، وبعد فشل ثورته هرب إلى البصرة، حيث شغل منصب قبودان باشا على السفن الموجودة بها، وظل في منصبه هذا حتى وصول قوات خورشيد باشا إلى البحرين، ومن ثم عمل خورشيد باشا على أن يجمع عن طريق أعوانه المعلومات عن البصرة وبغداد للاستفادة منها عندما تصدر له الأوامر بغزو العراق، وعمل على الاتصال بالساخطين على سوء الحكم في بغداد، وعلم علي باشا بهذه الاتصالات المضادة فاشتد اضطهاده لأهل بغداد^(٢).

كما تحولت البصرة إلى مركز اتصال بآل سعود، حيث بدأت الدولة العثمانية تستخدم والي بغداد للتجسس على تحركات محمد علي، والعمل على مقاومتها، فتذكر الوثائق أن والي بغداد وبصرة علي باشا كتب إلى فيصل بن تركي يذكر له «حيث إنك من الممتنين لجانب الدولة العلية ومجزوم صدق الخدمة لطرف السدة السنية وخلوص صداقتك إلينا ثابتة لدينا»، ولذا فإنه يجب عليه أن يحرر «كتابًا عن حالك وعمًا صار بطرفك وجرا لك مع المومى إليه خالد والذي معه»، وهل في إمكان قواته «رد العدو ومنعه»، وما هو الأسلوب الذي «يناسب لحالك»، وفيه

الجرنال المحضر من طرف محمد أفندي متضمن بيان الأحوال الصادرة من جهات مادة البحرين وغيرها.

- (١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: دور البصرة في أحداث نجد، ص ٦٦.
- (٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، المرقق العربي (هـ) للوثيقة التركية ٢٦١ هـ، من علي محافظ بغداد وبصرة إلى الأمير فيصل التركي، بتاريخ ٢٢ شعبان ١٢٥٣ هـ / ٢١ نوفمبر ١٨٣٧ م، المرقق العربي (ج) للوثيقة التركية ٢٦١ هـ، من فيصل السعود إلى خورشيد باشا، بتاريخ ١٩ محرم ١٢٥٤ هـ / ١٤ أبريل ١٨٣٨ م.

تقويتك ونجاح أمورك، ومصلحتك»، حتى يتمكن من تقديم المساعدة التي تحقق له مأربه بالكلية^(١)، وفيما يبدو أن والي بغداد والبصرة كان يهدف إلى الوقوف على قوة فيصل بن تركي ليعمل على وضع خطة ضد قوات محمد علي، وبالطبع فإن البصرة ستكون المركز الرئيسي لهذه الحركة المضادة.

وهنا أدرك محمد علي خطورة البصرة على وجود قواته في شبه الجزيرة العربية، وبخاصة بعد أن وصلت علاقاته بالدولة العثمانية إلى درجة العداء السافر في أواخر الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، ولذا فإن البصرة قد شملها مخططه التوسعي حتى إن بعض المصادر تذكر أن الهدف الأساسي من معاودة محمد علي نشاطه في شبه الجزيرة العربية كان الوصول إلى البصرة وبغداد وضرب النفوذ العثماني هناك^(٢)؛ في ظل الظروف السيئة التي كانت تعاني منها ولاية بغداد وتجعلها غير قادرة على مقاومة قوات محمد علي إذا ما تقدمت إلى العراق.

وكانت بريطانيا تدرك أن استيلاء محمد علي على العراق سيؤثر تأثيراً مباشراً على المصالح البريطانية في الهند، ولهذا كانت تحذيراتها تتوالى عليه عن طريق المقيم البريطاني في الخليج، والقنصل البريطاني في القاهرة، محذرة إياه بأن «حكومة جلالة الملكة لا تستطيع أن تتجاوز عن أية خطوة يتخذها لمد سلطانه نحو الخليج الفارسي أو بغداد لأنها لا تستطيع أن تقف مكتوفة الأيدي إذا أقدم على تلك الخطوة»^(٣)، وطلب من الكولونيل كامبل القنصل البريطاني في القاهرة أن يعبر له عن «المدى الذي سيصل إليه أسف حكومة جلالة الملكة نتيجة اتخاذ أية خطوات تشير إلى أنه يكن نوايا لمواصلة توسيع نفوذه باتجاه بغداد»^(٤)، الأمر الذي دفعه إلى التقاعس عن الاستجابة لنداءات خورشيد باشا المتكررة بضم البصرة وبغداد للدولة العلية الفتية.

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٠، المرفق العربي (هـ) للوثيقة التركية ٢٦١ حراء، من علي محافظ بغداد وبصرة إلى الأمير فيصل التركي، بتاريخ ٢٢ شعبان ١٢٥٣هـ / ٢١ نوفمبر ١٨٣٧م.

(2) Dodwell. H: op – cit, p 144.

(3) F. O: 78 / 318, Palmerston to Campbell , no 25, December. 8, 1837

(٤) محمد مرسي عبد الله: مرجع سابق، ص ١٧٧.

مقاومة بريطانيا للوجود المصري في الخليج والعراق

لقد أثار وصول قوات محمد علي إلى الخليج بريطانيا؛ التي زادت مخاوفها على طريق المواصلات إلى الهند عبر البحر الأحمر، ونظرت إلى تحركاته في الخليج نظرة الشك والارتياب، ومن ثم أقدمت على احتلال عدن ١٨٣٩م^(١)، خاصة بعدما أصبح البحر الأحمر بمثابة بحيرة مصرية، وكاد الخليج أن يصبح كذلك^(٢)، غير أن ذلك جاء بنتيجة عكسية إذ أسرع إمام صنعاء بإعلان ولاءه لمحمد علي لكي يتقي بطش إنجلترا^(٣).

بيد أن بريطانيا لم يتزعزع موقفها عن إقامة العوائق أمام تحركاته خشية أن يأتي وقت يتحكم فيه محمد علي في الساحل الغربي للخليج فيضر بذلك سيادتها عليه، وفي ذلك دليل على تغير مواقف بريطانيا حسب ما تقتضيه مصلحتها، حيث إن بريطانيا كانت قد سعت خلال الوجود المصري في الخليج في المرة الأولى عام ١٨١٨م للتعاون معه ضد قبائل ساحل عمان الذين يقاومون التدخل البريطاني الذي لم يخش على نفوذه في الخليج من المصريين على اعتبار أن ظهورهم فيه وقتي بتكليف من الدولة العثمانية ولمهمة محددة، على عكس موقفهم في تلك المرة؛ إذ تغيرت النظرة البريطانية تلك بعدما لمسوا خطورة النتائج التي قد تترتب على نشاط قواده ومبعوثيه لدى شيوخ المشيخات العربية في المنطقة،

(١) سلطان بن محمد القاسمي: الاحتلال البريطاني لعدن ١٨٣٩م، ص ٢٠٨.

(٢) وزارة الدفاع: الجيش المصري عبر العصور، الجزء الثاني، (القاهرة: وزارة الدفاع، جمهورية مصر العربية، دون تاريخ طبع)، ص ٢١٥؛ أحمد زكريا الشلق (وآخرون): محمد علي وعصره، (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٦) ص ١٦٥.

(٣) عبد الرحمن الراغب: عصر محمد علي، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٩)، ص ٣١٢.

ومن ثم سارعت بتحذير هؤلاء الشيوخ من التعاون مع المصريين، وأرسلت بعض المبعوثين للمنطقة للحصول على تعهدات مكتوبة منهم بذلك، وكذلك لقيامهم بدراسة إمكانية إرسال البحرية الهندية لبعض سفنها لاستعراض قوتها أمام القوات المصرية من ناحية، وبعث الثقة لدى شيوخ القبائل العربية في قدرة بريطانيا البحرية من جهة أخرى، وظلت ترقب الفرصة لإرجاع محمد علي إلى حدوده، مستغلة اندحار الجيش العثماني في موقعة نصيبين، فتصدت بعنف لمحمد علي وحطمت طموحاته على صخرة معاهدة لندن ١٨٤٠م وانتهى الموقف بأن سحب قواته من شبه الجزيرة العربية لينتهي نفوذه ويتخلى عن طموحاته ومشروعاته في شرق شبه الجزيرة العربية.

لكن أهم ما يمكن ملاحظته هو أن تقدم القوات المصرية إلى الخليج قد نبه بريطانيا لخطورة الأوضاع على أحد المنافذ الحيوية الموصلة إلى مستعمراتها في الهند، ومن ثم عملت على إحكام سيطرتها على ساحل عمان وعمان والبحرين والكويت في أعقاب انسحاب القوات المصرية عام ١٨٤٠م، خاصة بعدما رأت التعاطف الكبير من جانب شيوخ القبائل في تلك المنطقة في محاولة عن تعبيرهم عن مناهضة الضغوط البريطانية التي كانوا يعانون من آثارها، في الوقت الذي كانت الدعاية المصرية لتأسيس دولة عربية، ومن ثم تخوفت بريطانيا من نجاحه في تحقيق ذلك الهدف الذي كان يُشكّل خطرًا كبيرًا عليها، ولهذا تصدت للقوات المصرية المتقدمة تجاه المنطقة، لأنها رأتها خطرًا شديدًا على سياستها القائمة على مبدأ «فرق تسد»، فبينما كانت بريطانيا تركز جهودها للترفة بين مشيخات المنطقة لتحويلها إلى كيانات صغيرة مستقلة اسميًا تحت نفوذها، في الوقت الذي كانت خطة محمد علي ترمي لتوحيد تلك الإمارات في كيان واحد ضمن دولته الواحدة التي كان يتطلع إلى تأسيسها.

وعلى الرغم من تخوف بريطانيا الشديد من وصول محمد علي للخليج إلا أنها رأت أن قوات محمد علي يمكن الاعتماد عليها للوقوف ضد التوسع والنشاط الروسي المتزايد في منطقة الخليج، ورأى بعض الساسة البريطانيين، ومن بينهم بونسبى Ponsonby سفير بريطانيا في الأستانة وكامبل Campbell قنصلها في

القاهرة أن القوات المصرية أقدر على ذلك من قوات الباب العالي العثمانية^(١). غير أن اللورد بامستون لم يتقبل وجهات النظر تلك لأنه كان يخشى أن يؤدي الضعف المتزايد للدولة العثمانية إلى وقوع الحرب بين القوى الأوروبية التي ستتنافس بطبيعة الحال للسيطرة على المناطق الخاضعة للعثمانيين، كما أنه يخشى من وقوع الطريقتين الرئيسيتين للمواصلات بين بريطانيا والهند وهما طريقا البحر الأحمر والخليج لسيطرة حاكم واحد هو محمد علي، على أن اللورد بامستون وحكومة الهند البريطانية لم يعترضا على وصول القوات المصرية إلى الجزيرة العربية إذا كان سيؤدي إلى حفظ الأمن وازدهار التجارة، ولكنهم اعترضوا بشدة عليه عندما أحسوا أنه يتجه لتحقيق طموحه بالسيطرة على عدن غرباً، وعلى البحرين شرقاً، وعلى العراق شمالاً^(٢).

وترجع أسباب اهتمام بريطانيا ببلدان الجزيرة العربية على الرغم من أنها كانت حينذاك تتمتع بمزايا اقتصادية محدودة إلى أهميتها الإستراتيجية التي كانت تفوق أهميتها الاقتصادية بكثير، فالبحرين كانت تجعل من يسيطر عليها يتحكم في الخليج، أما العراق فقد كانت خير معبر إلى فارس ومنها إلى وسط آسيا، وفيما يتعلق بجنوبي الجزيرة العربية فإن أية قوة تسيطر عليها يمكنها التحكم في الطرق البحرية الموصلة بين الشرق والغرب والتأثير على الحركة الملاحية في البحر الأحمر غرباً والخليج شرقاً والمحيط الهندي جنوباً.

ومما تجدر الإشارة إليه أن تحركات القوات المصرية في الخليج قد أثارت وزارة الخارجية بلندن، ومن المعروف أن شئون الخليج من اختصاص حكومة بومباي، ومن ثم فإن اهتمام وزارة الخارجية بلندن بالتحركات المصرية في شرق الجزيرة العربية يؤكد لنا أهمية تلك التحركات ليس بكونها خطرًا يهدد حكومة الهند فحسب، وإنما لكونها تُشكّل خطرًا على الإمبراطورية الاستعمارية البريطانية

(1) F. O: 78 / 227 , Palmerston to Campbell , may. 24 , 1833.

F. O: 78 / 246 , Palmerston to ponsonby , august. 21 . 1834.

(٢) فاروق عثمان أباطة: دراسات في تاريخ العالم العربي والإسلامي الحديث والمعاصر، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٧) ص ١٥٧.

بأسرها^(١).

وكاد أن يتم الصدام بين القوات المصرية والبريطانية في ساحل الخليج، ويتضح ذلك من خلال رسالة بعث بها خورشيد باشا إلى محمد علي يؤكد فيها أن هدف بريطانيا الاستيلاء على الخليج، ويتساءل فيما يجب عمله ضد بريطانيا، ولكن محمد علي الذي توالى عليه إنذارات بامستون بلهجة شديدة محذرة إياه من عاقبة الاستمرار في سياسته التوسعية، في الوقت الذي كان متورطاً في الشام بعد انتصار قواته في معركة نصيبين، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من العاصمة العثمانية، فتصدت له الدول الكبرى، واتحدت ضده، فكتب إلي خورشيد باشا في ١١ سبتمبر ١٨٣٩م بأنه يتعين عليه العودة إلى مصر ويُغلق باب المصروفات الذي فتحه لنجد بعد أن يترك خالد بن سعود^(٢)، ليكرر طلبه بتاريخ ١٩ رمضان ١٢٥٥هـ/ ٢٧ نوفمبر ١٨٣٩م قائلاً: «الوقت ليس وقت المصلحة التي تصورها وآمل فيها، وأن أساس مهمته في الوقت الحاضر أن يهيئ السبيل لسحب قواته تاركاً البلاد لخالد بن سعود بشرط أن يترك عددًا من الجنود يكفونه ثم بعد ذلك يتوجه بقواته لهذا الطرف، ويغلق باب المصروفات التي فتحت لمشروعاته»^(٣)، ولم يكن ذلك إلا محاولة منه لكسب ود بريطانيا لتغض الطرف عن مشروعاته التوسعية في الشام، وهو أمل لم يتحقق بطبيعة الحال.

(١) محمد حسن العيدروس: تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، ص ٢٨٣.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة دون رقم، إرادة مزيلة رقم ٢١ صادرة

إلى خورشيد باشا لسحب قواته من نجد، ٢ رجب ١٢٥٥هـ/ ١١ سبتمبر ١٨٣٩م.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، إرادة رقم ٢٧ من محمد علي إلى خورشيد،

بتاريخ ١٩ رمضان ١٢٥٥هـ/ ٢٧ نوفمبر ١٨٣٩م.

الانسحاب المصري من الخليج والجزيرة العربية (عوامله . نتائج)

لم يستمر بقاء خورشيد باشا في نجد طويلاً إذ سرعان ما انسحب بقواته إلى مصر، ويرى بعض من المؤرخين أن ذلك الانسحاب كان تنفيذاً لمعاهدة لندن الموقعة بتاريخ ١٥ جمادى الأولى ١٢٥٦هـ / ١٥ يوليو ١٨٤٠م، وأن الأوامر صدرت إلى ذلك القائد بتنفيذ القرارات والعودة إلى مصر^(١)، غير أن الوثائق العثمانية تؤكد أن فكرة سحب القوات قد تكونت لدى محمد علي باشا قبل معاهدة لندن بحوالي عشرة أشهر منذ الثاني من رجب ١٢٥٥هـ / ١١ سبتمبر ١٨٣٩م بموجب الإرادة رقم ٢١ الصادرة آنذاك والمتضمنة حصر مهمة خورشيد بتهيئ الحكم لصالح خالد بن سعود ثم العودة إلى مصر ليغلق باب المصروفات الذي فتح لنجد^(٢)، ليكرر طلبه بتاريخ ١٩ رمضان ١٢٥٥هـ / ٢٧ نوفمبر ١٨٣٩م.

وتكرر طرح فكرة الانسحاب مرة أخرى من قبل محمد علي بتاريخ ١٣ ذي الحجة ١٢٥٥هـ / ١٧ فبراير ١٨٤٠م^(٣)، وفي ١٢ ربيع الأول ١٢٥٦هـ / ١٤ مايو ١٨٤٠م أبلغ محمد علي حاكم الحجاز أحمد باشا بأن خورشيد باشا على وشك الانسحاب من نجد وطلب منه الانضمام إليه في طريق عودته ومهاجمة بلدة الجديدة^(٤)؛ في دليل على تفكير محمد علي في سحب قواته من نجد قبل معاهدة

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: محمد علي وشبه الجزيرة العربية، ص ٣٨٨، ٣٨٩.
(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة دون رقم، إرادة مزيلة رقم ٢١ صادرة إلى خورشيد باشا لسحب قواته من نجد، ٢ رجب ١٢٥٥هـ / ١١ سبتمبر ١٨٣٩م.
(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٤، وثيقة ٢٨ حراء، رسالة من الجناح العالي إلى خورشيد باشا، ١٣ ذي الحجة ١٢٥٥هـ / ١٧ فبراير ١٨٤٠م.
(٤) دار الوثائق القومية: محافظ ذوات تركي، محفظة ١، وثيقة ١٣٢، رسالة من الجناح العالي إلى

لندن بحوالي عشرة أشهر.

ويمكن تلمس الدوافع الحقيقية لاتخاذ محمد علي ذلك القرار من خلال التهديدات البريطانية المستمرة له بوقف تقدم قواته في الخليج وسحبها^(١)، الأمر الذي شكل قلقاً للباشا، في الوقت الذي كان يسعى لكسب تأييد الإنجليز له، والاعتراف بسيطرته على الشام في الوقت الذي بدأت العمل على تكوين تحالف دولي ضده، كما أن محمد علي أراد تضيق ميادين حروبه ليركز جهوده في الشام التي تأزم موقفه فيها بتجدد الحرب مع السلطان العثماني فحاول جمع شمل قواته استعداداً لأي هجوم من قبل الدول المتحالفة في معاهدة لندن على سواحل مصر^(٢)؛ في الوقت الذي كان الأسطول البريطاني يربط أمام الإسكندرية^(٣)، وعدم استطاعة محمد علي إرسال المزيد من القوات العسكرية إلى الإحساء بسبب احتلال بريطانيا لميناء عدن ١٨٣٩م^(٤).

أحمد باشا، ١٢ ربيع الأول ١٢٥٦هـ / ١٤ مايو ١٨٤٠م، وثيقة ١٢٩، من الجناح العالي إلى مأمور الجديدة، ١١ صفر ١٢٥٦هـ / ١٤ أبريل ١٨٤٠م.

(١) وقد تنبه عبد الرحمن الرافعي إلى دور بريطانيا في إجبار محمد علي على سحب قواته من الجزيرة العربية فكتب يقول «وقد نازعه في بسط نفوذه عامل آخر وهو السياسة البريطانية الاستعمارية، فإن إنجلترا بعد أن وضعت يدها على عدن كانت تنظر متوجسة إلى القوات المصرية المجاورة لها في اليمن واحتجت بأن هذا الجوار مما يثير في نفوس الأهالي روح التعصب الديني». عبد الرحمن الرافعي: مرجع سابق: ص ٣٠٨، ٣٠٩.

(٢) مالك محمد رشوان: سياسة محمد علي باشا في شبه الجزيرة العربية ١٨١١-١٨٤٠، رسالة ماجستير غير منشورة، (أسبوط: كلية اللغة العربية بأسبوط، جامعة الأزهر، ١٩٧٨)، ص ٣٦٦، ٣٦٧.

(٣) ويتضح أن انسحاب محمد علي من الجزيرة العربية كان بهدف تجميع قواته لمواجهة أي هجوم محتمل من الدول المتحالفة في معاهدة لندن من تلك الرسالة التي بعث بها إبراهيم باشا يكن إلى مأمور الديوان الخديوي بالإسكندرية يخبره أنه تلقى خطابه بتاريخ ٢١ جمادى الأولى ١٢٥٦هـ / ٢١ يوليو ١٨٤٠م الذي ذكر فيه أن محمد علي قد أصدر تعليماته بأن العساكر القادمة من الجزيرة العربية تذهب إلى الإسكندرية، وأنه امثل لهذه التعليمات ومتوجه إليها بصحبة الآلاي العشرين والواحد والعشرين في القريب العاجل. دار الوثائق القومية: محافظ الشام، محفظة ٨٥، وثيقة ٢٦٥ هراء، من إبراهيم باشا يكن إلى مأمور الديوان الخديوي بالإسكندرية، ٢٤ جمادى الثانية ١٢٥٦هـ / ٢٢ أغسطس ١٨٤٠م.

(٤) محمد حسن العيدروس: تاريخ الجزيرة العربية، ص ٢٨٩؛ وإن كانت بعض التقارير البريطانية قد أرجعت انسحاب محمد علي من الجزيرة العربية إلى غيرة وحسد محمد علي من الانتصارات

ولعل الإرادة الصادرة لخورشيد باشا بسحب قواته من نجد تعطي سبباً جديداً لسحب محمد علي لقواته من نجد يتمثل في المصاريف الباهظة التي تكلفتها خزينته لإمداد قوات الحملة، حيث تبين أنه حين أمره بالانسحاب أراد إغلاق «باب المصروفات الذي فتح لنجد...»^(١).

إضافة إلى الصعوبات التي أصبحت تلاقيها القوات نظراً لابتعادها عن مصر وعن مراكز التموين في الحجاز، الأمر الذي جعل خورشيد باشا يظل فترة خمسة أشهر دون تلقي أية أخبار من القاهرة^(٢)، في الوقت الذي تعذر فيه أيضاً إمداده بالعتاد والمؤن عبر الخليج رغبة من محمد علي في عدم إثارة بريطانيا ضد تحركاته في الخليج، الأمر الذي جعل محمد علي يتوقف عن دعم خورشيد بإرسال السفن العسكرية إلى الخليج لتكون عوناً لقواته التي ذهبت للاستيلاء على القطيف مُتعللاً بأن «إرسال السفن من جدة إلى ميناء القطيف أمر لا يوافق بسبب بعض المحذورات»، ويطلب منه وقف تقدم قواته نحو تلك الجهات^(٣). وهكذا تولدت فكرة سحب محمد علي لقواته من الخليج قبل معاهدة لندن، ولذا كانت التحركات الأولى لخورشيد باشا وقواته بالانسحاب قد جاءت قبل معاهدة لندن^(٤).

وقد أشار عبد الرحمن الرافعي إلى أن انسحاب محمد علي من الجزيرة العربية كان قبل معاهدة لندن على إثر تخرج موقفه المالي فكتب يقول «على أن محمد علي ظل محافظاً على سلطته في جزيرة العرب رغم ما يقتضيه ذلك من النفقات الطائلة

التي حققها قائده في شرق شبه الجزيرة العربية، ولكن ذلك في الحقيقة غير صحيح ذلك أن أي مجد حققه خورشيد باشا هو مجد لمحمد علي نفسه. محمد حسن العيدروس: مرجع سابق، ص ٣٠١.

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة دون رقم، إرادة مزيلة رقم ٢١ صادرة إلى خورشيد باشا لسحب قواته من نجد، ٢ رجب ١٢٥٥هـ/ ١١ سبتمبر ١٨٣٩م.

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٢ أصلية، ٣٧ حمراء، رسالة من خورشيد باشا إلى عباس باشا يستفسر عن المحذورات التي تمنع إرسال السفن إليه، ١٩ محرم ١٢٥٥هـ/ ٤ أبريل ١٨٣٩م.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٢ أصلية، ٣٧ حمراء، الوثيقة السابقة.

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٥، وثيقة ١٤٩ حمراء، من خورشيد باشا إلى صاحب الدولة حول تحرك خورشيد من الشنانة إلى المدينة المنورة، ٣ شعبان ١٢٥٦هـ/ ٣٠ سبتمبر ١٨٤٠م.

إلى أن تخرجت الحالة في ختام سنة ١٨٤٠م ورأى مُلك مصر مُهدداً في سورية فاسترجع قواته من الجزيرة^(١).

ويذهب بعض الباحثين^(٢) إلى أن علي رضا باشا والي بغداد قد حاول استمالة خورشيد باشا ليسند إليه أمر شبه الجزيرة العربية التي أبدى مهارة فائقة في إدارتها والسيطرة على قبائلها، بالإضافة إلى أنه كان يحظى بتأييد بعض قبائل جنوب العراق خاصة المتفق الذين بعثوا إليه بعريضة يطلبون فيها انضمامهم إليه، ولكن خورشيد باشا رفض هذا العرض وأثر الانسحاب تنفيذاً لأوامر سيده مطبقاً لشرفه العسكري، بالإضافة إلى أن ولاء خورشيد باشا لمحمد علي قد جعله يرفض الطلب ويعود إلى مصر^(٣).

وعلى الرغم من صدور الأوامر إلى خورشيد باشا بالانسحاب من الجزيرة العربية إلا أنه مكث مدة تزيد عن خمسة أشهر دون أن يتخذ إجراءات فعلية نتيجة لعدم ترحيبه بفكرة الانسحاب، فقد «مضت على تاريخ الإرادة السابقة التي صدرت إلى الباشا المشار إليه بالسفر إلى مصر نحو خمسة أشهر حتى الآن فيدعو عدم إتيانه وخروجه خلال هذه المدة إلى القلق، لأننا لم نعلم حتى الآن ماذا صنع الباشا المشار إليه»^(٤).

إلا أنه إزاء الرسائل المتكررة الواردة إليه من مصر اضطر في نهاية الأمر إلى الرضوخ للمكاتبات المتكررة التي تحثه على سرعة العودة، وبدأ في الانسحاب على مراحل، وفي وقت طويل، نظراً لحرصه على سرية عملية الانسحاب^(٥)؛ خوفاً من استغلال القبائل النجدية هذا التراجع في الهجوم على قواته.

(١) عبد الرحمن الراجحي: مرجع سابق، ص ٣٠٩.

(٢) محمد حسن العبدروس: تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، ص ٣٠١؛ عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٢٢٩؛ محمد حسن العبدروس: تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ص ١٦١.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، صورة الوثيقة العربية المرفقة بالوثيقة ٤ حمراء، من خورشيد باشا إلى الجناب العالي، في ٢٧ جمادى الأولى ١٢٥٥هـ / ٧ أغسطس ١٨٣٩م.

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٥، ترجمة الوثيقة ١٩ حمراء، ٢٥ أصلية، من أحمد شكري باشا سر عسكر الحجاز إلى المعية السنية، في ٤ جمادى الأولى ١٢٥٦هـ / ٤ يوليو ١٨٤٠م.

(٥) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٥، وثيقة ١٣٨ حمراء، من خورشيد باشا إلى الجناب العالي، ٣ صفر ١٢٥٦هـ / ٦ أبريل ١٨٤٠م.

ولذا فإن الوثائق تؤكد أن انسحابه من ثرماء إلى عنيزة «لقضاء بعض المصالح...»، وأن عودة قوات الآلاي من عنيزة إلى الشنافة^(١)؛ كان «بتصد تغير الهواء...»^(٢)، ولذا فقد أمر علي بك قائد الآلاي الخامس عشر المقيم في عنيزة بالانسحاب إلى الشنافة محاطًا بالسرية^(٣)، ثم كلف أحد قاداته وهو حسين أفندي بإدارة الأمور في ثرماء حين رحل منها في ١٥ ربيع الأول ١٢٥٦هـ / ١٧ مايو ١٨٤٠م إلى الشنافة^(٤)، وفيها قدم عليه خالد بن سعود في جمادى الآخرة^(٥)، وأعلمه خورشيد بخبر انسحابه وقام بتعيينه أميرًا على نجد في أعقاب انسحابه ليعود إلى الرياض حاكمًا من قبل الدولة العثمانية تابعًا لوالي جدة عثمان باشا من الوجه الإدارية، ليغادر خورشيد باشا الشنافة في ١٠ رجب إلى جبل شمر لاصطحاب جنوده المقيمين هناك، ثم التحرك منها ٢٣ من الشهر نفسه في طريق عودته إلى مصر مرورًا بالمدينة المنورة التي وصلها ٣ شعبان^(٦)، وبعد أن قام بتصفية حسابات حملته وميزانيته^(٧)، غادرها إلى ينبع في ٢٦ شعبان^(٨)؛ فوصلها في ٤ رمضان ١٢٥٦هـ / ٣١ أكتوبر ١٨٤٠م ثم

(١) بلدة جنوب غربي الرس. خليفة بن عبد الرحمن المسعود: "خالد بن سعود وعبد الله بن ثنيان بين التأيد المحلي والدعم العثماني ١٨٤١-١٨٤٣"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد ٩٣ (٢٠٠٦)، ص ٧٨

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٥، وثيقة ١٥٧ حمراء، رسالة من محرم أغا إلى الباشمعاون الخديوي، ٨ صفر ١٢٥٦هـ / ١١ أبريل ١٨٤٠م

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٥، وثيقة ١٣٨ حمراء، من خورشيد باشا إلى الجناب العالي، ٣ صفر ١٢٥٦هـ / ٦ أبريل ١٨٤٠م.

(٤) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٥، وثيقة ٢١٩ حمراء، رسالة من محرم أغا إلى صاحب الدولة، ربيع الثاني ١٢٥٦هـ / يوليو ١٨٤٠م

(٥) عثمان بن عبد الله بن بشر: الجزء الثاني، ص ١٨٣.

(٦) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٥، وثيقة ٥٢ أصلية، ١٥٠ حمراء، من عبده محرم محافظ المدينة المنورة، إلى صاحب الدولة والعناية باشمعاون الجناب العالي، ٣ شعبان ١٢٥٦هـ / ٣٠ سبتمبر ١٨٤٠م.

(٧) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٥، وثيقة ١٤٩ حمراء، رسالة من خورشيد باشا إلى صاحب الدولة، ٣ شعبان ١٢٥٦هـ / ٣٠ سبتمبر ١٨٤٠م.

(٨) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٥، وثيقة ٢٥٠ حمراء، رسالة من محرم أغا إلى الباشمعاون الخديوي حول سفر خورشيد باشا من المدينة المنورة إلى أبيار علي، ٢٦ شعبان ١٢٥٦هـ / ٢٣ أكتوبر ١٨٤٠م.

غادرها بسفيتين جهازتا لحمله إلى السويس^(١)، ليطوي صفحة الحكم المصري من الجزيرة العربية.

وإذا كان خورشيد باشا قد أتم في الشنادة مراسم تنصيب خالد بن سعود أميرًا على نجد بشكل رسمي، وجمع أمراء بلدانها وشيوخها وقرأ عليهم مرسوم تعيينه بإمارة نجد الصادر من محمد علي باشا طالبًا منهم دعمه ومساندته، كما ترك حسب أوامر محمد علي مائة من الجند غير النظاميين لدعمه^(٢)، وبادر خالد بن سعود من جانبه بإرسال خطاب إلى محمد علي باشا في ٩ رجب ١٢٥٦هـ/ ٦ سبتمبر ١٨٤٠م يشكره على تعيينه أميرًا للنجد، ويذكر فيه استعداده للخدمة والطاعة لوالي مصر^(٣)، غير أن أهالي نجد بمجرد انسحاب القوات المصرية من الجزيرة العربية، قد ثاروا على خالد بن سعود وعقدوا البيعة لعبد الله بن ثنيان^(٤)، واستمر الصراع بينهما إلى أن عاد فيصل بن تركي من مصر ١٨٣٤م.

وقد استغل كل من خالد بن سعود وعبد الله بن ثنيان الفراغ السياسي الذي وجد في أعقاب رحيل قوات محمد علي من شبه الجزيرة العربية فسعى كل منهم منفردًا لكسب تأييد مكتوب من أمراء نجد والإحساء وعلماؤها وأعيانها، لكسب دعم العامة من الناس، وفي نفس الوقت لاتخاذ مبررًا أمام السلطات العثمانية لتتويجهما حاكمين على البلاد باعتبار ذلك الدعم والتأييد دليلًا على إمكانية نجاحهما في إدارة البلاد انطلاقًا من الفلسفة العثمانية في تعيين الأمراء والتي تتوقف على مدى قبولهم شعبيًا، غير أن هذا التأييد سرعان ما اضمحل وسط المشاعر الحقيقية التي ساندت فيصل بن تركي حين التف حوله العامة والخاصة مؤيدين له تأييدًا صادقًا

(١) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٥، صورة الوثيقة العربية رقم ٢٨٤ حمراء، من المير ميران خورشيد باشا سر عسكر نجد من ينبع البحر إلى باشمعاون جناب داوري، بتاريخ ٤ رمضان ١٢٥٦هـ/ ٣١ أكتوبر ١٨٤٠م

(٢) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٥، خلاصة المكاتبات التي كتبت لحضرة الباشا رئيس معاوي جناب الخديوي، في ٣ جمادى الآخرة ١٢٥٦هـ/ ١ أغسطس ١٨٤٠م.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٥، وثيقة ٤١ حمراء، رسالة من خالد بن سعود إلى صاحب الدولة، في ٩ رجب ١٢٥٦هـ/ ٦ سبتمبر ١٨٤٠م.

(٤) جمال زكريا قاسم: دولة البوسعيد، ص ١٥٣.

عن اقتناع بصلاحيته وبجدارته في حكم البلاد، وذلك في أعقاب فراره من مصر سنة ١٢٥٩هـ / ١٨٤٣م^(٥).

وفي أعقاب عودة فيصل بن تركي كانت بريطانيا قد تعلمت الدرس جيداً فسعت لإحكام سيطرتها على الخليج، ذلك أن التقدم المصري قد نبهها إلى ضرورة توطيد علاقتها بمشيخات الخليج، ومن ثم عملت على تحسين علاقتها مع فيصل بن تركي فامتنعت عن تأييد المعارضين له في البريمي وما حولها، وأقنعت حاكمي عمان والبحرين بدفع الزكاة له بدلاً من استيلائه على بلديهما وهو ما كانت تخشاه ولن تقف مكتوفة الأيدي أمامه^(٦).

ويذهب أحد الباحثين^(٧)؛ إلى أن بريطانيا كان لها الدور الرئيسي في إطلاق سراح فيصل بن تركي من سجنه في مصر لتخوفها من عبد الله بن ثنيان الذي كان متديناً متعصباً ضد الاستعمار البريطاني، وكان يريد تحرير مشيخات الساحل المتصالح من ارتباطاتها مع بريطانيا باتفاقية ١٨٢٠م، ومن ثم فإنه بمجرد أن استقر في الإحساء بدأ يتطلع للتوسع تجاه البحرين وساحل عمان، ويذهب إلى أن الكابتن هينل المقيم السياسي البريطاني في الخليج قد بعث برسالة إلى محمد علي يريجه فيها الإفراج عن فيصل بن تركي ليعود إلى الإحساء خاصة بعد انتهاء حملته ضده فلم يعد لديه مبرراً لحبسه.

وقد عملت السلطات العثمانية في العراق على أن ترث الحكم المصري في الجزيرة العربية في أعقاب انسحاب القوات المصرية منها، فقد نبه التوسع المصري العثمانيين إلى أهمية الجزيرة العربية، ومن ثم سعوا إلى العودة إليها من جديد فأصدر الباب العالي فرماناً بإسناد ولاية جدة وتوابعها من «نجد والإحساء» إلى والي

(٥) اختلفت الروايات في كيفية هروب فيصل بن تركي من مصر، فالبعض قال إنه دون أي مساعدة، والبعض الآخر يذكر أنه كان بمساعدة محمد علي نفسه انتقاماً من بريطانيا والدولة العثمانية التي فرضت عليه معاهدة لندن بالقوة ووقفت أمام توسعته وحرمة منها، والبعض الثالث ذهب إلى أن عباس باشا حفيد محمد علي هو الذي أطلق صراحه أو ساعده على الهرب. حصة بنت جهمان الهلالي: مرجع سابق، ٢٧، ٢٨.

(٦) حصة بنت جهمان الهلالي الزهراني: مرجع سابق، ص ٣٣.

(٧) محمد حسن العيدروس: تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ص ١٦٢.

العراق، وعين الأخير نائباً عنه ليقوم بأمور الولاية وطلب من السلطات البريطانية أن تحمله على إحدى سفنها إلى مركز عمله في جدة، ورحبت بريطانيا بذلك ليعود العثمانيون إلى حكم شبه الجزيرة العربية ومعهم النفوذ البريطاني، ولم يشأ علي رضا باشا أن يغير الأوضاع المحلية داخل الجزيرة العربية فأقر أمراء آل سعود على ما يحكمونه دون التعرض لهم^(١)، وفي الوقت نفسه لم يشأ التدخل في الصراع بين خالد بن سعود وعبد الله بن ثيان الذي لم ينتهِ إلا بعودة فيصل بن تركي من جديد من منفاه في مصر في مايو ١٨٤٣م^(٢).

وعلى الرغم من محاولات الدولة العثمانية استعادة سلطتها على الجزيرة العربية، وبصفة خاصة نجد والإحساء عقب انسحاب القوات المصرية، إلا أنها لم تتمكن من ملء الفراغ الذي تركه انسحاب خورشيد باشا وقواته منها رغم اسناد شئونها إلى علي باشا رضا والي بغداد، الذي لم يحدث أي تغيرات تذكر في إدارتها، وبالتالي لم تستقر سلطة علي رضا فيها خاصة حين تولى عثمان باشا ولاية جدة وأبدى نشاطاً سياسياً ملموساً ليكون همزة الوصل بين نجد والعاصمة العثمانية.

وفي أعقاب عزل علي باشا رضا خف اهتمام العثمانيين بأمور الخليج وإماراته، واكتفوا باعتبار شبه الجزيرة العربية جزءاً من الدولة العثمانية دون أن يتابعوا مجهوداتهم لإدخال النظم الإدارية العثمانية في تلك الجهات، مما أعطى فرصة كبرى للقوى الطامعة، وخاصة إنجلترا وفرنسا وفارس، لأن تلعب دوراً بارزاً في تاريخ المنطقة، وبصفة خاصة بريطانيا التي تعاهدت مع مشيخات الساحل المهادر بمعاهدة ١٨٢٠م^(٣)، فوضعت يدها على ساحل عمان وقطر، ثم الكويت^(٤)،

(١) محمد حسن العيدروس: تاريخ الخليج العربي، ص ١٦١.

(٢) محمد حسن العيدروس: تاريخ الجزيرة العربية، ص ٣٠٣.

(3) Hurewitz. J.C: op – cit , pp 88 – 90.

(٤) فلقد دعا أحد المسئولين عن المصالح البريطانية في الخليج العربي والعراق إلى أن تستولي الحكومة البريطانية على الإحساء (Farren to Aberdeen, 28. Aug., 1841)، وكانت هناك نيات لدى السلطات البريطانية نحو اتخاذ الكويت قاعدة للأسطول البريطاني في الخليج العربي في حالة مغادرة الإنجليز لجزيرة خُرج التي كانوا يحتلونها حينذاك، وبالفعل بعث الإنجليز بالسفينة الحربية «كوله Coole» لدراسة ميناء الكويت، وحاولوا إقامة منشآت لهم، ولكن شيخ الكويت رفض طلباتهم. عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العرب الحديث، ص ١٣٥.

وأصبحت كل هذه الإمارات مثل البحرين تحت الحماية البريطانية، في الوقت الذي لم تقاوم فيه الحكومة العثمانية النفوذ البريطاني لأنها كانت تدين للإنجليز بخروج المصريين من الشام وشبه الجزيرة العربية^(١).

كذلك لم تستطع فارس وقف التدخل البريطاني في الخليج بعد تلقيها ضربة شديدة من الإنجليز في ١٨٣٧-١٨٣٨م، في الوقت الذي لم تستطع روسيا حماية الشواطئ الفارسية من هجمات الأسطول البريطاني، ولم تستطع فرنسا أن تقنع الحكومة الفارسية للاعتداد بها رغم حاجة الأخيرة لأي قوة أوروبية تستند إليها لدحض النفوذ البريطاني، إلا أن عدم وجود قواعد عسكرية أو تجارية لفرنسا في الخليج جعلها غير قادرة على تقديم المساعدات الفعالة للحكومة الفارسية.

أما القوة الإسلامية الناهضة والمتمثلة في سلطنة مسقط فلم تحاول توحيد جهودها مع فارس ليتحدا ضد الخطر المشترك والمتمثل في الإنجليز الذين كانوا يعملون على الانفراد بالسيطرة على الخليج، ولعل السبب في عدم اتحاد القوتين الإسلاميتين في عمل واحد مشترك يؤدي إلى تقويض النفوذ البريطاني في المنطقة راجع إلى مطامع كل منهما في الأخرى كذلك رغبة كل منهما في كسب الإنجليز كقوة إلى جانبهم للوقوف ضد مطالب العثمانيين والفرنسيين والروس في الوقت الذي كان الإنجليز يعملون على إسقاط أي حاكم لا يميل إليهم^(٢).

ولا جدال في أن انسحاب محمد علي من الحجاز كان ضربة قوية للمصالح الفرنسية، وقد تنبه القنصل الفرنسي في جدة إلى ذلك فكتب رسالة لحكومته في ٢٠ أكتوبر ١٨٤٠م يدعوها لإرسال ضباط من المهندسين الفرنسيين إلى جدة معرباً عن تخوفه من قيام بريطانيا باحتلال جدة بواسطة قاعدتها في عدن^(٣)، ومن ثم سعى الفرنسيون إلى توطيد علاقاتهم بالأشراف في الحجاز، وعملوا على مراقبة الأحوال في نجد والإحساء، وسعوا إلى الاتصال بخالد بن سعود الذي كانت تربطه بالقنصل الفرنسي السابق «فلوري» علاقات صداقة، وفي الوقت نفسه جرت محاولات من

(١) عبد العزيز سليمان نوار: مصر والعراق، ص ١٦٨.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص ٣٩٥-٣٩٧.

(٣) إلهام محمد علي ذهني: مرجع سابق ص ١٩١-١٩٤.

جانب الفرنسيين للاتصال بآل رشيد في حائل وجبل شمر في أعقاب الانسحاب المصري من الجزيرة العربية.

أما أمراء بني خالد فقد حاولوا استعادة إمارة الإحساء في أعقاب رحيل قوات محمد علي باشا منها، حيث عمل مشرف بن دويحس بن عريعر أحد أمراء بني خالد على الاتفاق مع محمد بن خليفة من أمراء البحرين ليتم تنصيبه أميراً على الإقليم، مقابل تسهيلات لآل خليفة في الإحساء، ولكن حاكم البحرين الشيخ عبد الله بن أحمد أعلن رفضه هذا الاتفاق، الأمر الذي أدى إلى نشوب نزاع بينه وبين محمد بن خليفة ليتمكن الأخير من الانتصار عليه وطرده من البحرين في الوقت الذي فشل فيه أمراء بني خالد في استعادة شيء من إمارتهم في الإحساء، وفقدوا أي أمل في العودة بتولي عبد الله بن ثنيان زمام الأمور في نجد، ومن ثم عمل على إحكام سيطرته على الإحساء^(١).

(١) توجد رواية أخرى عن نهاية إمارة بني خالد في الإحساء. انظر عبد الكريم عبد المنيف الوهبي: بنو خالد وعلاقتهم بنجد، (الرياض: دار ثقيف للنشر والتأليف، ١٩٨٩)، ص ٣١١-٣٤٢.

التدخل البريطاني في العراق واحتلاله

إذا كان الإنجليز قد فاتهم فرصة احتلال العراق خلال أزمة الصراع المصري العثماني من وجهة نظر هنري رولنسون القنصل الإنجليزي، الذي خلف تيلور عام ١٨٤٢م في بغداد^(١)، فإنه قد رأى أن فرصة حرب القرم التي كادت تنهار فيها الدولة العثمانية أمام القوات الروسية عام ١٨٥٣م قبل دخول فرنسا وإنجلترا الحرب في مارس ١٨٥٤م هي الفرصة البديلة لكي يعمل البريطانيون على احتلال العراق، ولهذا فقد رأى أن من واجبه العمل على تسهيل أمر استيلاء إنجلترا على العراق، لأنه رأى أن العراقيين أنفسهم - حسب اعتقاده - ينتظرون يوم الخلاص من الحكم التركي على يد الإنجليز^(٢).

وعلى أية حال فقد ظل التدخل الأوروبي السياسي والاقتصادي في العراق محدودًا حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى، وإذا كان خورشيد باشا قد تنبأ في إحدى رسائله إلى محمد علي بأن البحرين ستصبح مالطة أخرى لو تركت بيد الإنجليز^(٣)؛ فإن نبوءته قد تحققت بالفعل، وأصبحت البحرين في أعقاب الانسحاب المصري قاعدة للضغط على الساحل الغربي للجزيرة العربية، واستقر فيها الأسطول البريطاني حتى إذا ما قامت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م، وانضمت الدولة العثمانية إلى دول المحور تخلت بريطانيا عن سياستها في الحفاظ على الدولة العثمانية، وأقدمت على تجريد قوة عسكرية، نجحت في احتلال رأس الخليج والبصرة في ٢٣ نوفمبر ١٩١٤م، وتلتها حملة أخرى نجحت في دخول بغداد في مارس ١٩١٧م، ومع ذلك فقد ظلت الموصل تقاوم حتى بعد إعلان هدنة

(١) F.O:195/957. H. Rawlison to Waddington June, 14. 1853.

(٢) F.O:195/957. Carendon to Rawlison November, 3. 1853.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ الحجاز، محفظة ١٠٣، وثيقة ٧ أصلية، ٥٠ هراء، من خورشيد باشا إلى الباشمعاون الخديوي، بتاريخ ٢١ محرم ١٢٥٥ هـ/ ٦ أبريل ١٨٣٩م.

مدروس التي أخرجت الدولة العثمانية من الحرب، وتكونت في الأقاليم العراقية المحتلة هيئة يديرها موظفون بريطانيون وهنود مهدت لفرض الحماية البريطانية على العراق، ومن البحرين بدأت الحملة البريطانية لإحتلال العراق وفقد العراق استقلاله وتحول إلى مستعمرة بريطانية.

الخاتمة

من المؤكد أن الصراع بين محمد علي والسلطان العثماني في الجزيرة العربية والشام في العقد الرابع من القرن التاسع عشر قد لعب دورًا بالغ الأهمية في تاريخ العراق الحديث، فمن المؤكد أنه لو طال المقام بالحكم المصري في الشام والجزيرة العربية لحقق محمد علي دولته المستقلة المتكاملة سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، ولانضمت العراق إلى تلك الدولة الفتية التي باتت تهدد كيان الدولة العثمانية بتهديدها للآستان مرتين الأولى عام ١٨٣٣ م، والثانية عام ١٨٣٩ م، لولا تدخل الدول الأوروبية في كلتا المراتين وتصديها للتقدم المصري بعدما أصبح الصراع المصري العثماني يؤثر تأثيرًا إيجابيًا بالغًا على نظام توازن القوى في القارة الأوروبية، وبات يهدد آلية هذا التوازن في شرقي ذلك النظام بتهديده لكيان رجل أوروبا المريض ككيان ضروري ومهم لاستمرار ذلك التوازن.

والحقيقة قد أثر الصراع المصري العثماني في تاريخ العراق الحديث من شتى جوانبه السياسية والإستراتيجية والدبلوماسية والاجتماعية والاقتصادية، فمن الناحية السياسية جعل السلطان العثماني يفكر في القضاء على المماليك خوفًا أن يقلد داوود باشا ما يفعله محمد علي خاصة بعدما نهج نفس نهجه في الإصلاحات، وجعله أيضًا يُقدِّم على إحداث تغيرات إدارية أدت إلى اختفاء ولايتي البصرة والإحساء وخضوعهما لإشراف والي بغداد، كما لا يمكننا أن نغفل أنه نبه السلطان محمود الثاني إلى ضرورة إصلاح الأنظمة الإدارية بالدولة، ومن ثم كان القضاء على الإنكشارية، ثم متابعة الإصلاحات السياسية والإدارية من خلال التنظيمات العثمانية.

ومن الناحية الإستراتيجية نبه الدول الأوروبية وخاصة بريطانيا إلى أهمية موقع العراق الاستراتيجي كطريق للمواصلات العالمية بين الشرق والغرب، بعدما ظل في طي النسيان والإهمال حتى بدأت القوات المصرية تدق أبوابه من الجنوب والشمال في وقت واحد، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الخضوع لمحمد علي باشا والي مصر، الأمر الذي جعل بريطانيا تُرسل بواخرها المسلحة تحت ستار نقل البريد بغرض أن تكون على أهبة الاستعداد للتصدي لمحمد علي؛ إذا ما راودته نفسه بالتفكير في التقدم نحو العراق، فقد خشيت بريطانيا من وقوع العراق تحت يد محمد علي، الأمر الذي يجعله يُسيطر على طريقي مواصلاتها إلى الهند: الخليج والبحر الأحمر، خاصة بعد تقدمه إلى اليمن، ومن ثم رأيناها تُقدم على نقل مقر المقيم البريطاني إلى جزيرة خرج، بهدف مقاومة امتداد نفوذ محمد علي إلى الخليج، وخاصة البحرين والعراق، وفي العام التالي ١٨٣٩ تُقدم على احتلال جزيرة عدن في مدخل البحر الأحمر.

ومن الناحية الدبلوماسية أدى الصراع المصري العثماني بكل من فرنسا وبريطانيا وروسيا إلى رفع تمثيلها الدبلوماسي في بغداد إلى درجة القنصلية الدائمة، وتعين قناصل في كل من ديار بكر والبصرة، بهدف استكشاف نوايا محمد علي، ومحاولة التعرف على الخطوة التالية التي سيقدم عليها.

أما من الناحية الاجتماعية فقد ترتب على الصراع المصري العثماني تغيرات جوهرية في التركيبة العشائرية العراقية التي ظلت طوال الفترة المملوكية بعيدة عن السيطرة المباشرة لولاة المماليك في بغداد أو إشراف السلاطين العثمانيين في الآستانة، فنبه التوسع المصري الباب العالي إلى الدور الذي يمكن أن تلعبه تلك العشائر في التصدي لمحمد علي والوقوف بجانب الدولة العثمانية في أزمتها.

ولهذا رأيناها تستغل علماء الدين في العراق في الدعوة لمناهضة محمد علي والوقوف بجانب السلطان خليفة المسلمين، وفي الوقت نفسه تشجذ همم تلك العشائر لتدفع بها لخوض المعركة الفاصلة كوسيلة لشغل القوات المصرية في الشام حتى لا تستكمل استعداداتها، حقيقة لم تلعب تلك العشائر دورًا مباشرًا في معركة نصيبين أو في غيرها من المعارك التي دارت رحاها بين إبراهيم باشا وقواد

السلطان العثماني، إلا إنه مما لا شك فيه أن تلك العشائر كانت قوة ضاربة وشوكة في ظهر الجيش المصري كان على القادة المصريين ألا يغفلوها.

ومن الناحية الاقتصادية أدى الصراع المصري العثماني إلى نشاط التجارة عبر العراق نتيجة لتوقفها لبعض الوقت عبر طريق البحر الأحمر فأصبحت البصرة أهم ميناء تجاري على الخليج خاصة بعدما أصبحت نقطة الانطلاق الجنوبية للملاحة النهرية بالعراق، وبعدها أصبحت نقطة التقاء البريد بين أوروبا والشرق الأقصى والهند بعد انتقال الخطوط البريدية إليها في أعقاب بعثة تشيزني لدراسة مدى صلاحية أنهار العراق للملاحة النهرية، فقد نبه الصراع المصري العثماني بريطانيا إلى الاهتمام بخطوط النقل النهرية عبر العراق، الأمر الذي دفع الحكومة البريطانية إلى إرسال تشيزني لدراسة مدى صلاحية أنهار العراق للملاحة التجارية.

الحقائق التي كشفتها الدراسة

أوضحت الدراسة أن التطلع البريطاني للسيطرة على العراق، والطرق البحرية العربية كان سابقاً على تواجد محمد علي في شبه الجزيرة العربية، ولكن نجاح محمد علي في القضاء على الدولة السعودية الأولى كقوة عربية كانت تخشاها بريطانيا، أتاح لها الفرصة لتدخل تطلعها هذا حيز التنفيذ، فكانت حملتها على رأس الخيمة ١٨١٩م التي انتهت بتكبير مشيخات الخليج بمعاهدة ١٨٢٠م التي جعلت من بريطانيا صاحبة النفوذ الأول في تلك المناطق، والوصية على مقدراتها، حتى إذا ما عاود محمد علي نشاطه مرة أخرى ضد الدولة السعودية الثانية، ووصل إلى الخليج ونجح في عقد اتفاق مع شيخ البحرين، وأوجد وكيل له في الكويت، وأرسل سعد بن مطلق المطيري وكيلاً عنه لمشيخات الساحل العماني، عملت على التصدي لأطماعه التوسعية تلك بإقدامها على احتلال جزيرة خرج ١٨٣٨م، ثم في العام التالي احتلال عدن ١٨٣٩م للتصدي لتوسعه في اليمن وجنوب البحر الأحمر، وأرسلت بعثة تشيزني لدراسة مدى صلاحية أنهار العراق للملاحة البخارية، وأوجدت لها بواخر مسلحة في المياه العراقية، لتكون أداة للدفاع عنه إذا ما أقدم محمد علي على تنفيذ مشروعه لضم العراق.

أشارت الدراسة إلى أن محاولة تشيزني قائد بعثة الفرات لاستخدام البيثومين لأجل تشغيل مركبي البعثة البخاريين: دجلة والفرات، إن لم تكن التجربة والمحاولة الأولى في هذا المجال، وهو ما لم يستطع الباحث الجزم به، فإنها على أية حال من أولى المحاولات لاستخدام تلك الثروة النفطية التي تندفق عبر أراضي بلاد

الرافدين، منذ أيام الآشوريين، وقد أثبتت التنقيبات الحديثة أنه يملك أكبر احتياطي بترول في العالم.

أثبتت الدراسة أن مخطط محمد علي التوسعي لم يكن مقصوراً على مناطق شبه الجزيرة العربية بل تعداها إلى منطقة شمال الخليج والعراق، وقد بينت الوثائق العثمانية أن اهتمام محمد علي بالعراق كان منذ أن وطئت أقدام قواته الحجاز، حيث كشفت إحدى الوثائق عن أنه كلف محافظ المدينة المنورة بجمع المعلومات عن طريق جواسيسه وعيونه عن ولاية بغداد، وحينما عاود نشاطه في منطقة شرقي شبه الجزيرة العربية، اهتم قائده خورشيد باشا بموضوع غزو البصرة وجنوب العراق اهتماماً كبيراً، وصور له أهمية العراق لتوطيد حكمه في شبه الجزيرة العربية، وطلب منه الإذن في البدء في تنفيذ المشروع مغرياً إياه بأنها ملك يضاهي ملك مصر، ولكن حينما حانت ساعة التنفيذ كان الوضع الدولي في غير صالح محمد علي وضد سياسته التوسعية خاصة بعد هزيمة نجله إبراهيم باشا للجيش السلطاني فيوقعة نصيبين، الأمر الذي جعله يتراجع عن تنفيذ هذه الفكرة، وينصح خورشيد باشا بترك التفكير فيها نهائياً، ويأمره بالانسحاب إلى مصر ليغلق باب المصروفات الذي فتحه لمشروعاته.

الملاحق

وثيقة رقم (١)

القنصل البريطاني في طرابلس يدعو محمد علي للوفاء
بوعده الذي قطعه لكامل القنصل البريطاني في الإسكندرية
بمساعدة بعثة الضرات

محافظ الأبحاث: محفظة ٧٥، موضوع الشام ١١، صورة الوثيقة العربية رقم
١٨ / ٢٠، من جورجي وكيل قنصل الإنجليز بطرابلس إلى الجناب العالي، في
٢٣ ذي الحجة ١٢٥٠ هـ / ٢٢ أبريل ١٨٣٥ م.

المعروض لسعادتكم الأصفية صانها رب البرية
هو أنه الكولونيل شيسني الإنجليزي أفهمني أنه عرض لسدة سعادتكم الأصفية
من حيث ما أجبتم لرجاه في إعطاء أوامر شريفه بالمساعدة لأجل إرسال الأوابل
الحاضرة معه إلى نهر الفرة [كذا] حسب وعد والدكم الأعظم نصره الله تعالى
إلى حضرة الكولونيل كامبل قنسل الجنرال بالإسكندرية من جمال وبغال وغفرجيه
لأجل الطريق، فللكولونيل شاسني المذكور مراده يسافر المركب البيليك الذي معه
من هنا إلى مالطا لكي يُعلم قبطان باش بأن سعادتكم لم سمحتم بإعطاء الأوامر
في مساعدته ولوازمه ولكي يحيط ذلك علم الدولة الإنجليزية، ولكن قد افترأ أن

ربما سعادتكم ترجعوا تكرموا بذلك لزم أنه راجع إلى السويدية، وهناك ينتظر أوامر
سعادتكم الشريفة يومين وبعد اليومين يرسل المركب إلى مالطا.
ومعلوم سعادتكم المصارف الباهظة الجارية يوميا إلى المعالين الحاضرة
برفق الأوابل والعطل الذي يحصل الذي حاشا سعادة والدكم المعظم وسعادتكم
تسمحوا به ؛ بل الأمل من محبتكم إلى جهة الدولة الإنجليزية والإتحاد الحاصل مع
سعادة والدكم صاحب السعادة بأنكم تأمروا حسب وعده الذي لا يتقيد بالمساعدة
والإسعاف وتقديم كامل اللوازم إلى إتمام هذه المصلحة، وأدام الله تعالى على
سعادتكم العز والنعم إلى أبد الدهور... أمين

٢٣ ذي الحجة ١٢٥٠ هـ / ٢٢ أبريل ١٨٣٥ م

جورجي

وكيل قنصل الإنجليز بطرابلس

وثيقة رقم (٢)

محمد علي وإبراهيم باشا يخشيان من أن تكون بعثة الضرات لاحتلال العراق

محافظ الأبحاث: محفظة ٧٦، موضوع الشام ١٢، وثيقة ٧ / ٢١، من إبراهيم باشا إلى الجنب العالي، في ٧ محرم ١٢٥١هـ / ٥ مايو ١٨٣٥م.

مولاي صاحب الدولة والمرحمة ولي النعم

تلقيت بأيدي التفخيم أمريكم الجليلين المذكور فيهما مسألة الفرات، ومشكلة بيرة جك وروم قلعة ؛ فأحطت علما بمضمونهما. إن العودة إلى الخوض في مسألة بيرة جك وروم قلعة ليس إلا التصدي لازعاج دولتكم، وقد رأيتم دولتكم أن الأولى هو التخلص من عرض الإنجليز هذا وتحمله على الدولة بأنه إذا مس الأمة قرح يعلم ذلك من الدولة، ولا يقال إن دولتكم سببتم ذلك، فلنفرض أنني أوافق دولتكم في هذه الأولوية، ولكن إذا أنشأ الإنجليز قلعة في الفرات وأقدموا على عمل شيء كهذا ولم يعلم أحد أن دولتكم سببتم ذلك سوى المطلعين على الأسرار وجهلت الأمة الإسلامية بأسرها، فلا ريب أنهم سيقولون إن الفرات كان مجاورا لحدوده ولكنه رضي بهذه النتيجة مع علمه، أما اتفاق الدولة معنا فأمر محال لأن الحرب قد نفرتهم مناولين يغادر المها قلوبهم، كما أن مسألة الاستقلال في واقعة نابلس كانت سببا في زوال ثقتهم وأمنهم بتاتا ثم لأجل ذلك لا يميلون إلى الاتفاق معنا ولا بد أن يقولوا في أنفسهم أننا لو اتفقنا مع الإنجليز فإن اسطنبول أو بروسه تبقى في أيدينا ولا تبعد الدولة العثمانية، ولكنها تزول وتمحى بتاتا لو اتفقنا معهم فلا يأتوننا على الاتفاق معنا.

وقد سبق لخادمكم هذا أن انتهزت الفرصة إذ كنت بقونية فرفعت إلى أعتابكم العلية مسألة الاستقلال فأجبتُموني بجرة قلم قائلين يكفيني كوني محمداً علياً (أو حسبي أن أكون محمداً علياً) فلم ترضوا هذا العرض حينذاك إذ كانت الفرصة سانحة لنا وكنا نحن الغالبين ثم التمستم ذلك بعد تعيين الحدود بعد مدة مديدة فإذا اجتزنا هذه الحدود إلى الناحية الأخرى فإن الدولة متفقة مع روسيا بمقتضى شروطهم فلا يجوز لنا بوجه من الوجوه أن نطأ أرض تلك الجهة، أما حدودنا فإنها حددت دون أن نشترط شروطاً مع أحد فلا يدافع عنها أحد فيستطيعون مجاوزتها والوصول إلى هذه الديار متى اكتسبوا قوة ولا يخشون مرورنا إلى تلك الجهة، وعدا ذلك فإنهم قطعوا ثقتهم بنا لما وقع التماس بعد فوات الفرصة، إذ شوهنا تحريضاتهم في هذه الديار حتى اكتسبوا قوة، وقد أبلغت أعتاب دولتكم إن الموقف خطير فتكرمتهم وقلتم أنا أعلنتها، والغرض من حكاية هذا الماضي هو أن أقول إن المحذور الأول لم يزل قائماً أمامنا فينبغي لنا أن نعمل بدون استعجال، وبعد تفكير عميق ملاحظين العاقبة، فلنفرض أننا اتفقنا مع الدولة وصددنا مصالح الإنجليز، فإنهم قد فكروا في كل شيء قبل أن يقدموا على هذا العمل، فإن كانوا قد اعترضوا الحرب مجازفين قائلين فليكن ما هو كائن فإن أكثر الضرر يصيبنا فضلاً عن عدم قدرتنا على مقاومتهم، والضرر الذي قد يصيب اسطنبول - على فرض إصابته - يكون ضئيلاً، وبيان ذلك أنهم يستولون في بادئ الأمر على جزيرة كريت فإنها حلوى وتنقطع التجارة، أما انفاقاتنا فأكثرها عبارة عن المرتبات والجرايات، ولقد مكثت في مصر هذه المرة ثمانية عشر يوماً فنظراً لما رأيته من الموارد والمال ومصاريفه فلن تطيق مصر النفقات ستين، فإن قيل ينفق حينذاك على قدر الموجود، فأقول إن هذا شيء محدود ولا يقبل النقص، وأما الضرر الذي يصيب الآستانة فهو عبارة عن بضع جزر من الجزر التي بقيت، أو عن تجارة سلانيك أو أزمير فإن واردتهم منها قليل، كما أن تجارتهم في البحر الأبيض شيء يسير فيكون خسائرهم قليلاً بهذه المناسبة.

فإن كانوا يقصدون من وراء إنشائهم هذه القلعة أن يستولوا على بغداد فهل ترضى روسيا بترك بغداد للإنجليز مع وجود الشروط التي بينها وبين الدولة ؟ ولئن فرضنا أن روسيا أبت المداخلة في الأمر، وكنا متفقين مع الدولة، وأتوا بشمانين ألف

عسكري من الهند فإن إجلائهم من بغداد يكون أمراً غريباً لبعـد المسافة، كما يبعد عن العقل أيضاً أن يأتونا هم أيضاً لطول المسافة، أما إن كان غرضهم من إنشاء هذه القلعة هو حفظ مهماتهم فيمكنكم أن تقولوا لهم دون أن تكسروا خواطرهم نحن نتعهد بحفظ مهماتكم كما تريدون فليس لكم حاجة بإنشاء هذه القلعة فتصرفونهم بهذا التعهد عن إنشائها، فيمكن حينئذ حراستها بإرسال بلوك من المشاة أو الفرسان عملاً بما تقتضيه الأحوال بهذا التدبير، ولا نكون قد كسرنا خواطرهم ولا يلزمنا الانهماك في منعهم.

ولا تحرصوا على إرسال الجنود إلى الحجاز وفق غايتكم لأنني أظن أن الأمر لا يتم وفق رغبة دولتكم فإن كان الموقف يتطلب إرسالهم فاكتفوا بإرسال عدد من الجنود الترك تحت أمره بعض الرجال ولا تميلوا إلى إرسال جنود نظاميين لأننا قد نكون في حاجة إليهم... إن العادة القديمة جرت على اختيار أحد الشرين ويجيزه العقل أيضاً فلا ينبغي لنا أن نرضى بترك بيرة جك وروم قلعة.

وثيقة رقم (٣)

محمد علي يعرقل سرّاً نقل مهمات بعثة الفرات رغم موافقته ظاهرياً

محافظ الأبحاث: محفوظة ٧٦، موضوع الشام ١٢، وثيقة ٣٠، من دولة السر
عسكر إبراهيم باشا إلى والده الجناب العالي، في ١٤ محرم ١٢٥١ هـ / ١٢ مايو
١٨٣٥ م.

مولاي صاحب الدولة والمرحمة ولي نعمتي بدون منّ:
بما أنني رأيت أنه من الأولى إخطار المسلمين بمنع الأشياء اللازمة لنقل مهمات
السفن التي يريد الإنجليز إنشاءها في الفرات، هو أن يكتب إليهم بصفة سرية لا علنية
فقد كتبت إلى عبدكم عوني أفندي أشير إليه بأنه إذا كان الإنجليز استأجروا الدواب
لنقل المهمات أو جمعوا العمال لتعبيد الطرق، خوفاً متسلماً أنطاكية كأنه من تلقاء
نفسك دون أن تُشعره بأنه بإيعاز مني قائلاً: أظن أن هذه المسألة أمر عظيم فاحذر
ولا تعطه الرخصة وعرقل دائماً وإلا فتكون مهيناً السبب لإعدامك، وكذلك أوصيته
بألا يخلوا من تحريض الآخرين على منع المساعدة، وبأن يعمل هو أيضاً على تبعيد
المكارين والعمال إذا اتفقوا معهم وتغير من يريدون الاتفاق معهم، فورد منه،
أي عوني أفندي، عريضان في هذا الصدد قدمتهما طيه إلى مقامكم العالي، وفي
استطاعتي أن أعرض على عبدكم الموماً إليه أن يمنع المسألة من جميع الوجوه.

وثيقة رقم (٤)

محمد علي يأمر بإخلاء بلدتي بيرة جك وروم قلعة من
الموظفين المصريين لكي لا يسهل مهمة بعثة الفرات

محافظ الأبحاث: محفظة ٧٦، موضوع الشام ١٢، وثيقة ٢٥، من الجنب
العالى إلى مولانا الباشا السر عسكر، فى ٢٧ محرم ١٢٥١ هـ / ٢٥ مايو ١٨٣٥ م.

خلاصة ما سبق إيصاله إبراهيم باشا به من استدعاء الموظفين المصريين من بيرة
جك وروم قلعة وإجلائهم عنها، ثم يستعجله هذا الإجلاء والاستدعاء قبل أن تنقل
أدوات البواخر الإنجليزية لأن الجنب العالى قد أعطى الكولونيل كامبل قنصل
إنجلترا كتابًا يوصله إلى الباشا أمرا بالاهتمام بحمل هذه البواخر ونقلها، والجنب
العالى لا يريد أن يكون موظفوه فى البلدتين المذكورتين فى أثناء هذا النقل.

وثيقة رقم (٥)

محمد علي يمنع بعثة الفرات من المرور ويضع العراقيل أمامها

محافظ الأبحاث: محفظة ٧٦، موضوع الشام ١٢، وثيقة ٦٥، من دولة السر
عسكر إبراهيم باشا إلى والده الجناب العالي، في ٢٨ محرم ١٢٥١ هـ / ٢٦ مايو
١٨٣٥ م، مرفق (٢) من الكولونيل الإنجليزي مأمور قضية الفرات إلى إبراهيم
باشا، في ٢٢ مايو ١٨٣٥ م

«... ومع أن دولتكم وإن كنتم أبيتم بذل المساعدة لنا فلم يخطر على بالي
أصلاً أن المسألة ستصل إلى درجة أن يمنعوا الضباط التابعين لحكومة إنجلترا من
الذهاب والإياب، وكذا يمنعوا لوازمننا الخاصة بمصلحة سلمية من المرور والعبور
ويحجزونها في الجهات التي تحت سلطتكم في عهد الأمان والسلام...».

«... ولم يكتفوا بوضع هذه العراقيل وأمثالها في طريقنا بل قام إسماعيل
بك محافظ حلب وأصدر أمراً بمنع الأهالي من إعطاء جمال وبغال لتقل الأشياء
المتعلقة بحكومة إنجلترا، ويهدد الذين يخالفون هذا الأمر الصادر بمصادرة
أموالهم وأملاكهم، وبما أن الكابتن أسفوت أحد ضباطنا كان موجود في حلب أثناء
صدور هذا الأمر فإن الموماً إليه إسماعيل بك قد أبلغه الخبر شفهاً.

وفي تاريخ ٢٨ من الشهر الماضي ذهبت أنا شخصياً إلى متسلم أنطاكية،
وبعدما أريته فرمان السلطاني الخاص بسلوك نهر الفرات طلبت منه رخصة كتابية
بالسماح لمرور الحيوانات المستأجرة من أنطاكية فلم يُجب طلبي...».

«... إن حكومة إنجلترا قد عيّنتني مأموراً لقضية الفرات، وأفهمتمني بأنني سأجد كل الأشياء اللازمة لمأموريّتي في هذا الطرف حسب وعد والدكم العظيم والي مصر، ومع هذا عند وصولي إلى هذا الطرف بينما كنت أنتظر معاملة ودية قد شاهدنا عكس ذلك في كل جهة... فهل هذه المعاملات جارية بأمر من طرف جنابكم العالي أو برأي الحكام من تلقاء أنفسهم...، وعلى كل حال لا أريد الآن مناقشة هذه النقطة إنني أحيطكم علم

وثيقة رقم (٦)
تشيزني يطلب المساعدة من إبراهيم باشا
لنقل مهمات بعثة الفرات

محافظ الأبحاث: محفظة ٧٦، موضوع الشام ١٢، وثيقة ٨٧، مرفق رقم (١)،
من الكولونيل الإنجليزي « تشيزني » إلى إبراهيم باشا، في ٧ صفر ١٢٥١ هـ / ٤
يونيو ١٨٣٥ م.

مولاي...

بعد التماساتي المذكورة أعلاه الخاصة بترميم الطرق ونقل عتادنا ولوازمنا لي
التماس آخر، وهو أن تفضلوا وتصدروا أمرًا إلى سليم باشا أو إلى شخص عظيم
مثله بأن يرفق بنا جنود محافظين لإيصالنا إلى شط الفرات حيث إن نقل لوازمنا
على هذا المنوال يُظهر للأهالي بأن نقلها جاء برضاء جنابكم العالي وبأمر والدكم
العظيم، وأحيط دولتكم علمًا بأن العناية والمساعدة التي ستبذلونها في هذا السبيل
في خصوص نقل لوازمنا ستجلب سرور الدولة الإنجليزية إلى الحد الأقصى.

وثيقة رقم (٧)

تشيزني يلتمس إرسال كتب إلى المتسلمين والحكام لتسهيل مأمورية بعثة الفرات

محافظ الأبحاث: محفظة ٧٦، موضوع الشام ١٢، وثيقة ٢٠٨، ترجمة الإفادة
من محمد شريف باشا إلى سامي بك، من يافا، دون تاريخ (تقريباً ١٨٣٥ م).

قد ورد إلى المخلص كتاب باللغة العربية من قنصل إنجلترا العام المقيم في
مدينة الشام يقول فيه « من المعلوم أن ولي النعم أصدر أوامره الشريفة إلى السر
عسكر باشا وإلى حكمدار الشام بخصوص تقديم التسهيلات وبذل المساعدات
اللازمة في مسألة اشتراء ونقل المهمات وسائر الأشياء المتعلقة بشركة النقل إلى
الفرات، وإنه (القنصل) تلقى من ولي النعم إخطار بصدور هذه الإرادة والأوامر،
ورغمًا عن ذلك قد وصل إليه كتاب من المدير الثاني لمصلحة النقل المذكورة
يشكو فيه من المعاملة التي يلاقونها رجاله، ويقول إن رجالي لما وصلوا إلى جهات
« عيتتاب » بدلا من أن يبذل لهم حكام تلك الجهات المساعدة قابلوهم بالسؤال
عمًا إذا كان لديهم تصريح لإشتراء هذه الأشياء أم لا، لذلك يقول القنصل المشار
إليه في كتابه إذا كان يقتضي أمرًا خاصًا لإشتراء كل حاجة من لوازمهم فهذا يأخذ
وقت كبير، ويؤدي إلى تعطيل أشغال المصلحة ويقول أيضًا إن صاحب الدولة السر
عسكر موجود في جهة أدنة لذلك يلتمس تحرير كتابين مفتوحين خطابًا إلى كافة
المتسلمين من الحكام الموجودين في تلك الحوالي بخصوص بذل المساعدة
لإشتراء ونقل كافة الأشياء والمهمات اللازمة للمصلحة المشار إليها، وإرسال
هذين الأمرين إلى طرفه (القنصل).

وثيقة رقم (٨)

محمد علي يسمح بمرور مهمات بعثة الفرات
من السويدية إلى بيرة جك

محافظ الأبحاث: محفظة ٧٦، موضوع الشام ١٢، وثيقة ٢٧٤، ترجمة الإفادة
من إبراهيم باشا إلى سامي بك المؤرخة في ٦ جمادى الأولى ١٢٥١ هـ / ٣١
أغسطس ١٨٣٥ م.

علمت بمضمون إفادتكم الخاصة بتأخير مهمات الإنجليز في السويدية، يا
سامي في أول الأمر كان وصل أمره بتأخيرها، فكانت النتيجة أن لم تمس حبة
واحدة منها بشيء، ثم جاء في الأمر الوارد مرة أخرى أنه يجب تقديم المساعدة
اللازمة لنقل أشياء الإنجليز بسرعة، فكانت النتيجة أن كتبت طلبات للجهات بأن
تُسرع حالاً في تقديم الحيوانات وتُرسلها، ولغاية قيامنا أخيراً من أنطاكية نقلت
أشياءهم كلها إلا البعض منها، وهي أطقم المراحل عبارة عن أربعة أحمال أو خمسة
منها، حتى أن الكولونيل الذي هو أمراً لا يهم كذلك كان ذهب إلى «بيرة جك» ومن
المحتمل كذلك أن تكون الأحمال المذكورة كذلك قد نُقلت حتى الآن، ولكن
أشياء المذكورين كلها وصلت إلى «بيرة جك» ولا يترتب أي شيء متأخراً أو عدم
تأخير خمسة أحمالهم هذه، ومثلنا في هذا الخصوص كمثل الذي يهرب من المطر
لثلا يتل به فيأتيه البرد من حيث لا يظنه فيقع في مصيبته.

وثيقة رقم (٩)

العراق منطقة هجوم على القوات المصرية في الشام

محافظ الأبحاث: محفظة ٧٦، موضوع الشام ١٢، وثيقة ٣٦، المرفق (٢)، من
المعاون محمد نجيب إلى المعية السنية، في ١٧ جمادى الثانية ١٢٥١ هـ / ١٠
أكتوبر ١٨٣٥ م

نص الإفادة من أحمد أغا الذي حضر اليوم من جهة ملاطية «... في هذا
المساء قد حضر إلى طرفي المهندس الحلبي وقال لي: إن الكولونيل الإنجليزي
كان قد أرسل ضابطاً إلى رشيد باشا بمأمورية، وأن الضابط المذكور قد عاد وقابل
الكولونيل في «بيرة جك» وقال له: إن والي بغداد سيحضر إلى هذا الطرف وأنه (أي
الوالي) أرسل من الآن بعض الجنود النظاميين وهم في طريقهم إلى هنا، وأنه بعد
شهر الصيام سيحضر بالذات ويُقابل رشيد باشا ويتشاور معه ويضع خطة الزحف
على بلاد العرب من الجهتين، وأن السلطان أرسل فرماناً إلى والي بغداد ليحضر
ويقابل رشيد باشا، ونص في هذا فرمان بأنه لن يعين أحداً غيره وأنه (أي السلطان)
فوض هذه المصلحة إلى عهديهما الاثنين لتسويتها....». هذه هي إفادة المهندس
بعينها كما سمعها من الضابط الإنجليزي.

وثيقة رقم (١٠)
علي رضا باشا يُراسل فيصل بن تركي
مستفسراً عن حاله عارضاً عليه المساعدة

محافظ الحجاز: محفظة ٩٨، وثيقة ٢٦١ حمراء، المرفق العربي (هـ)، من
علي محافظ بغداد وبصرة إلى الأمير فيصل التركي، في ٢٢ شعبان ١٢٥٣ هـ / ٢١
نوفمبر ١٨٣٧ م.

السلام التام بالعز والإكرام إلى قدوة ذوي الحسب وزبدة أمراء العرب الأرشد
الأكرم: الأمير فيصل التركي ساعده الله تعالى وأعانه وأكرمه ولا أهانه.
أما بعد...

فالباعث لتحرير الكتاب هو أنه قد مضت مدة من الزمان وبرهة من الآوان ما
وردنا منك كتاب ولا وفدنا من طرفك خطاب عن حالك وكيفية أحوالك، غير أنه
قد بلغنا الخبر من الأفواه عن وقوع عزلك وممشا خالد السعود عليك، ومنازعته
معك، ودخوله أرض الرياض التي بيدك، ولا أخبرتنا عمّا جرا بينك وبينه، وكيف
آل أمرك معه فإله تعالى يعاونك ويساعدك على من عاداك ويظفرك بمن ناواك،
وحيث إنك من المتممين لجانب الدولة العلية، ومجزوم صدق الخدمة لطرف
السدة السنية، وخلوص صداقتك إلينا ثابتة لدينا، فلم نزل نستفسر عنك، على
البعاد، ونود تقويتك واستقرارك في تلك البلاد، ونحب اتصال خدمتك لطرف
الدولة العلية مدى الآباد، وإننا نكره المزاحمة لك على الديار، ولا يهون علينا ما
يصيبك من الضرر والأكدار، فما ينبغي أن تحرر لنا كتاباً عن حالك، وعمّا صار

بطرفك وجرالك مع المومى إليه خالد، والذي معه، وإن كان تصرف حزبك ضعيفاً ولم تطق لرد العدو ومنعه، ولم تقدر على كفه ودفعه فسيكون يفيدنا عمّا يناسب لحالك، وفيه تقويتك ونجاح أمورك ومصلحتك، وتجزم بحقك أطفاف الدولة العلية، وزيادة مودتنا لك، وإن شاء الله تعالى فما يتصور القصور عن مساعدة مقاصدك ومساعدة مآربك بالكلية، ولأجل إفادة الحال حررنا الكتاب وأرسلناه بمنه تعالى، لدى وصوله إليك ووفوده إليك ينبغي أن تزيد الاهتمام على ما ذكرنا، ولا تقاطعنا الأخبار والإعلام على الدوام، وخص نفسك منا بالسلام.

٢٢ شعبان ١٢٥٣هـ / ٣١ نوفمبر ١٨٣٧م

خالص الفؤاد

علي محافظ بغداد وبصرة

وثيقة رقم (١١)

محمد علي يخشى من تحركات علي رضا باشا والي بغداد،
ويستفسر عن قدرته

محافظ الأبحاث: محفظة ٨٠، موضوع الشام ١٦، وثيقة ٣٣٦، الورقة الرابعة،
من إسماعيل عاصم بك إلى الباشا السر عسكر، في ٢٧ ذي الحجة ١٢٥٤ هـ / ١٤
مارس ١٨٣٩ م.

مولاي...

اطلعت على أمر دولتكم الكريم الذي ذكرتم فيه أن عبدًا لعللي باشا والي بغداد
قد جاء ونزل ضيفا في بيت عبدكم معجون بك، فأمرتموني أن أستدعيه وأسأله عن
تفصيل أحوال تلك الديار، ثم أستدرجه فأسأله عن الطريق الذي يختار سلوكه علي
باشا لو اعتزم المسير إلى هذه الديار، وعمّا إذا كان الباشا الموماً إليه رجلاً عاقلاً،
وعن قدرته ومكانته في التدبير، فأرفع الجواب الذي يُدلي به المذكور إلى أعتابكم
الكريمة. ولقد دعوته عملاً بأمركم السامي فحضر وسألته وحادثته محادثة طويلة
جرت بيني وبينه عمّا إذا كان علي باشا يُزعم المجيء إلى هذه الديار، وعن الطريق
الذي يؤثر سلوكه لو شاء أن يجيء، وماذا عن مكانته من العقل والتدبير، فقال:
قد جاء أمر من الآستانة يقضي بمضيه إلى هذه البلاد مع حافظ باشا، وقد طلب
الحاج بكر أغا وأرسله إلى الآستانة، وقد زحف هو إلى العمادية، وسيغادر ماردين،
ويأتون ملاطية، ومن ملاطية إلى هذه الديار مع حافظ باشا، وقد كانوا قرروا —
على ما يقال — السير والحركة في أشرف الساعات من الخامس والعشرين من هذا

الشهر، أما الطريق الذي يمر فيه فهو طريق ملاطية، ولكنه يكره إتيان هذه الديار. ولما جاءه خبر حضور خورشيد باشا إلى نجد أرسل رجلاً مخصوصاً ليمحص الخبر، وقد عاد وأخبره أنه قد جاء نجد مع أربعين ألف عسكري، فبلغ الأستانة هذا الخبر ولم يأتي رده، وهو خائف جداً، وهو رجل عاقل، ولكن متساهل في أموره، ليس له خبرة بأي شيء، ثم إنه لو أراد أن يتخذ ترتيباً فإن الرجال الذين معه لا يدعونه ينفذ ذلك الترتيب بل يعملون بأرائهم. ..

وثيقة رقم (١٢)

فرار مجموعة من جنود البصرة إلى جانب القوات المصرية الموجودة في نجد تحت قيادة خورشيد باشا

محافظ الحجاز: محفظة ١٠٣، وثيقة ٧ حمراء، من مير ميران خورشيد باشا إلى
صاحب الدولة والعاطفة، في ٣ ربيع الآخر ١٢٥٥ هـ / ١٥ يونيو ١٨٣٩ م.

سيدي سني الهمم صاحب الدولة والعاطفة

إن الرجل المدعو محمود أغا المورة دي من العسكر الموجود في البصرة التابعين
لحضرة علي باشا والي بغداد، ركب فلكا في هذه المدة هو وسبعون جندياً سكباني،
وقام من البصرة حتى وصل إلى الكويت، ومنها أركبه ابن صباح أمير الكويت هو
والملازم محمد أفندي الموجود في الكويت من طرفي لإشتراء الغلال في زورق
وأرسل إلى الأحساء، ومنها إلىّ ومعه خمسة وستون جندياً مع قافلة الغلال الواردة
أخيراً، وبقي خمسة من جنوده في الأحساء فقيدنا أسماءهم في الدفتر اعتباراً من
أول ربيع الآخر وأعطيناهم تعييناتهم (الميرة المخصصة لهم)، وخيماً ومقداراً من
النقود، وأرسلنا لكم كشفاً بأسمائهم وأسماء بلادهم ضمن كتابنا هذا، وتقريراً من
محمود أغا المورة دي المذكور، ومن إطلاعكم عليه تعلمون أنه قال فيه أنه اتفق
هو وخمسماية جندي من الموجودين في البصرة، ومتى ما صدر له الأمر فإنه يرسل
مندوباً عنه ويأتي بهم، فما هي المعاملة التي يلزم أن نعامله بها، وهل نعطيهِ رخصة
ليأتي بأولئك العسكر أم لا، حسب ما قال، وبما أن هذه الأمور منوطة بإرادة حضرة
ولي النعم فإذا علمتم ذلك بإذن الله تعالى تعرضونه على أعتابه وإفادتنا بما تصدر
به إرادته منوطة بهمة دولتكم سيدي.

مير ميران خورشيد باشا

مرسل في ٣ ربيع الآخر ١٢٥٥ هـ / ١٥ يونيو ١٨٣٩ م

وصل في ٢٥ جمادى الأولى ١٢٥٥ هـ / ٥ أغسطس ١٨٣٩ م

ذيل...

سيدي... لقد رتبنا للأغا المرقوم الآن نصف التعينات المرتبة لرؤساء العسكر السكبانية وسيصرف له ذلك على هذا المنوال إلى أن تصدر الإرادة، هذا ما دعا إلى المبادرة بكتابة هذه الحاشية سيدي.

خورشيد باشا

إرادة مزيلة رقم ١٧

كتب له أن الإرادة توافق على إعطائه نصف تعيين وعلى استدعاء العسكر الذين اتفق معهم وعلى أن يرتب له تعيينا وتذاكر حسب أمثال رؤساء البيادة عند إكمال نصابه أربعمائة جندي وأنه يلزم أن يخبر الخزانة بذلك.

في ٢٩ جمادى الأولى ١٢٥٥ هـ / ١٠ أغسطس ١٨٣٩ م

وثيقة رقم (١٣)

فرار مجموعة من جنود البصرة إلى جانب القوات المصرية الموجودة في نجد تحت قيادة خورشيد باشا

محافظ الحجاز: محفظة ١٠٣، وثيقة ٧ حمراء، تابع الخطاب الوارد من مير
ميران خورشيد باشا سر عسكر نجد إلى صاحب الدولة والعاطفة، المؤرخ في ٣
ربيع الآخر ١٢٥٥ هـ / ١٥ يونيو ١٨٣٩ م.

تقرير محمود أغا المورة دي الذي جاء من البصرة:

ورقة (١)

إني عبدكم لما كنت قبلا في بغداد كنت رئيسا على أربعمئة عسكري سكباني،
وكان يوجد في تلك الأيام سبعة رؤساء غيري أيضا، وقد مكثنا مدة، ثم إن حضرة
علي باشا والي بغداد قطع مرتباتنا كلنا لعجزه عن الإدارة، وبما أنه كان مرتبا لي
وللرؤساء الآخرين ماهيات فقد صدر لنا الأمر بأن نقيم في بغداد بلا عسكر فأقمنا،
فلما حصلت ثورة بعد مدة في الموصل، وطلب إلى علي باشا المشار إليه أن يذهب
لإخمادها فترك في بغداد مقدارا من العسكر للمحافظة عليها من الفرسان الترك
وآلايين من البيادة وأخذ بقية العسكر وذهب بهم إلى الموصل، وفي ذلك الوقت
كان تركجة ييلمز سر عسكرا وقبودان باشا حاكما على البر والبحر على السفن
الموجودة في البصرة، فلما وصل الخبر إلى البصرة وبغداد أن حضرة خورشيد باشا
المأمور « سر عسكر » على نجد قبض على فيصل بن تركي، واستولى على جميع

أنحاء نجد، شاع بين الناس أن خورشيد باشا يزحف على البصرة وأن عسكره وصل إلى الأحساء والكويت فطلب تركجة بيلمز من علي باشا الذي هو في الموصل أن يبعث له بوجه السرعة عسكرياً وأسلحة وجبة خانة بقدر ما يكفي للمحافظة على البصرة، فصدرت الإرادة منه لي ولرئيس آخر اسمه صاري كوله بترتيب أربعماية جندي في معية صاري كوله، وإلحاق الأربعماية عسكري سكان الموجودة في البصرة من قبل بمعيتي، وأن يصير إرسالنا بسرعة، وكان الأمر كذلك فبعث بنا إلى البصرة، فبعد ما وصلنا إليها وأقمنا فيها قليلاً، عزل تركجة بيلمز.

ورقة (٢)

وعزل محمد أغا متسلم البصرة، ونصب بدلا عنهما سليمان أفندي أخو عبد القادر أغا مكاس « جمر كجي » بغداد فجاء للبصرة ومعه مائتي جندي فعلمت أنه لا يريد أن يجعلني رئيس عسكر مستقلاً بل يريد أن يلحقني بمعية صاري كوله، وأن تكون العسكر الذين هم في معيتي في معية سليمان أفندي، فلم ترق لي هذه الكيفية، وبما أنني منذ القديم وأمل أن أكون مشرفاً ومفتخراً بالخدمة المصرية الموجهة للفخر فقد عملت على قطع خرجي واتفقت مع نحو خمسمائة جندي من أصل ألف جندي المار ذكرها الموجودة في البصرة على أن نلتحق بمعية حضرة خورشيد باشا فشاع هذا الأمر فمنعوا من أجله إعطاء تذاكر وسفن، فلم يكن بالإمكان أن نأتي بذلك المقدار من العسكر فاستدعيت بوجه السرعة سبعين جندياً وركبنا الفلك بالكره عنهم وتوجهنا إلى الكويت وصعدنا إليها وجئت عند محمد أفندي مأمور اشتراء الغلال في الكويت من قبل حضرة خورشيد باشا، وبينما كان محمد أفندي ناوياً الإقامة في الكويت بضعة أيام جاء خطاب مع رجل مخصوص من البصرة لابن صباح أمير الكويت بطلب القبض علينا وإعادتنا إلى البصرة فلم يعبأ ابن صباح بذلك الكتاب وأجاب بأنه غير قادر على القبض علينا وإرسالنا بالإجبار ثم إن الأمير المرقوم أركبني أنا ومحمد أفندي والعسكر اللذين معنا فوصلنا إلى الأحساء، فصعدنا إليها ومنها جئنا إلى ثرمدة مع قافلة الغلال المرسله إلى خورشيد باشا من طرف محمد أغا الفاخري رئيس المغاربة مأمور الأحساء، وبعدما جرت بنا السفينة

من البصرة بثلاث ساعات أو أربع جاءنا خبر من أولئك العسكر الذين اتفقنا معهم
يسألوننا أن نُعيّن لهم محلا يخرجون إليه، وقالوا لنا إذا قبلنا أن نكون في الخدمة
المصرية فلنبعث لهم علما بذلك ؛ فإذا أمرتم نبعث من طرفنا رجلاً مخصوصاً يأتي
بهم بصورة ملائمة وهذا ما نعرضه.

وثيقة رقم (١٤)
استعدادات العثمانيين في العراق
للمعركة الفاصلة مع محمد علي

محافظ الأبحاث: محفظة ٨٢، موضوع الشام ١٨، وثيقة ٢٠٦ / ٢٧، في ٢٤
جمادى الأولى ١٢٥٥ هـ / ٤ أغسطس ١٨٣٩ م.
معروض عبدكم

بينما كانت قافلة بغداد قادمة إلى حلب أغارت عليها قبيلة عتزة، وقد حضر لدينا
في أورفة أحد رجال القافلة وقرر ما يأتي:

مضى عليه أربعون يوما منذ مغادرتنا بغداد، وكانت تدور فيها إشاعة تفيد بأن
إبراهيم باشا يكن قد استولى على البصرة، ويقيم علي باشا في الموصل، ولكن الفريق
عزت باشا وكيله في بغداد يجند الجنود لإلحاقهم بالجنود النظامية وغير النظامية،
وقد غادر محمد باشا اينجة بيرقدار أوغلي مدينة الموصل وسافر إلى جهات أورال
وكركوت وأربيل وكركوك، وما زال علي باشا مقيماً في الموصل، ولما ذاع نبأ
الاستيلاء على البصرة توجه جميع العساكر الموجودة في بغداد إلى البصرة، وجاء
من اسطنبول آلايان أحدهما آلاي فرسان، والآخر آلاي مشاة، هذا وقد جاء شخص
من ديار بكر وذكر أنهم يجندون في ديار بكر جنوداً نظامية ويلبسونهم الملابس
العسكرية وقيمونهم في الثكنة، ويجمعون أيضاً فلول عساكرهم النظامية القديمة
المشتتة هنا وهناك، وإنني قد اجترأت على عرض هذه الأنباء لإحاطة علمكم السر
عسكري بها، وأخيراً فالرأي الأعلى في الحالات كلها بيد من له الأمر.

٢٤ جمادى الأولى ١٢٥٥ هـ / ٤ أغسطس ١٨٣٩ م

العبد محمد المعجوني

وثيقة رقم (١٥)

وثيقة تعكس تعلق آمال العراقيين بوصول خورشيد باشا إليهم ليخلصهم من الاستبداد العثماني، وتعكس تدهور الأوضاع في العراق، وتوضح موقف الإدارة العثمانية في كلا من بغداد والبصرة من التوسع المصري في شرقي شبه الجزيرة العربية والخليج العربي

محافظ الحجاز: محفظة ١٠٣، صورة الوثيقة العربية المرفقة للوثيقة ٤ حمراء، من مير ميران سر عسكر نجد خورشيد إلى باشمعاون جناب داوري، بتاريخ ٢٧ جمادى الأولى ١٢٥٥ هـ / ٧ أغسطس ١٨٣٩ م.

أنه في يوم الثلاث المبارك سبعة وعشرون خلت من شهر جمادى الأول سنة ١٢٥٥ هـ قد ورد إلى طرفنا جناب حضرة الشيخ حمود بن جसार من علماء الإسلام أصله من أهالي نجد، وكان في السابق قاضيًا بالزبير، وكان له معنا صداقة قديمة بمدة إقامتنا بمحافظة مكة المشرفة، وتوجه إلى جهة بغداد من مدة زمان فلما بلغه أننا قاصدين تلك الأقاليم أرسل إلينا كتابا بمدة إقامتنا بعنيزة ومنها قد صارت المكاتبه بإخبارية تلك النواحي بيننا وبينه، والآن وصل إلينا بجوابات ومكالمات من نواحي بغداد والبصرة والمنتفق والزبير بوصايا من أشخاص معتمدين.

بند أول بخصوص بغداد

سأل الشيخ حمود بن جसार بخصوص علي باشا والتوصية التي هي على لسانه شفاهما من أكابر وأعيان بغداد وحوادث وأخبار تلك الأطراف.

بند ثاني (أ)

جواب الشيخ المومى إليه الأول بخصوص علي باشا فإنه بتاريخ ٢٥ صفر سنة ١٢٥٥ هـ، قد وكل بغداد فريق باشا وملا علي وهو توجه إلى الموصل بينه وبين بغداد مقدار إثني عشر يوم، ومعه من العساكر مقدار سبعة آلاف من الجهادية وغيرهم، فلما أنه وصل إلى جهة الموصل تفرق منهم ألفين بنواحي العراق وتبقى معه خمسة آلاف من الجهادية وغيرهم، وكان وصوله في ثاني من ربيع الأول، وحصل بينه وبين أهل الموصل وقعة فقتل من أعيانهم اثنان وسبعون شخصاً وسرحن من العلماء سبعة إلى نواحي البصرة من دون ذنب غير أنه يخبر على أنهم كاتبوا سعادة أفندينا إبراهيم باشا، ومبغضين إلينا، وذلك لمسألة ظناً منه، ثم أنه أراد التوجه إلى حافظ باشا فعند ذلك وردت إليه كتب من حافظ باشا يفيد أنه انكسر هو وعساكره، وصارت النضرة لسعادة أفندينا إبراهيم باشا وعساكره ؛ فمكث بمكانه ينظر ماذا يفعل الله به لكونه خائف من أهل بغداد غاية ونهاية حيث أنهم مع الإطلاق لا يألفونه وأكثر خوفه من هذه الجهات، والآن ببغداد مقدار عساكر من الجهادية وغيرهم لمحافظة البلدان ولا نعلم هل علي باشا رجع إلى بغداد بعساكره أم لا.

البند الثاني (ب)

بخصوص توصية بكوري بيك ومحمود أفندي مفتي الأخناف والشيخ سليمان بن غنام ضابط على العساكر الذين هم من أهالي نجد، ومقيمين ببغداد وهم ينوفوا على ألفين نفر، وجماً غفيراً ببغداد وجملة أعيان من أهالي بغداد صغار وكبار يخبروا سعادتكم أنه إذا تحقق عندهم على أنكم قاصدين البصرة وتلك الأطراف فنحن الجميع راغبين ومشتاقين إلى خدمة سعادة أفندينا محمد علي باشا، ونكون تحت أمر الله ثم أمره وله علينا القيام بخدمته فيما يعتمدنا عليه.

البند الثالث

من خصوص محمد أغا تركي بلماز فإنه مقيماً ببغداد منتظر جواب من سعادتكم بالأمان والعفو عن ما سلف وأقر على نفسه إذا عفى سعادة أفندينا عن ما مضى فإني خادم مطيع مملوك إلى الأبد نظير الذنب الذي تقدم فعله.

البند الرابع

من خصوص حوادث وأخبار بغداد فإنهم جميعاً متيقنين بحضور سعادتكُم إليهم ومستبشرين بذلك وكارهين ما عندهم، وبهذا الأسنى ونحن مقيمين ببغداد وردت إلينا أخبار وشاعت عند الخاص والعام بأن سعادة أفندينا خورشيد باشا وصل إلى البصرة فعند ذلك أقاموا جملة من الأعيان وعرفها أننا نتوجه لمقابلة سعادتكُم ونأخذ لهم أمان على أنهم سامعين ومطيعين فلما اهتموا بتحرير الأجوبة لسعادتكُم وردت إليهم الأخبار ثانياً على أن سعادتكُم بالأقاليم النجدية، وبعدد الأوقات يطلبون الله تعالى بنصرة سعادة أفندينا محمد علي باشا، وتحقق عندنا أنه ما يكن لسعادتكُم عدو ولا معاند بذاك الأطراف كلها.

البند الخامس

من خصوص أخبار وكيفية البصرة فإن عبد الرحمن أفندي نقيب الأشراف ومحمد أفندي وعبد الودود أفندي مفتين الشوافع وباش أعيان البصرة الجميع أخبرونا أنه إذا تحقق عندنا أن سعادة أفندينا خورشيد باشا متوجه لطرفنا نسلم له البصرة بغير نزاع، وأما البصرة فلا فيها عساكر سوى سرخوش معه مقدار عساكر أتراك.

البند السادس

من خصوص المتفق فإنه اجتمع عيسى شيخ المتفق وفيصل الثامر ولد عمه وسلطان بن شويط وعرفونا أنه لا نقدر نسعى لنا طارش، ولا نكتب سعادة أفندينا خورشيد باشا نخشى من الضرر علينا وعلى أملاكنا، ولكن إذا تحقق أنه قادم إلى هذا الطرف وثبت عندنا أنه متوجه إلى محروسة البصرة فنحن خدام ومطيعين لأمره واقفين في خدمته، وقد أعطونا جوابين إلى سعادتكُم، وكذلك جواب أرسلوه إلينا سابقاً بمدة إقامتنا ببغداد على منوال هذه التضحية وعرفونا شفاها بهذه الوصية، وهم يريدون أماناً على أموالهم وأملاكهم ويكونوا على خدمتهم المعتادة، ومطلوبهم الأمان من سعادتكُم، ويذكر به أن الشيخ عيسى هو شيخ المتفق ويكون هو وفيصل وسلطان بن شويط على ما هم عليه؛ كما أنه صاير من مدة جدودهم، وعرفونا أنه

إذا حضر لنا الأمان بهذا الشرط فنحن نجتهد بأموالنا وحلالنا ولله الحمد والمنة موجود عندنا من الخيالة ما ينوف عن اثني عشر ألف خيال فكلما يريد ف نحن في خدمته وتحت السمع والطاعة، هذه وصية المشايخ المذكورين أعلاه.

البند السابع

عن صورة الجوابات:

أولاً: - صورة الجوابين المحضرين من شيوخ المنتفق إلى سعادة سر عسكر نجد جواب من فيصل وعيسى تاريخه ٩ ربيع الثاني سنة ١٢٥٥ مضمونه أنه طرقتنا من أخباركم أنكم تريدون هذا الطرف الله يحييكم ويجعل عاقبة الأمر إلى خير، وقد اقتضى الحال أن نراسل جنابكم على مقتضى إرادتكم وما أشرتكم إلى حال أو أسى فنحن نتشرف بذلك وجناب الشيخ حمود له إطلاع على إرادتنا وتذاكرنا نحن وإياه بمقتضاها وإرادة غيرنا وفي رأيه البركة، وأما من طرفنا نحن فعلى ما أملتكم وزيادة ودم بعون الله مؤيداً منصوراً.

جواب من الشيخ عيسى شيخ المنتفق بتاريخ ٩ ربيع الثاني سنة ١٢٥٥ هـ مضمونه: بينما نترقب أخباركم السارة وآثاركم الدارة إذ في أبرك الساعات وأشرف الأوقات ورد إلينا شقة جناب الشيخ حمود بن جसार، وإذا فيها ما يُقر الناظر ويهيج الخاطر لاسيما أخباركم الشريفة وأنكم تريدون القدوم إلى هذا الطرف، وهو إن شاء الله تعالى أسهل ما يكون؛ ولكن جنابكم يعلم أنه لكل مقام مقال ولا كل ما يُعلم يقال، وجناب الشيخ المومى إليه له إطلاع على جميع أحوالنا وقد أخبرنا الخبر عن غيره، وكلفنا جنابه أن يذكرهم في أحوال هذا الطرف على ما يقتضيه رأيكم، وإذا همتم بالقدوم فأتحفونا بالخبر لكي يصير لدى محبكم معلوم ودم بعون الله مؤيداً منصوراً.

الثاني: - صورة الجواب الوارد من جناب الشيخ حمود بن جसार من حضرة الشيخ عيسى شيخ المنتفق مؤرخاً في ٢ محرم سنة ١٢٥٥ هـ مضمونه أنه ورد إلينا بأبرك الساعات عزيز كتابكم وبه عرفتونا من خصوص الإقبال والنصرة التي صارت لسعادة أفندينا خورشيد باشا أيده الله تعالى وأسر الخاطر ورودها نحمد الله تعالى

على صحة خاطركم وطيبكم، وما ذكرتموه صار معلوم وعسى إن شاء الله تعالى تكون واسطة خير بيننا وبين سعادة أفندينا خورشيد باشا وعسانا ما نعد من ولا يخلينا الله منك، ومن طرف الرابطة التي ذكرها جنابك بأنك مستتهي نوع تصليح بعض أمورنا مع سعادة أفندينا المشار إليه لجزاك الله خيرًا وأنت وكيلًا مفوضًا من طرفنا والذي يقتضيه رأيك هو المبارك.

البند الثامن

من خصوص كيفية أخبار الزبير، وهي بين الكويت والبصرة، ومخصصة لأهالي نجد لأجل أنه صاير بنيانها من مدة السعود فكان الذي لم يقبل دين الوهابي فيتوجه ويمكث بالزبير، ولذلك أكثر أهالي الزبير موجود لهم أقارب وعيال بنجد والزبير ودايم الأوقات واردين ومترددين لتلك الأطراف، فالذي يفيد سعادتك بها أن جميع أعيانها كالحاج عبد الله الفداغ فإنه يمتلك على ثلاثة لكوك فرانسة من دون أملاكه، وهي تقوم بخمسة لكوك فرانسة، ويذكر لنا أنه خادمًا لسعادتك ومهما أردتوه فإنه يتشرف بقضائه وباقي أعيانهم أخبرونا مثل ما ذكر لنا عبد الله ابن جمعان وباقي العلماء وتلاميذهم فإنهم جميعاً عاهدونا على السمع والطاعة في خدمة سعادتك وهم بأناء الليل وأطراف النهار يسألون الله تعالى أن يُهيئ لسعادتك القدوم إلى محروسة البصرة.

البند التاسع

سأل من حضرة الشيخ حمود بن جसार أن ما ذكرتموه صار لدينا معلوم، وكما نعلم أنه صحيح لداعي الصداقة التي هي بيننا وبينكم من سابق، غير أن هل يدرك بأن نرسل من طرفك جوابات وتحضر منهم أوراق بأختامهم سرًا بما هو مذكور أعلاه ليكون سندًا عليهم أم لا يقتضي الإفادة.

البند العاشر

جواب الشيخ حمود بن جसार أنه إذا صدر لسعادتك أمر كريم بالتوجه إلى هؤلاء الأطراف فلکم علينا أن نرسل إليهم من طرفنا جوابات بالواقعة ويحضر منهم

أوراقًا بأختام الجميع سنّدًا عليهم، وبما أن بعضهم يقبل ويواجه سعادتكُم، وبحول
الله تعالى أن ذلك أسهل ما يكون لما نحن معانين منهم ظاهرًا وباطنًا وطال الله
بقاكم.

عفى عنه

حمود بن جसार

قد تحرر هذا الجرنال المحتوي على أجوبة وأخبار الجهات المحررة به لأجل
إعراضه على المسامع الكريمة سعادة ولي النعم أدام الله إجلاله.

٢٧ جمادى الأولى ١٢٥٥ هـ / ٧ أغسطس ١٨٣٩ م

من ثريدة

مير ميران

سر عسكر نجد

خورشيد

وثيقة رقم (١٦)

خورشيد باشا يطلب الإذن بغزو العراق مغرباً محمد علي بأنها ملكا عظيما يضاهي ملك مصر

محافظ الحجاز: محفظة ١٠٣، صورة الوثيقة العربية ٤ حمراء، من مير ميران محمد خورشيد باشا سر عسكر إلى باشمعاون جناب داوري، بتاريخ غرة جمادى الثانية ١٢٥٥ هـ / ١١ أغسطس ١٨٣٩ م.

دولتو عاطفتلو سني الهمم سعادة باشمعاون جناب داوري المفخم دام بقاءه المبدو لسعادتكم أنه بتاريخ ٢٧ شهره ورد لطرفنا من نواحي بغداد الشيخ حمود بن جसार من العلماء الأفاضل، وما عنده من الأجوبة والأخبار فإنه تحرر بهم جرنال وهو قادم لسعادتكم مع عبد همان مخصوص خشية من عدم الوصول، ثم إنه في مدة سنة ونحن نستجلب أسرار تلك النواحي وتحضر إلينا الأخبار زيادة عنما هو موضح بالجرنال، وهذا الشيء ظاهر ومعاينته، فالمرجو من عالي همتمكم إعراض ذلك على المسامع الكريمة ويصير جميع ما ذكرناه محيطاً بعلم الشريف حرفاً بحرف، فإذا اقتضت الإرادة السنية بالتوجه إلى ذاك الأطراف فبعتاية مولانا الكريم وبنفوس سعادة الخديوي الأكرم لا يحصل إلا الخير، وبلوغ المرام خصوصاً بهذا الفتح والنصر العميم الذي صار لسعادة سر عسكر باشا ولا يخفاكم أن هذا ملكاً عظيماً يضاهي ملك مصر، وهو الآن كالحسام الجوهر الذي سقط في حفير فبحسب ظني أن أخذه واجب غير أنه يلزم الاستحراص والقوة، ولو أن ما بلغنا صحيح؛ ولكن لا تحلو الديار، ولو أن الأهالي مطيعين فالأطراف أجناس

مختلفين، ومن حيث ذلك فلأجل إظهار القوة يقتضي الحال بمقدار ألفين خيال وعساكر جهادية وأكم ألف كيس بحسب اللوازم لأن الدراهم هي عين القوة أولاً في أجر الرجال لمشال العساكر والمهمات والذخائر التي يأخذوها معهم، كذلك أن كثرة الذخائر فلا يلزم مشالها بل إنه مع وجود الدراهم فيشتري الذخائر اللازمة من ذاك الأطراف أولاً بأبخس ثمن، ثانياً يصير به توفير أجر مشاله، أما من خصوص العساكر فكما تعلم أنه الآن لا يوجد بطرف سعادتك عساكر كما بلغنا، فإذا كان يتحسن ويرى موافق سعادة ولي النعم بإرسال مأمورين لتشهيل العساكر إلى طرفنا من محلاتها لأنه إذا كان بموجب أوامر فلا يتحصل تشهيل الأمن بعد مدة مديدة تنوف عن ثمانية أو تسعة شهور مع أن هذا وقته وبملاحظتنا أن الشيء إذا صار وقته فلا ينبغي تركه خصوصاً مثل هذا، ثم أنه إذا أرسل أحد المأمورين لجهة الحرية ينقص العساكر الجهادية، ولا بد أن يظهر من الثلاثة الآلايات آلاي أو آلاي ونصف كذلك الخيالة يصير نقصهم، والجميع يصير تشهيلهم وحضورهم لطرفنا، فإن لوحظ أنه يصير عطل بذلك الطرف فلا خافي سعادتك أن العساكر بجهة الحرية فلا يكن بها نفع ولا نتج منهم فائدة بمقتضى ما صار وبما نحن ملاحظين، وربما أن يكون ورد لسعادتك صحة الأخبار فإذا كان الأمر كما ذكر فيصير تلك الأطراف أبدي في كل شيء، الثاني: أن يرسل مأمور لسعادة سر عسكر الأقطار الحجازية يشهل جانب من العساكر الخيالة والقراية من الأتراك والمغاربة وغيرهم بحسب الإمكان، وإن شاء الله تعالى في مدة شهرين ثلاثة يكون التوجه إلى الحسا والقطيف ومنهم إلى ذاك الأطراف.

وأما من خصوص الدراهم فيرسل أكم ألف كيس من المحروسة، إما في مركب الدخان أو على هجن، إنما إذا صارت الدراهم بزيادة فبحسب عشمنا أنه أقوى ولا يخفى لسعادتك أنه لو يصرف على هذا الملك خمسين ألف كيس أو زيادة فلا هو كثير بل إنه أبدي من غيره، والذي علينا أننا نجتهد دائماً حتى روحنا تفارق الجسد، وذلك من أجل حصول المرام لم هو كثير بل يستحق زيادة عن ذلك ومنفعة تلك الأطراف، فلا يخفى على سعادتك والذي بعشمنا أن سعادة أفندينا ولي النعم يرغب لمثل هذا الأمر، فإذا عزم وتوكل سعادة الخديوي نرجو سرعة الإفادة لأجل أنه

يصير المبادرة فيما هو لازم، كذلك تعرضوا للأعتاب الكريمة بإصدار أمره الشريف لسعادة سر عسكر باشا أن يلاحظنا بنظره، وإذا لزم إلينا جانب عساكر ونعرض في شأنها لسعادته فيرسلها لطرفنا في قوف الشط، كذلك من خصوص الإنكليز فإذا صار معهم مكالمة عن الموجودين بالمحروسة، وأما الذي بهذه الجهات فلا لنا عليهم تعدي كون أن البر في أيدينا، وممشانا في البر فهو أقرب وأسهل، وبحول الله تعالى ونفوس صاحب السعادة أدام الله إجلاله تتحصل وينال مقصوده غير أن المرجو أن يكون التعجيل والمبادرة والأمر مفوض لله ثم لصاحب الأمر وما تقتضيه إرادته فنحن ممثلين وتحت الأمر.

غرة جمادى الثانية ١٢٥٥ هـ / ١١ أغسطس ١٨٣٩ م

مير ميران

خورشيد باشا

سر عسكر

وثيقة رقم (١٧)

شاه إيران يعرض المساعدة والتأييد على محمد علي

محافظ الأبحاث: محفظة ٨٢، موضوع الشام ١٨، وثيقة ١٨٣، المرفق (٢)، صورة الكتاب المرسل من شاه إيران ميرزا قاسم حائز مقام الصدارة في السلطنة الإيرانية إلى الأعتاب السنية أعتاب ولي النعم، في ٢٧ رمضان ١٢٥٥ هـ / ٥ ديسمبر ١٨٣٩ م.

حيث إنه لا يخفى على فكركم الثاقب أن المودة التي أكنها لدولتكم في صدري والصدقة التي أحفظها في ذاكرتي ؛ قد دفعاني إلى أن أشعر فخامتكم بما يجول في قرارة نفسي من مراسم الاتحاد والميل لاستعلام حالة الوداد، وبما أن جهادكم المبرور في سبيل الأمة الإسلامية، وعطفكم على زوار بيت الله الحرام، وسعيكم في جلب رضائهم وتأمين راحتهم قد ذاع وشاع في كل الأقطار، بل جلى وبرز أمام الأعين فكل هذا أوجب مزيد ميلنا ومودتنا إليكم، بناء عليه قد أرسلنا إلى طرف سموكم الحاج السيد محمد بمأمورية مخصوصة لتأييد وتأكيذ هذه الصداقة والمودة بهذه الوسيلة، أعرض على سمو فخامتكم بأنه إذا اقتضت المصلحة بمطالبتنا بأي تعضيد وتأييد فإننا مستعدون لأدائها.

وحيث إن ذاتكم الكريمة موصوفة بالمحامد والمكارم كالشمس في رابعة النهار، وأن أهالي إيران الذين يذهبون إلى دياركم العامرة، والذين يمرون من بلادكم المحروسة من الحجاج والزائرين وأبناء السبيل لا تفتأ ألسنتهم تلمح بالمدح والثناء على أفضالكم ومساعدتكم لهم، بناء عليه قد اقتضت إرادة مولاي جلالة الشاه المعظم بإرسال السيد المحترم الحاج سيد محمد إلى طرف جنابكم

بمأمورية مخصوصة لتأكيد رابطة الصداقة والمودة الموجودة بين دولة إيران العلية وبين الحكومة المصرية ولتأييد المناسبات السياسية.

وإن جلالة مولاي لاحظ بأن إصلاح البلاد وعمرانها يتوقف على الاتحاد ومعاضدة الطرفين بعضهما بعض وخاصة في هذا الوقت، حيث إن ميل ومحنة جلالة مولاي الشاه لذاتكم الفخيمة بلغت أقصى حدها، بناء عليه يؤمل أن يشيد صرح الصداقة، وتمهد مراسم الألفة بين الطرفين وأن يعتبر النفع والضرر اللذين يلحق بالطرفين واحد وأن يعامل الطرفين رعايا بعضهم معاملة واحدة، ويوجهان شعبيهما إلى الصلاح والصواب وأن يتعهدا العاهلين الكريمين بمسئولية ورقي شعبيهما.

صورة الكتاب الثاني من طرف ميرزا قاسم حائز مقام الصدارة في حكومة إيران إلى الأعتاب السنية، في ٢٧ رمضان ١٢٥٥ هـ / ٥ ديسمبر ١٨٣٩ م.

يعرض على أعتابكم الكريمة بأن حضرة صاحب الجلالة مولاي شاه إيران لما سمع بسمو أخلاق وفضائل ذاتكم الكريمة لاحظ بأن تقوية الجامعة الإسلامية وأحكام رابطة الصداقة والمودة منوطة باتحاد الأفكار والآراء، بناء عليه لتشييد صرح الصداقة والمودة وتأييد حسن الروابط والمناسبات بين بلادينا، فقد أرسل مولاي الشاه مع الحاج سيد محمد شيشه وثلاث سبحات من اللؤلؤ لتقديمها هدية من طرفه إلى ذاتكم السنية، وبهذه الوسيلة يظهر ما يحفظه في نفسه من الميل والمحبة لفخامة سموكم فالمأمول أن تتكرموا بحسن قبولها، وأن تتبادلوا مع مولاي رسائل الإخلاص والمودة....

وثيقة رقم (١٨)

محمد علي يستقصي أخبار القضاء على داوود باشا

محافظ ديوان بحر برا: محفظة ١٦، ترجمة الوثيقة رقم ٥، إفادات واردة بدون

تاريخ

«... وأما أخبار بغداد فقد جاء من هناك ساع إلى التجار البغداديين وذكر في الرسائل التي أني بها ما يأتي:

وصل إلى بغداد قاسم باشا والي الموصل مع كتخدا علي باشا، وقد خرج أهال البلدة لاستقبالهما إلى ضريح أولاد الحسين الكاظم، فقالوا لقاسم باشا: هل نصبت والي بغداد

فأجاب: لا إنما نصبت نائبًا عن علي باشا إلى أن يحضر

فقالوا: سمعًا وطاعة، ثم قبضوا على داوود وسلموه إليه وسمحوا لقاسم باشا بالدخول في البلدة، فلم يمض يومان حتى شرعت جنوده في النهب والسلب بل هتك الأعراض، ولذلك قامت الأهالي عليهم فقتلوا قاسم باشا وجنوده وبدر من تجافهم فنصبوا ابن سليمان باشا واليًا عليهم في بغداد، وعرضوا ذلك على الدولة العلية، وبلغ عدد عساكر سليم باشا نحو خمسمائة جندي فقط فلا يكثرث به أهل الشام أصلاً، وقد أشيع خبر فحواه وفاة علي باشا في أردبل بالطاعون وتخريب العرب حوالي الشام».

وأشعرنا بما تقدم لتحيطوا علماً وإن سألتكم عن العرب فنفيدكم بأنهم قد خرجوا عن آخرهم وهو يقولون لتخرين البلاد ولا نبالي بأحد لا بالدولة ولا بوزرائها، وإنما

نحسب حساب مولانا محمد علي باشا فنحترمه ولا نكثرث بمن عداه.

وبسبب اضطراب الحالة في الطريق نبهوا على حجاج إيران بأن يخرجوا دفعة واحدة؛ وبذلك على حجاج الأناضول والروم ايلي أيضًا، هذا وقد اتفق أهالي الشام على أن يتسلموا لدى وصول سليم باشا إلى مدينتهم حتى إذا وجدوا معه أحد من أهالي كركوت أو الموصل قتلوه ويعاملوا الباشا معاملة لا تليق بمقامه وسياسفر أمين الصرة وسائر الحجاج في اليوم السادس والعشرين من شهر صفر الموافق يوم الجمعة.

وثيقة رقم (١٩)

متسلم بلدة عانة وخمسة من زعماء القبائل العربية في منطقة الفرات منهم شيوخ عشائر شمر والعقيل وزبيد يعلنون الولاء للحكومة المصرية، ويطلبون مساعدتها في إسقاط حكم علي رضا باشا، والقيادة المصرية تطلب منهم التريث ريثما يتحسن الطقس فتستطيع انفاذ قوات مصرية كافية إلى مناطقهم

محافظ الأبحاث: محفظة ٦٩، موضوع الشام ٥، الوثيقة العربية ٢٦٢، مرسوم إلى الشيخ محمد الجدعان شيخ عرب العقيل، والشيخ سهيل الباجي متسلم بلدة عنا، والشيخ صفوق والشيخ محمود الطاهر وشيخ زبيد مشايخ عشيرة العقيل، في ٢٤ ربيع الآخر ١٢٤٨ هـ / ١٩ سبتمبر ١٨٣٢ م.

مرسوم إلى الشيخ محمد الجدعان شيخ عرب العقيل

إنه بهذا الأثناء ورد لنا معروضكم وفهمنا ما ذكرتموه عن وصولكم إلى هيت، وعن ولوج الجميع بآبواب الطاعة والانقياد لطرفنا، وطلبتم أن نرسل لكم شرذمة من عساكرنا المنصورة لكي يقبضوا على ذلك الظالم، وشرحتم عما صدر منه من المظالم، جميع ما عرضتموه صار معلوم، وقد سرنا مزيد صداقتكم وحسن استقامتكم، فالمأمول بكرمه تعالى أن يكون خلاص المؤمنين من يد هذا الظالم عن يدينا فأنتم ينبغي أن تشدوا عزمكم وتبادروا بقطع طرقات تلك الجهة ومنع الشارد والوارد عنها، ومن قبلنا إن شاء الله تعالى بعد مرور ثلاثون أو أربعين يوم حتى إذا ترطب الوقت وطلع الحشيش في الأرض للمرعى ففي ذلك الوقت أرسلوا اطلبوا منا عساكر خيالة بقدر ما تريدوا حتى نرسل لكم، فلا يكون عندكم أدنى فكرة وسوف تشاهدون من طرفنا ما يسر خاطركم.

مرسوم إلى السيد سهيل الباجي متسلم عنا (عانة)

إنه ورد لنا معروضكم وكافة ما ذكرتموه من إظهار قرايا تباكم [كذا] على قدم الإطاعة، صار معلوم، وقد حصل لنا مزيد المحظوظية من صداقتكم وغير تكم فهذا هو المأمول من كمال روابتكم، فأما المراسيم مطلوبكم قد تحرروا كمرغوبكم وهم واصلين بطيه، فينبغي أن تشدو عزمكم وتبادروا بقطع السابله ومنع الشارد والوارد من تلك الجهة، وكل من أراد ليتحد معكم تقبلون لكي يكون معكم يدًا واحدة، وإن شاء الله تعالى بواسطة هذه الخدمة يزداد حسن توجهنا عليكم وتحوزون بياض الوجه، وأما مطلوبكم أن نرسل لكم من طرفنا معتمد وصحبة مقدار ثلاثماية خيال فالآن معلوم عندكم حرارة الوقت، وبعد ثلاثون أو أربعون يوم من ترطب الوقت نوعًا وطلع حشيش في الأرض للمرعى ففي ذلك الوقت أرسلوا اطلبوا ثلاثة أو أربعة آلاف خيال حتى نرسل لكم الآن، الثلاثماية خيال الذي ذكرتم عنهم هؤلاء لا ينبغي ذكرهم فكونوا بغاية الراحة في هذا القبيل، وأنتم كما تقدم ابدلوا مزيد غير تكم في نصح كل من كان لكي يكونوا الجميع معكم على قلب واحد ويحوزون مزيد الراحة بزيادة عما يؤملون.

مرسوم إلى الشيخ صفوق والشيخ محمود الطاهر وشيخ زبيد مشايخ عشيرة العقيل

إنه بتاريخه قد صدر أمرنا إلى مفاخر العربان محسوبنا الشيخ السيد سهيل الباجي، وأمرناه أن يسلك في صدق الخدمة لما يكون به رضانا، فيلزم منكم أن تكونوا أنتم والشيخ المذكور يدا واحدة في قيامه وقعوده وسائر حركاته ولأي محل يتوجه تتوجهوا معه في سائر عشيرتكم، وبمنه تعالى متى شاهدنا منكم حسن السعي والاهتمام تحوزوا من طرفنا كل ما يسر خاطركم من العطايا الجزيلة والإنعامات الوافرة، والخلاص الفاخرة التي تخولكم علو الشأن على أقرانكم فيلزم منكم البادرة والسعي، وتكونوا أنتم والسيد سهيل يدًا واحدة وقلبًا واحدًا.

يوم الأربعاء في ٢٤ ربيع الآخر ١٢٤٨ هـ

١٩ سبتمبر ١٨٣٢ م

وثيقة رقم (٢٠)
الفرمان السلطاني الذي سمح للبريطانيين بإبحار باخرتين
في أنهار العراق^(١)

OTTOMAN FERMAN PERMITTING NAVIGATION OF THE
EUPHRATES RIVER BY BRITISH STEAM VESSELS

29 December 1834

To their Excellencies the viziers pashas of three tails , to illustrious Miri mirans pashas of two tails , to the learned Judges to the Wainadas , Captains of ports , and other Magistrates of places situated on both banks of the Euphrates , health.

On receiving the imperial command , you will know as follows: - The Ambassador Extraordinary and plenipotentiary of great Britain at Constantinople , lord Ponsonby one of the most illustrious personages among the Christian nations , has presented at our sublime porte an official note , by which he intimates that the British Government requires permission to cause to navigate by turns two steam boats on the river Euphrates which flows at a small distance from the city of Bagdad , for the purpose of facilitating commerce.

We in consequence issued to our very illustrious governor of Bagdad and Bussora Ali Reza pasha , an order to furnish our sublime

(١) المصدر: Hurewitz. J.C: op – cit , pp 109 – 110

porte with information of the proposed navigation.

Although the answer of the pasha had not arrived the Ambassador made representations on this point , informing our sublime porte the British Government awaited our reply.

For this reason we have and do permit two steam boats to navigate the Euphrates by turns and this navigation is to continue as long as , conformably to what has been represented to us , it may prove useful to the two powers , and no inconvenience result there from , and it is to this purpose that an official rule has been transmitted to the British ambassador.

A firman couched in the same terms has been addressed to the pasha of Bagdad and Bussora.

المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق العربية غير المنشورة

- محافظ ديوان بحر برا: وقد رجعت إليها عبر النسخة الميكروفيلمية، حيث استمدت الدراسة مادتها من تسع عشرة محفظة؛ تبدأ بالمحفظة الأولى، اعتباراً من ١٥ شوال ١٢١٧هـ / ٨ فبراير ١٨٠٣م، وانتهاء بالمحفظة ١٩ المنتهية بمكاتبة تحمل تاريخ ١٥ ذي القعدة ١٢٥٧هـ / ٢٨ ديسمبر ١٨٤١م، ومكاتبات أخرى بدون تاريخ، وهذه المحافظ تتناول علاقة مصر بالدول الخارجية، وبالتالي فقد أفادت الدراسة من مجموعة من الوثائق المتعلقة بالجزيرة العربية والشام والعراق.
- دفاتر ديوان المعية سنية (عربي وتركي): وهذا الديوان عبارة عن وحدة أرشيفية متكاملة منظمة تشمل العديد من الدفاتر والمحافظ، ويتكون القسم العربي منه من ٥٠٤ سجلاً أقدمها السجل رقم «١» بتاريخ ١٢٤٥هـ (١٨٢٩م)، وأحدثها بتاريخ ١٢٩٧هـ (١٨٧٩م)، أما القسم التركي فمترجم إلى العربية ومحفوظ في محافظ، وبداية كتابة الأوامر فيه أقدم من سجلات القسم العربي، حيث يبدأ بتاريخ ٢ محرم ١٢٤٤هـ / ١٤ يوليو ١٨٢٨م، والمحافظ التي أفادت الدراسة خمس عشرة محفظة تبدأ بالمحفظة رقم ٢ المسجلة لوقائع عام ١٢٤٤هـ (١٨٢٧-١٨٢٨م)، وتنتهي بالمحفظة رقم ١٥ المسجلة للوقائع حتى بداية عام ١٢٥٤هـ (١٨٣٩-١٨٤٠م).
- محافظ ديوان الجهادية: اعتمدت الدراسة على ثلاث محافظ تحمل الأرقام ١، ٢، ٢٦، وتضم الفترة من ١٢٤٤-١٢٥٠ هجرية / ١٨٢٩-١٨٣٥م.

- محافظ ديوان الخديوي: وكان اعتمادنا عليه قليل جدًا من خلال بعض الوثائق التي عثرت عليها ضمن أدراج الفهرسة الموجودة بدار الوثائق القومية، وكذلك بعض الوثائق التي اطلعت عليها من خلال بحثي بالدار عبر النسخة الميكروفيلمية.
- محافظ ذوات تركي: وقد رجعت إليها عبر النسخة الميكروفيلمية بدءًا من المحفظة الأولى التي تبدأ بمكاتبة تحمل تاريخ غرة محرم ١٢٢٠هـ / ١ أبريل ١٨٠٥م، وانتهاءً بالمحفظة ٨ التي تنتهي بمكاتبة تحمل تاريخ ٩ شعبان ١٢٦١هـ / ١٣ أغسطس ١٨٤٥م.
- محافظ الشام: وتحتوي على عشرين محفظة تبدأ بالمحفظة ٦٥ أبحاث وتمثل أولى محافظ الشام اعتبارًا من عام ١٢٤٧هـ (١٨٣١ / ١٨٣٢م) وتنتهي بالمحفظة ٨٤ أبحاث وهي العشرون من محافظ الشام المسجلة لوقائع الفترة من جمادى الثاني إلى ذي الحجة عام ١٢٥٦هـ (١٨٤٠ / ١٨٤١م).
- محافظ الحجاز: وتحتوي على اثنتي عشر محفظة تبدأ بالمحفظة ٩٥ أبحاث وتمثل أولى محافظ الحجاز اعتبارًا من عام ١٢٢٢هـ (١٨٠٧ / ١٨٠٨م) وتنتهي بالمحفظة ١٠٦ أبحاث وهي الثانية عشر من محافظ الحجاز المسجلة لوقائع عام ١٢٥٦هـ (١٨٤٠ / ١٨٤١م).

ثانيًا: الوثائق الأجنبية غير المنشورة

- **Foreign Office (F. O) 17 VOLS (1799 – 1879).**
- محافظ محفوظ بدار الوثائق القومية بالقاهرة.
- **Hansards parliamentary debates: 3rd Ser, vol XXIV, (London: June, 3, 1834).**
- مضابط محفوظة بالمكتبة المركزية لجامعة القاهرة.

ثالثًا: رسائل جامعية

١. علي عفيفي علي غازي: أثر الصراع المصري العثماني في الجزيرة العربية والشام على العراق، (الإسكندرية: كلية الآداب جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٩).

٢. علي عفيفي علي غازي: رؤية الرحالة لقيم وعادات عشائر العراق ١٨٠٠-١٩٥٤، رسالة دكتوراة غير منشورة، (دمنهور: كلية الآداب جامعة دمنهور، ٢٠١٤).
٣. مالك محمد رشوان: سياسة محمد علي باشا في شبه الجزيرة العربية ١٨١١-١٨٤٠، رسالة ماجستير غير منشورة، (أسيوط: كلية اللغة العربية بأسيوط، جامعة الأزهر، ١٩٧٨).
٤. يسري محمد عبد الهادي الحنفي: أثر الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام في الجزيرة العربية، رسالة دكتوراة غير منشورة، (الرياض: كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى، ٢٠٠١).

رابعًا: المراجع العربية

٥. أحمد خليل عطوي: دولة الإمارات العربية المتحدة؛ نشأتها وتطورها، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨١).
٦. أحمد زكريا الشلق (وآخرون): محمد علي وعصره، (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٦).
٧. أحمد محمد عبيد بطي: الصراع البرتغالي العثماني في القرن السادس عشر، (دبي: ندوة الثقافة والعلوم، ١٩٩١).
٨. السيد عبد الجليل: روض الخل والخليل، (دمشق: منشورات المكتب الإسلامي، ١٩٦٤).
٩. إلهام محمد علي ذهني: فرنسا والخليج من منتصف القرن الثامن عشر حتى بدايات القرن العشرين، (القاهرة: دار الزهراء للنشر، ١٩٩٣).
١٠. أمين سعيد: تاريخ مصر السياسي من الحملة الأفرنسية سنة ١٧٩٨ إلى انهيار الملكية سنة ١٩٥٢، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٩).
١١. جمال زكريا قاسم: دولة البوسعيد في عمان وشرقي أفريقيا منذ تأسيسها وحتى نهاية حكمها في زنجبار وبداية عهدها في عمان ١٧٤١ - ١٩٧٠، (أبو ظبي: مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠٠).

١٢. جمال زكريا قاسم: تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، للمجلد الأول، إمارات الخليج العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول ١٥٠٧ - ١٨٤٠، (القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠٠١).
١٣. جمال محمود حجر: القوى الكبرى والشرق الأوسط في القرنين التاسع عشر والعشرين، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩).
١٤. حصة بنت جمعان الهلالي الزهراني: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الدولة السعودية الثانية ١٨٢٤ - ١٨٩١ م، (الرياض: دار الملك عبد العزيز، ٢٠٠٤).
١٥. حسين مجيب المصري: معجم الدولة العثمانية، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٧).
١٦. حسين هادي الشلاه: طالب باشا النقيب البصري ودوره في تاريخ العراق السياسي الحديث، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٢).
١٧. خليفة بن عبد الرحمن المسعود: موقف القوى المناوئة من الدولة السعودية الثانية ١٨١٨ - ١٨٦٦ م دراسة تاريخية وثائقية، (الرياض: دار الملك عبد العزيز، ٢٠٠٥).
١٨. زكي صالح: مجمل تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني، (القاهرة: معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦٦).
١٩. سعاد هادي العمري: بغداد في القرن التاسع عشر كما وصفها الرحالة الأجانب (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٢).
٢٠. سلطان بن محمد القاسمي: العلاقات العمانية الفرنسية ١٧١٥ - ١٩٠٥، (الشارقة: دار الغرير للطباعة والنشر، ١٩٩٣).
٢١. سلطان بن محمد القاسمي: الاحتلال البريطاني لعدن ١٨٣٩ م، (الشارقة: دار الغرير للطباعة والنشر، ١٩٩٢).
٢٢. سلطان بن محمد القاسمي: جون مالكولم والقاعدة التجارية البريطانية في الخليج ١٨٠٠، (الشارقة: الخليج للطباعة والنشر، ١٩٩٤).

٢٣. سليمان فائق بك: تاريخ المماليك "الكولة مند" في بغداد، محمد نجيب أرمنازي (ترجمة)، (بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٦١).
٢٤. طارق عبد العاطي غنيم بيومي: سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الأول من القرن التاسع عشر ١٨١١ - ١٨٤٨، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩).
٢٥. عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٩).
٢٦. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: محمد علي وشبه الجزيرة العربية ١٨١٩ - ١٨٤٠، (القاهرة: دار الكتاب الجامعي، ١٩٨٦).
٢٧. عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العرب الحديث، الجزء الأول: العراق، (القاهرة: الجهاز المركزي للكتب الجامعية، ١٩٧٦).
٢٨. عبد العزيز سليمان نوار: مصر والعراق، دراسة في تاريخ العلاقات بينهما حتى نشوب الحرب العالمية الأولى، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨).
٢٩. عبد العزيز سليمان نوار: داود باشا والي بغداد، (القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨).
٣٠. عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، (القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨).
٣١. عبد العزيز سليمان نوار: المصالح البريطانية في أنهار العراق ١٦٠٠ - ١٩١٤، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨).
٣٢. عبد العزيز محمد الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الثاني، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦).
٣٣. عبد الغفار محمد حسين: بناء الدولة الحديثة في مصر، الجزء الأول، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠).
٣٤. عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون ١٥١٦ - ١٩١٦، (دمشق: ١٩٧٤).
٣٥. عبد الكريم عبد المنيف الوهبي: بنو خالد وعلاقتهم بنجد، (الرياض: دار ثقيف للنشر والتأليف، ١٩٨٩).

٣٦. عثمان بن سند الوائلي البصري: مطالع السعود، تاريخ العراق من سنة ١١٨٨هـ / ١٧٧٤م إلى سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف وسهيلة عبد المجيد القيسي، (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٩١)، ص ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٣.
٣٧. عثمان بن عبد الله بن بشر النجدي الحنبلي: عنوان المعجد في تاريخ نجد، جزآن، عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ (تحقيق)، (الرياض: دار الملك عبد العزيز، ١٩٨٣).
٣٨. علي سلطان: تاريخ العرب الحديث ١٥١٦-١٩١٨، (طرابلس: منشورات مكتبة طرابلس العلمية، ١٩٩٨).
٣٩. علي عبد الله فارس: شركة الهند الشرقية البريطانية ودورها في تاريخ الخليج العربي، (الشارقة: المسار للدراسات والاستشارات والنشر، ١٩٩٧).
٤٠. عمر عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٩٢٢، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٤).
٤١. فاروق عثمان أباطة: دراسات في تاريخ العالم العربي والإسلامي الحديث والمعاصر، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٧).
٤٢. لجنة من المختصين: الكويت وجودًا وحدودًا الحقائق الموضوعية والادعاءات العراقية، (الكويت: مركز البحوث والدراسات الكويتية، ١٩٩٨).
٤٣. لطيفة محمد سالم: الحكم المصري في الشام ١٨٣١-١٨٤١، (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٩).
٤٤. محمد حسن العيدروس: تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، (الكويت: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٦).
٤٥. محمد حسن العيدروس: تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، (الكويت: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٨).
٤٦. محمد رفعت الإمام: تاريخ الجالية الأرمنية في مصر، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩).

٤٧. محمد عبد الستار البدري: المواجهة المصرية الأوروبية في عهد محمد علي، (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١).
٤٨. محمد فريد بك: البهجة التوفيقية في تاريخ العائلة الخديوية، تحرير ودراسة أحمد زكريا الشلق، (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٥).
٤٩. محمد مرسي عبد الله: تاريخ الإمارات العربية المتحدة، مختارات من أهم الوثائق البريطانية ١٧٩٧ - ١٩٦٥، المجلد الأول، بريطانيا والإمارات ١٧٩٧ - ١٩٦٠، (لندن: مركز لندن للدراسات العربية، ١٩٩٦).
٥٠. وزارة الدفاع: الجيش المصري عبر العصور، الجزء الثاني (القاهرة: وزارة الدفاع، جمهورية مصر العربية، دون تاريخ طبع).
٥١. يوسف عز الدين: داوود باشا ونهاية المماليك في العراق، (بغداد: مطبعة الشعب، ١٩٧٦).

خامساً: المراجع المعربة

١. أنطونيو بليتييري: "المذكرة التمهيدية"، لكتاب الإسهامات الإيطالية في دراسة مصر الحديثة في عصر محمد علي باشا، عماد البغدادي (ترجمة)، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥).
٢. جورج فورستر سادليير: رحلة عبر الجزيرة العربية خلال عام ١٨١٩م، سعود بن غانم العود بن غانم الجمران العجمي (تحقيق)، (الكويت: مطابع القبس، ٢٠٠٥).
٣. غيورغي بواندر يسفكي: الكويت وعلاقاتها الدولية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ترجمة ماهر سلامة، (الكويت: مركز البحوث والدراسات الكويتية، ١٩٩٤).
٤. كلوديوس جيمس ريج: رحلة ريج المقيم البريطاني في العراق عام ١٨٢٠ إلى بغداد وكردستان وإيران، ترجمة اللواء بهاء الدين نوري، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٨).

٥. كونستانس م. ألكسندر: بغداد في الأيام الخوالي، (أبو ظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠١).
٦. لوريمر: دليل الخليج، القسم التاريخي، الجزء الثالث، (الدوحة: ديوان أمير دولة قطر، ٢٠٠٢).
٧. ماسيمو كامبانيني: تاريخ مصر الحديث من النهضة في القرن التاسع عشر إلى مبارك، ترجمة عماد البغدادي، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٦).
٨. هنري فوستر: نشأة العراق الحديث، الجزء الأول، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي، (بغداد: الفجر للنشر والتوزيع، ١٩٨٩).

سادسًا: مقالات في دوريات

١. إبراهيم جمعة: "جدول تحويل السنين الهجرية إلى ما يقابلها من التواريخ الميلادية"، مجلة الدارة (١٩٧٢).
٢. أحمد عبيدلي: "الحملة العسكرية على رأس الخيمة ١٨١٩ - ١٨٢٠"، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٣١ (١٩٨٢).
٣. بدر الدين الخصوصي: "ال جذور التاريخية لأزمة العلاقات العراقية - الإيرانية في العصر الحديث"، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد الأول (١٩٨٢).
٤. جليل كمال الدين: "موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي (١٧٩٨-١٨٠١)"، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٣٦، (أكتوبر ١٩٨٣).
٥. جمال زكريا قاسم: "موقف الكويت من التوسع السعودي في نجد وسواحل الإحساء"، المجلة التاريخية المصرية، المجلد السابع عشر (١٩٧٠).
٦. حيدر جاسم الرويعي: "نشاط الآباء الكرملين في العراق حتى الحرب العالمية الأولى"، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، المجلد الثامن، العدد ١-٢، (٢٠٠٥).
٧. خالد بن حمود السعدون: سير العمل في إنشاء سكة حديد برلين - بغداد ١٩٠٨-١٩١٤، مجلة الدارة، العدد الرابع، السنة ٣٥، (١٤٣٠هـ)، ص ١١٥ وما بعدها.

٨. خالد حمود عبد الله السعدون: "المبشرون الأجانب وأنشطتهم في العراق"، مجلة الخليج العربي، المجلد ٣٥، العدد ١-٢، (٢٠٠٧).
٩. خليفة بن عبد الرحمن المسعود: "خالد بن سعود وعبد الله بن ثنيان بين التأيد المحلي والدعم العثماني ١٨٤١-١٨٤٣"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد ٩٣ (٢٠٠٦).
١٠. سلطان ناجي: "الخلفية التاريخية للاحتلال البريطاني لعدن"، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد الثاني (١٩٧٥).
١١. صحيفة الوسط: "السيد عبد الجليل الطباطبائي"، صحيفة الوسط البحرينية، العدد ١٢٠، (٤ يناير ٢٠٠٣).
١٢. طارق البشري: "حروب محمد علي"، مجلة الهلال، العدد ٢، (١٩٦٥).
١٣. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: "البحرين والقوى المتنافسة في الخليج ١٨٠٠-١٨٤٣"، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد السادس (١٩٨٣).
١٤. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: "دور البصرة في أحداث نجد وشرقي شبه الجزيرة العربية في عهد محمد علي ١٨١٩ - ١٨٤٠ من خلال الوثائق المصرية"، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد الرابع (١٩٨١).
١٥. عبد العزيز سليمان نوار: "مصر والخليج العربي في القرن التاسع عشر"، مجلة الهلال، السنة ٧٢، العدد الحادي عشر (١٩٦٤).
١٦. عبد العزيز سليمان نوار: "ثورة ١٨٣٢ في العراق"، مجلة الهلال، السنة ٧٣، العدد الثاني (١٩٦٥).
١٧. عبد العزيز سليمان نوار: "العراق وصراع بعثات التبشير"، مجلة الهلال، السنة ٧٣، العدد الخامس (١٩٦٥).
١٨. عبد العزيز سليمان نوار: "أثار العراق والصراع الاستعماري في القرن التاسع عشر"، مجلة الهلال، السنة ٧٣، العدد الثالث (١٩٦٥).

١٩. عبد العزيز سليمان نوار: "التبشير البروتستانت في العراق"، مجلة الهلال، السنة ٧٣، العدد السادس (١٩٦٥).
٢٠. عبد العزيز سليمان نوار: "دور العراق العثماني في حرب القرم"، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ١٣ (١٩٦٧).
٢١. عماد أحمد الجواهري: "الدور التاريخي للبصرة على الخليج ١٥٠٠-١٦٠٠"، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية (١٩٧٨).
٢٢. عمر عبد العزيز عمر: "العلاقات المصرية اللبنانية ١٨٢٠-١٨٤٠"، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، المجلد ٢٦ (١٩٧٢).
٢٣. محمد زكريا عناني: "مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد وبين نابليون بونابرت ورجال حملته على الشرق"، مجلة الدارة، العدد ٤، السنة ٢١ (١٤١٦).
٢٤. علي عفيفي علي غازي: "الكلك في كتابات الرحالة"، مجلة التراث الشعبي، العدد الثاني، (٢٠١٥).
٢٥. مصطفى عقيل الخطيب: "التطلعات الإيرانية في البصرة على عهد كريم خان الزند ١٧٧٤-١٧٧٩"، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد ١٦ (١٩٩٣).
٢٦. يوسف عز الدين: "إدارة ولاية بغداد في القرن التاسع عشر"، مجلة الأستاذ، كلية التربية، جامعة بغداد، المجلد السابع (١٩٥٩).

سابعاً: الكتب الأجنبية

1. Bury, J. P T: the new Cambridge modern history, volume X, the zenith of European power 1830-70, (Cambridge: Cambridge university press, 1967).
2. Chesney. F. R.: the expedition for the study the rivers Euphrates and Tigris, Vol. 1, (London: 1850).
3. Chesney F. R.: Narrative Euphrates Expediton (london:

longmans green and co., 1868).

4.Dodwell. H: **The Founder of Modern Egypt: A study of Mohammed Ali**, (Cambridge: England, 1967).

5.Hoskins. H.L: **British routs to India**, (London: 1928).

6.Hurewitz. J.C: **Diplomacy in the Near and Middle East, a documentary record: 1535-1914**, vol. 1, (New York: 1987).

7.John Marlowe: **The Persian Gulf in the Twentieth Century**, (London: the Cresset Press, 1962).

8.J. R. Weilsted: **Travels to the City of the Caliphsi**, vol. 1, (London: 1840).

9.Longrigg. S. h: **Four Centuries of Modern IRAQ**, (Oxford: Oxford University press, 1968).

10.Olivier, G., **Voyage dans L'empire Ottoman**, 3 Tomes, (Paris: 1908).

11.Ross, H. J.: **Letters from The East 1837-1857**, Edited by his Wife (London: 1902).

12.Yapp, M. E: **the making of the modern near east 1792-1923**, (London, Longman,1987).

13.Zaki Saleh: **Mesopotamia (Iraq) A study in British foreign affairs**, (Baghdad: al-ma~aref press, 1957).

14.Kelly J. B.: **Britain and the Persian Gulf 1795-1880**, (Oxford: Oxford Clarendon press, 1991).

ثامناً: دوائر المعارف

• دائرة المعارف الإسلامية، (الشارقة، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ١٩٩٨)
المجلد ٢٣.

الفهرس

إهداء	٥
المقدمة	٧
بداية التدخل الأجنبي	١١
الحملة الفرنسية على مصر والاهتمام الدولي بالخليج	١٧
الصراع بين داوود باشا والي بغداد والوكيل السياسي البريطاني	٢٧
علي رضا باشا وتفوق النفوذ البريطاني	٣١
الصراع المصري العثماني والنشاط الأجنبي في العراق	٣٨
الصراع المصري العثماني والملاحة البريطانية في أنهار العراق	٤٠
بعثة تشيزني وتفوق الملاحة البخارية البريطانية في العراق	٤٤
بعثة تشيزني أول نجاح بريطاني في وضع قوة مسلحة في العراق	٥٩
موقف محمد علي من بعثة تشيزني	٦٦
موقف الأهالي والعشائر العراقية من بعثة تشيزني	٧٧
بعثة الفرات التجربة البريطانية الأولى في العراق	٨١
الملاحة البخارية البريطانية في أعقاب بعثة تشيزني	٨٥
الصراع المصري العثماني وتنشيط التنافس الأجنبي في العراق	٩٢
الصراع المصري العثماني والإرساليات التبشيرية في العراق	٩٥
البعثات التبشيرية التنصيرية الفرنسية في العراق	٩٧

١٠٤	البعثات التبشيرية التنصيرية البريطانية في العراق
١١٤	الصراع المصري العثماني وبعثات التنقيب عن الآثار في العراق
١١٩	الصراع المصري العثماني والدراسات الطبوغرافية والجغرافية
١٢٢	اتصالات فيصل بن تركي بوالي بغداد وموقف محمد علي منها
١٢٦	حملة خورشيد باشا على الإحساء ونجد (١٨٣٧-١٨٣٩)
١٤٨	مبعوث خورشيد إلى البحرين والموقف البريطاني
١٥٧	خورشيد باشا وساحل عمان المتصالح (الإمارات العربية المتحدة)
١٦٠	خورشيد باشا وسلطنة مسقط
١٦٣	خورشيد باشا والكويت
١٦٧	خورشيد باشا يتطلع لضم البصرة ويطلب الإذن بغزو العراق
١٧٣	مقاومة بريطانيا للوجود المصري في الخليج والعراق
١٧٧	الانسحاب المصري من الخليج والجزيرة العربية
١٨٧	التدخل البريطاني في العراق واحتلاله
١٨٩	الخاتمة
١٩٣	الحقائق التي كشفتها الدراسة
١٩٥	الملاحق
٢٣٥	المصادر والمراجع